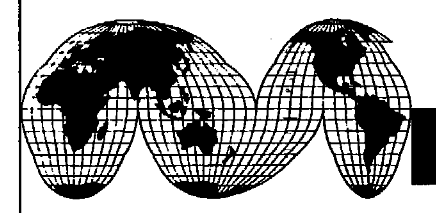
حصاد القرن العشرين

مطلع الفجر

١

فؤاد شاكر

الناشر
الدار المصرية اللبنانية



تقديم

لكل منا نظرته الخاصة ، ومذاقه الشخصى ، ومشاعره الذاتية نحو قرن من الزمان فات ومات، وما يحمل فى سجلّه من ذكريات . وأيضا .. نحو قرن يوشك على الميلاد. ومثل أى طفل بشرىّ يولد ، يُعلن عن مَقْدمه بالصراخ والبكاء وإن استقبله أهله بالبهجة والرجاء .

إن الزمان ـ مثل المكان ـ وعاء .. واحتواء . وكل منا يشغل ساعته ، أو يومه ، أو سنين عمره بما يأتى من خير أو يدّع ؛ بما يَجْنى من شر أو يَنْزع ، أى : ما يزرع من عمل أو فكر أو قول ، يحصده لنفسه ، أو يصيب به مَنْ معه وحوله .. حُلْوا أو مُرا ، نافعا أو ضارا ، عابرا خفيا أم خالدا على ألسنة الناس وفى ذاكرة الأجيال .

فقيمة المكان بما فيه ، وقيمة الزمان بما يحويه . وهذا وذاك فى مشاعرك وتقديرك ، غيره بالنسبة لى أو لصاحبك وقريبك.. وربما فيه مافيه نتفق ، ويقينا فيه ما فيه نفترق..

﴿ ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات﴾

« سورة البقرة ـ آية ١٤٨ »

فى هذا القرن العشرين المودِّع : وُلِدنا .. وقضينا شطراً ـ كبيرا أو صغيرا ـ من حياتنا .. وعاش بنا ومعنا أحباء أخلاء،ورفاق أصدقاء ، أهل ومعارف وقُرناء .. منهم من قضَى نَحْبه ومنهم من ينتظر ؛ منهم من علا شأنه ومنهم من ينحدر .. فتلك سُنة الحياة وطبيعة الأحياء ، وللخالق الرزاق فى خَلْقه شئون .. ! فسبحان من له وحده الكمال ، فلا يأتى منه إلا الخير ـ فضلا ـ والجمال .

وها نحن نسترجع معا سنوات حافلة بالوقائع والمصائر والأحداث ؛ ونستعيد من بدايات القرن ـ العشرين ـ حصيلة ما جنَى الناس فيه لأنفسهم أو على أنفسهم ، وما تركوه لأبنائهم وأحفادهم صُناع الأجيال القادمة ، من ميراث للحضارة وتراث للثقافة ، فى شتى جوانب الحياة : سياسية ودبلوماسية، اجتماعية واقتصادية ، فكرية وفنية ، أدبية وإبداعية ، علمية وتكنولوجية ، رياضية وترويحية ..فى سلسلة متصلة بإذن الله .. تفصيل أجزائها مُبيَّن فى آخر هذا الكتاب ، وهو مَدخلنا إلى مراجعة القرن الغارب ، أو بداية الرحلة من وراء السنين . إنها حصاد ـ أوبالأحرى بعض حصاد ـ قرن من الزمان ، له فى التاريخ مقام معلوم ، وفى تقدم البشرية أو تأخرهاحساب مرصود .

ورحمَ الله زمانا مضَى ، ومَن فيه رحَل .. وبارك الله زمانا بقى ، ومن فيه حلّ .. وأصلح الله أبناء قرن قادم ، نرجولهم ـ وبهم ـ فلَاح البلاد وعزَّ العباد، ونَشْر الفضائل فى كل واد .

فؤاد شاكر

القاهرة فى / / ١٩٩٩

هــذه الموسـوعــة

بفضل من الله وتوفيقه ، عرضتُ فكرتها على الناشر المهذب الكريم الأستاذ « محمد رشاد » ، فتفضل ـ مشكورًا ـ بالموافقة عليها ومؤازرة تنفيذها بقوة وحماس . وبعد مرحلة التخطيط لها بمشاركة اثنين من الكتاب الفضلاء هما الأستاذين : « مختارالسويفى » و « سامح كريِّم » إلى جانب مجموعة من الأساتذة العلماء الأجلاء سوف ترد أسماؤهم فى الأجزاء التالية بإذن الله تعالى .

وهذه الموسوعة فى أحد جوانبها هى محاولة لإلقاء الضوء على رؤية شاملة تحتوى قرنًا مضَى من الزمان بحلوه ومُره ، قطعتْ فيه البشرية خطوات واسعة فى جوانب ، وتراجعتْ فى جوانب أخرى خطوات . وفى حياة الأفراد والدول تقتضى الحكمة مراجعة الماضى ، لتعديل مسار الحاضر الموصول بالمستقبل ، لعله يكون أكثر سلامًا، وإرضاءً ، وأمنًا .

ومن جانب آخر : ففى هذا القرن الراحل ترابطتْ أجزاء العالم الأرضى وتشابكت أحداثه ، وترددداتها ، وانعكاساتها ،حتى صار ـ لأول مرة فى التاريخ ـ وحدة متكاملة فى السراء والضَرّاء ، بل هى فى الضراء

أكبر وأخطر . ومن هنا ظهر الاتجاه الغالب على تهيئة المستقبل فى إطار: العالمية .

إن الهدف الرئيسى من هذه الرؤية العامة الجامعة هو أن تكون بمثابة إشارة إلى أهم الوقائع ، والأحداث ، والاكتشافات ، والابتكارات ، والإبداعات الفنية ، والإنجازات ، والطرائف، والجرائم الكبرى.. مع تقديم نماذج من مشاهير صُنّاعها وصانعاتها ، على المستوى المحلى والعالمى.

ففى مجال السياسة والدبلوماسية مثلا : لم يكن دور قادة وزعماء مثل « مصطفى كامل » ، و «محمد فريد » ، و « سعدزغلول » ، و«جمال عبد الناصر» ، و« أنور السادات » و « الملك عبد العزيز آل سعود» ، وأمراء « آل الصباح » ، والسلطان « محمد الخامس » ، والأمير « عبد الكريم الخطابى » ،و « كمال أتاتورك »، و « أحمد سوكارنو » .. لم يكن دور هؤلاء ـ وغيرهم كثيرون فى العالم العربى والإسلامى ـ أقل تأثيرا من دور رجال مثل «تشرشل» ، و«هتلر» ، و« روزفلت» ، و«ترومان» ، و«كيندى» ، و«لنين» ، و«ماو» ، و«ستالين» ، و«غاندى» .. محليًا وعالميًا .

وفى مجال العلوم والاكتشافات : كان تأثير « مصطفى مشرفة » مساوق لتأثير « آينشتين » و« مدام كورى » فى بحوث الذرّة والإشعاع.

وفى الفنون : لا تُنْكَر قيمة الفنان « محمود مختار » ، و « سيد درويش » عند الحديث عن « بيكاسو » و« أرمسترونج » و«لوكوربوزييه» .. وهكذا فى المجالات الأخرى .

إن مراجعة أحداث القرن، وما تم فيه من إنجازات وابتكارات ، ومطالعة جوانب من سير البارزين من الرجال والنساء الذين صاغوا سماته ، تُذكِّرُ بدور ومكانة القادرين على الإسهام فى تطور وتغيير حياة الأفراد والأمم والشعوب ، أيًا كان مستوى هذا التطور وقيمة هذا التغيير .. وقد يكون فى ذلك دفع إلى الشباب وأبناء الأجيال القادمة نحو حُسن النظر والتأمل لإضافة الجديد النافع ـ بتوفيق من الله تعالى ـ وهُم على عتبات قرن وليد .

وداعًا قرن الأفراح والأتراح

خطأ فى الحساب ذاع وشاع ، لكنه صار مقبولاً بغير نزاع : أن القرن العشرين بدأ فى أول يناير عام ١٩٠٠ ! . فى المنطق الرياضى الصحيح ، كانت بدايته فى ١/١/١٩٠١ م . وهكذا فى كل ما مضى وما يأتى من قرون .

وخطأ فى الاعتقاد سَرى فى البقاع ، لكنه وجد آذانًا تصغِى للسماع ، بلا انقطاع ، وربما تتوهم الاقتناع : أن أول القرن من الزمان ـ أى قرن ـ تصحبه حتماً كارثة ، أو معجزة ، أو واقعة مفزعة ، وربما رجَّة من علامات يوم القيامة!.

خطأ واضح ، ودَجَل فاضح ! ، والدليل : هذا الخطأ الحسابى الشائع المقبول ، مع نظرة فاحصة متأنية لا تحتاج إلى فطنة مفرطة وذكاء شديد ... فالأحداث الكبرى والاختراعات المُثْلَى ، والكوارث العُظمى فى تاريخ العالم ـ البشريةمنها ، والطبيعية ، أو فوق الطبيعية ـ لم ترتبط أبدًا باليوم الأول ، ولا الثانى ، ولا الثالث من بداية كل قرن ، سواء فى التقدير المغلوط ، أم بالحساب الرياضى المضبوط . وحتى ميلاد المسيح عليه السلام ، الذى يتخذه التأريخ الغربى مبدأ ارتكاز فى الحساب السنوى والتقويم ، مختَلَف فيه كل الاختلاف: فى اليوم ، هل هو الأول من يناير ، أم الثالث ، أم السابع ؟ ـ وفى

السنة ، هل هى الرابعـة ، أم الخامسة ، أم الثالثـة ، أم السابعـة قبل التاريخ المعـروف الآن والمألوف ؟ ... ثم إن أممـاً وشعـوبًا كثيرة على الأرض لا تُؤرخ بهذا التقويم .



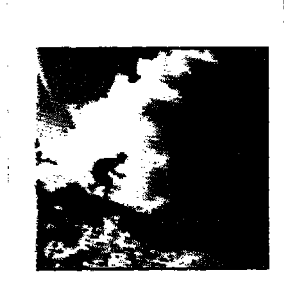
أمر آخر يلحق بهذا .. ويجب الالتفات إليـه ، والنظر فيه : أن عالمنا المدرَك والمنظور ، هذا الكون الفسيح ـ بعوالمه وكـواكبه ونجـومه وبلايين مجراته ـ تحكمــه قــوانين لا تخضع لأفكارنـا ـ نحن البشر المغــرورون ـ ولا تتبع نظرياتنا ، وتخَرُّصـــاتنا، وأهواءنـا ، ومخاوفنا ، أو رغـائبنـا .. وأوْلى بأبناء وأجيـال القرن العشرين ، قـرن القفـزة العلمية الهائلة ، والصحـوة الفكرية المتفـائلة ، أوْلى بهم ـ وهـم أجـدر من غيرهـم ـ أن يطرحـوا أوهام الخرافـة ، ويلتمسوا مـراشد المنطق ، وأن يضعـوا عن عقولهم غياهـب الظن ، ويَدَعوا ـ باستنارة ـ وسـاوس الإنس والجن .. فإن الظن لا يُغنى من الحق شيئاً .

والأقـرب إلى النفع والصـواب ، أن « نُفَتِّش » فى نسيج هذا القـرن المودَّع ، وأن ننقب فى « ذاكـرة » الليـالى والأيام الماضيات ، وفيهـا رصيـد ضـخم من الطيب الرائع والمتألق الناصع ، وكـذلك فيهـا الخبيث الغثيث والرثيث . إن « نسيج » هذا القــرن ـ فى معظمه ـ ثمين متين، لن يَبْلَى بسهولـة ـ وإن تَقَادَم ـ ولن يتلاشى، وإن اهترأ ... فهو قـرن بالأحداث الكبرى مـلء ، وبالاختراعات المثْلَى وضىء ، وبالكوارث العظمى كظيظ .

فيه تحقق ـ بتقديـر السابقين ـ ما يشبه المعجزات : الطائـرات والنفاثات الأسرع من الصــــوت ، والوصـــول إلى القمــــر ، والتنقل بين الكـواكب ، والغواصات الذرية المتجـولة فى أعماق البحار والمحيطات .. الهجرات البشرية المستمرة الكبيرة ، والرحـلات السياحيـة عبر العالم كله بالملايين .. لم يسبق فى تاريخ القـرون الماضيـة من حيـاة الإنسـان على هذا الكوكب ، أن تناقص الإحساس بتقـدير الزمان والمكان ـ على الأرض ـ وانكمش بمثل مـا هو عليه الآن .. تطلعات الشعوب والجماعات والقبائل ـ مهما صغرت عدداً ، أو بعدت موقعـاً ـ إلى مزيد ومـزيد من العلم ، والمعـرفة ، والرخاء ، والحريـة .. التقاء الثقافـات وتشابك الحضـارات .. السرعة فى انتقـال الخبرات ، والاستفادة من توالى الاكتشافات والاختراعات ، وتطور الأجهزة والصناعات ، وتحسين نظم السيـاســة والتجـارة والاقتصـاد واستثمار الأمــوال .. ابتكار وسـائل نقل المعارف ، والآداب ،والعلوم، والفنون ، والتقاء بلايين البشر فى وقت واحد ، فى

ساعة واحدة ، لمشاهدة سبـاقات ومباريات الرياضة والألعاب ، وهى تجرى فى تلك السـاعـة ، وكأنهم على « بسـاط الريح » ، أو « يسخِّـرون » الجن، أو يضعون فى إصبعهم « خاتم سليمان» ، كما كانت تحكى الجدة العجوز ! .

إنه قـرن حاشـد حافل ، متخم بالبدائع والروائع ، بالمِراح [1] والأفراح ، وأيضاً بالأحزان ، والمحن ، والأشجـان . تماماً كما يحدث فى حياة كل إنسان. وما الأيـام والشهور والأعـوام والقرون ، إلا « أوعية » يُختـزن فيها مـا ينال الناس والأمم والدول والشعوب ، مـن خير أو شر ، من حَسَن أو قبيح ، أو ما يصنعون هم فيها من أعمال صالحات ، أو ما يقْتَرفون فيها من آثام مهلكات. أما الزمن ـ فى ذاته ـ فهو محايد ، لا يُكابِد ولا يكايِد ! .



لقد أغنانا ـ مشكـوراً ـ هذا القرن فى تناوله ، أو بالأحـرى .. أغنَتْنا أحداثه ووقائع الأيام فيه ، عن معـاناة التجزئة والتقسيم ، لتيسير التأمل ، والفحص السليم .. فهو فى نصفه الأول ، يختلف كثيرًا عن نصفـه الثانى . والأول شـهد حـربين كبيرتين عـالميتين ، تقسمان هذا النصف إلى قسمين ، أو مـرحلتين متتابعتين : ما قبل الحرب العالميـة الأولى ، وحتى نهايتها (١٩١٨)، وما قبل الحرب العالمية الثانيـة إلى مختتمها (١٩٤٥) ، ثم النصف الثانى من القرن ، وما شـهد من « حرب باردة » بين الكتلتين الكبيرتين (الرأسمالية والشيوعية) وتوابعهما، وهذه مـرحلة ، ثم من بوادر انهيـار النظام الشيـوعى بـرمتـه وتداعياته ، وحتى نهاية القرن .

وكما نرى ، فى مـلاحظة عـابرة : إن كلمـة « الحرب » هى التى تحملنا على اختيـار هذا التقسيم .. فكأنما النزاع والصراع والعـراك هى السمات البـارزة الغالبـة ، مهما جنح أصحـاب النيات الطيبـة إلى السلام ، ودعـا المصلحون الراشدون إلى الأُلفة والوئـام . وهذا التقسيم لايخل بتتبع الوقائع ، وتفحص الأحداث فى مشرقنا العـربى ، وعالمنا الإسلامى ، لأن العـالم كله فى هذا القرن ترابط وتداخل ، وتشابكت مصائره ، بحيث يصعب أن يعثر المرء على منطقة، أو إقليم ، أو قارة فى منأى ـ إلا نادرًا ـ عما يجرى فى مـركز الأحداث الكبرى ، ومنابع التغيرات المصيرية الفاصلة .

---

(١) المِراح (بكسر الميم) : شدة الفرح والنشاط .

وشيء آخــر .. أننا لانـؤرخ ، ولا نستقصى أو نحلل ، على نهج المؤرخين والمحللين .. فللتــاريــخ رجــاله ، وللتحليل خبراؤه .. وإنما هــى نظرات من قـريب، واستنباطـات وترجيحات من خـلال مـا بأيدينا من مـراجع ووثائق وبيانات وتقارير متميزة لها قيمتها العلميـة ، والأكاديمية ،ومستواها الموقر الرفيع ، ومصادرها من دول شتى ، وفى لغات مختلفة . ودائماً أبدا:

﴿ فَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾.(١)

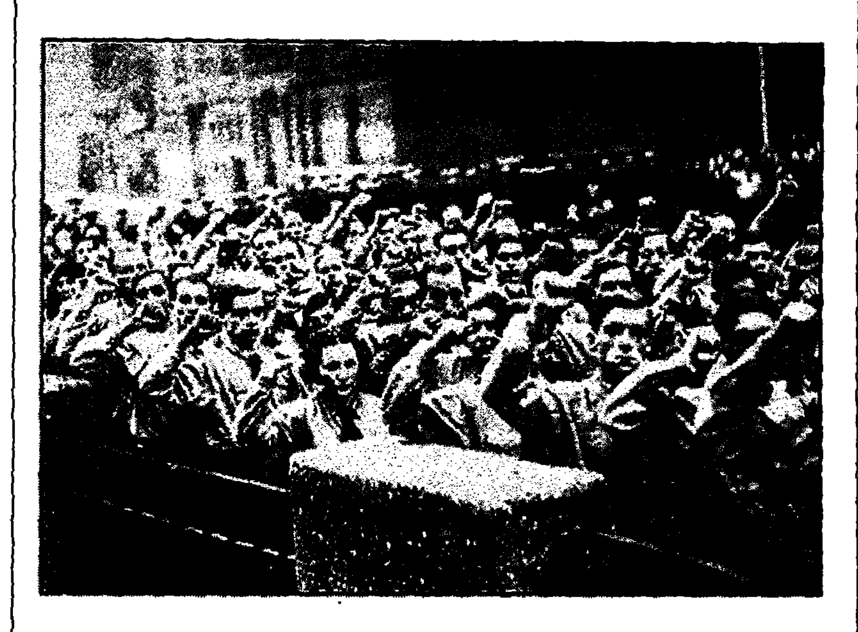
وملاحظة مبدئية ســوف نتحدث عنها بكثير من التفصيل فيما بعد : وهى أن هذا القرن ـ العشرين ـ يتسم بالفـردية والجمعية معاً ، وكلٌ فى مجاله وفى موقعه وبقدراته ..فالأحزاب ،والنقابات ، والمجالس ،والمؤسسات ،والهيئات ، والبرلمانات ... لها دور بارز ـ وأحيـاناً حـاسم ـ فى مسـار الأحـداث، واتخاذ القـرارات ، وتحديد المصـائـر والتحـولات . كما فعل أفـراد بارزون أيضـاً: صـاغوا أو شـاركوا فى صيـاغة مجرى القـرن . وقد نعجب : كيف أن رجـلاً واحداً ـ مثل : لينين ، أو ستالين ، أو ماوتسى تونج ، أو غاندى ، أو نهرو ، أو تيتـو ، أو محمـد علـى جنـاح ، أو هتلـر ، أو دوجـول ، أو مصطفى كمـال



جمال عبد الناصر

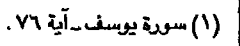


نهــرو





ماو تسي تونخ



(١) سورة يوسف ـ آية ٧٦ .

أتاتورك ، أو أحمد سوكارنو ، أو جمال عبد الناصر ، أو دنج شياوبنج ... وغيرهم كثيرون - يقرر مصير شعب بأجمعه (وقد يكون عدد سكانه بمئات الملايين كما فى الهند والصين) ، أو يهدد سلام شعوب (مثل : لينين ، وستالين)، أو يشعل حرباً تجر العالم كله إلى ساحاتها (مثل : هتلر)...

إن دراسة حياة هؤلاء ، أو على الأقل إلقاء نظرة متأنية على تطور تفكيرهم فى محيط بيئتهم المحلية أو الإقليمية أو العالمية - كما سنفعل بتيسير الله - يفيد أبناء القرن القادم فى تحرِّى الأصلح والأنفع ، والتصدى لكل خبيث ومسىء ، وفى اتخاذ السبل التى تحمى من الشطط ، وتصون فى التجاوز ، وتردع عن الانحراف ... مع الوضع فى الاعتبار ، أن الواقع والوقائع والتغيرات المتلاحقة فى أواخر هذا القرن، أثبتت أن القرارات المصيرية الكبرى، والسياسات الناضجة ذات الرؤية الشاملة الراشدة ، تحتاج إلى فكر وعزائم « رجال » أجلاء، أشداء ، كبار ، افتقدهم العالم فى نهاية القرن ، وهو يبحث فى حيرة عن وضع نظام دولى رشيد وسديد جديد .

لكن « الفردية» مألوفة مقبولة ، بل هى أمر طبيعى مرغوب فى مجالات





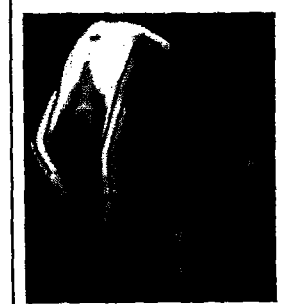
دوجول



تيتو



كمال اتا ترك

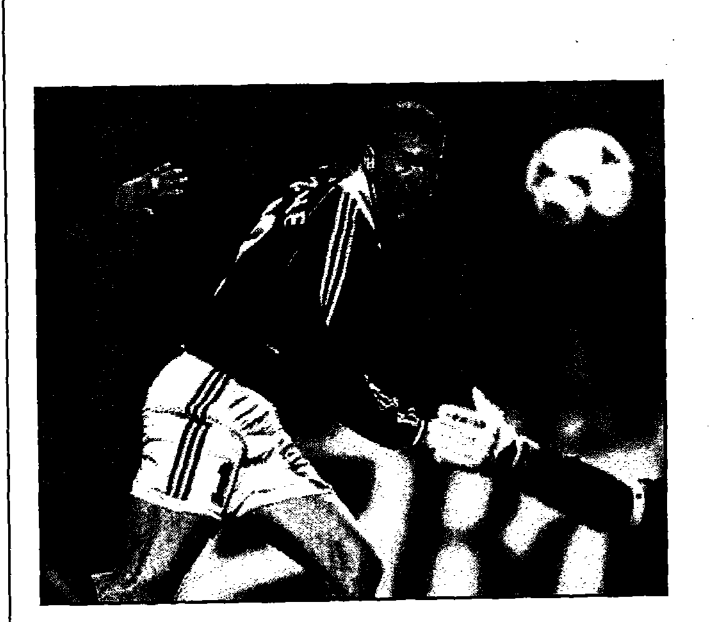


أُخـر فـى إبداعـات الفكـر والفـن ، والأدب والطـرب ، والموسيقى والشعر ، والاكتشاف والاختراع ، والتجديد والابتكار وبطولات الرياضـة والسباقات .. ولقد كان القرن العشرون حافـلاً مزدحماً ثرياً بالجهابذة والعباقرة والنوابغ فى تلك المجالات، التى سوف نتناولها بشىء من التفصيل بإذن الله .

اعتاد الناس فى تناول التـاريخ ـ كتابة أو مطالعـة ـ أن يتتبعوه مع أسماء «الكبـار » والمشـاهير ، من الأباطـرة والقيـاصرة والملوك والقُـواد والأبطال ، أولئك الذين كان بأيديهم ، وبكلمة تخرج من أفـواههم ، قرار نشوب الحرب ، أو إحـلال السـلام ، وعقْـد المعاهدات ، وتقـرير مصـائر الدول والشعـوب . وحَسِبَ الناس ـ حتى أوائل هذا القـرن ـ أن أحـداث الزمـان ووقـائع الأيام مرهونة بإرادة فرد، أو برغبـة مغامر أو زعيم ، يفرض بالرضـا أو بالقهر ما يشاء ، ويشكل حياة البشر كما يشتهى .

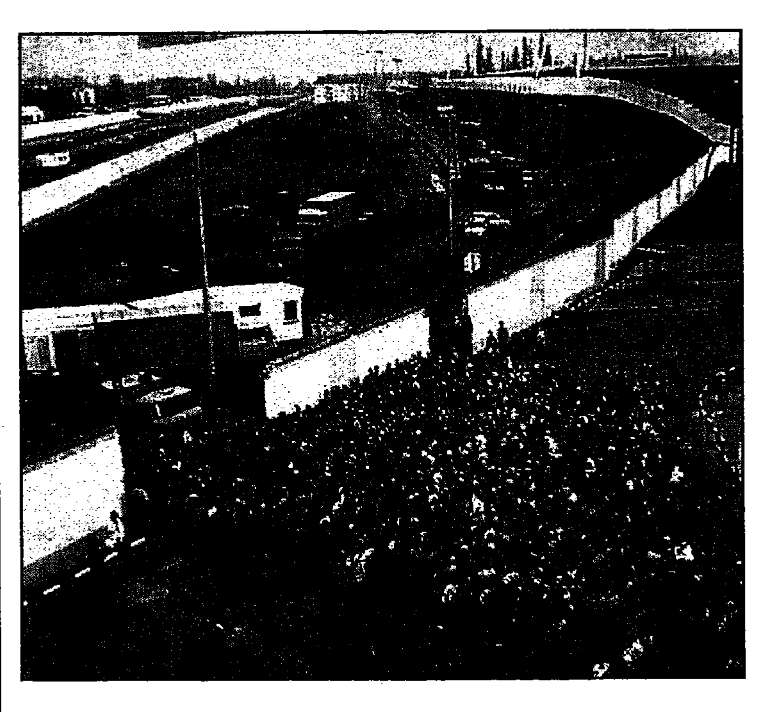
ثم سَرَى مع مجرى القـرن العشرين تيـار متجـدد متنام ، أخـذ يقـوى ويشتـد، ويفـرض إرادته ورأيه وسلطانـه ، حتى بلغ ذِروة انْتصـاراته لهذا القـرن التاسع من نوفمبر عـام ١٩٨٩ . فى هذا اليوم أسقط الجدار الفـاصل بين شطرىْ برلين ـ المعروف بحـائط برلين ـ الذى كان فى واقع الحيـاة رمزاً يفصل بين عـالمَيْن ، أو نظامين ، أو منهجين سـائدين فى سيـاسـة الأمم ، وفى دقائق المعيشة اليوميـة للأفراد والمجتمعات والشعوب . إن إزالة هذا الحائط





حدث جليل ذو معنى كبير ، وسيظل علامـة بارزة فى سجل هذا القرن . لماذا ؟ ومَن أسقطه وأزاله ؟.

لم يكن سقـوطه بقـرار أو مـرسوم . ولم تتم إزالتـه بسـواعـد جنود ، أو أسلحة جيـوش ، وإنما بأيدى أفراد عـاديين من الشعب ، بإرادة مجمـوعات عشـوائيـة من الكتل الجماهيرية مجهـولة الأسماء ، عـــارية من الألقـاب ، اندفعت معـاً تلقـائيا تعتلـى السـور وتحطمه ، وكـان مجـرد الاقتـراب منه قبل ذلك يعنى القتـل أو الضرب أو الاعتقـال المذل المميت . فى هذا اليوم التاريخى المدهش ، كـان «الشعب » هو الملِك والمالك ، هو الأمير والآمر ، هو المثير والثائـر ، هو البطل والقائـد والزعيم. اندفـع متحـديا الخوف ، والقهر ، والموت . ركب السـور ـ سور برلين ـ وهو يغنى ، وحطمـه وهو يضحك ، ثم سار الليل كله بين شرق بـرلين وغربها ، فرحـاً يمرح ، يرقص ويمـزح ، وقد فعل « المستحيل » ، ووضـع ببسـاطة شديدة بصمة تشبه المعجزة . أحس أنه أطاح بيديه حواجز الرعب والقهـر والإذلال ؛ فسقطت مع الحائط على الفور



فى ليلة تاريخيـة (٩ نوفمبر ١٩٨٩) انـدفعـت الجماهير تلقـائيا وبشجـاعـة أذهلت العـالم تحطـم سـور برلين رمـز القهـر والاستبـداد وبه سقطـت أنظمـة للحكم بأكمله فى أوروبا الشرقيـة ومعهـا الاتحاد السوفييتى.

معظم سياسات واستراتيجيات وأسلحة ، وتهديدات الحرب الباردة بين أوروبا الغربية وأمريكا من جهة ، وروسيا الشيوعية وكتلتها الشرقية من الجهة المقابلة ، وليس هنا مجال المفاضلة بينهما ، لكن العالم كله كان متأثراً ـ على نحو مباشر ، أو غير مباشر ـ بالصراع الذى كان دائراً بينهما . ما معنى ذلك ؟ .

معناه أن القرن العشرين أبرز ـ بلا مداهنة ولا مواربة ـ قيمة الشعوب ، كأفراد وجماعات ، ووضعها فى موضعها الجديد الصحيح ، أو نبَّه بعضها لتأخذ حقها ومكانها اللائق الكريم . وهو القرن الذى ظل يخطو حثيثاً ـ منذ بدايته ـ نحو تمهيد الطرق ، وإتاحة الوسائل ، وتهيئة الظروف ، لكى يعلو صوت الجماهير ، ويُسمع ، ويعمل له حساب .. ألف حساب . أليست هى الجماهير التى تُستشار ، أو تدْلى بأصواتها لتقرر مصير الانتخابات ، وترجح أو تعطل شأناً من الشئون الكُبريات ؟ !. أليست هى ـ عن طريق ممثليها ونوابها فى المجالس النيابية والتشريعية والاستشارية ـ التى توافق على قرار الحرب أو السلام ؟ ،على إصدار القوانين وميزانيات الضرائب والإنفاق،وتراقب السلطة التنفيذية الحاكمة ، فتسألها وتعضدها وتحاسبها؛ فتقبل منها أو ترفض ؟ !..

هذه واحدة من أبرز معالم القرن .. ثم أخرى : فى النصف الثانى من القرن العشرين برزت ـ بوضوح أكبر ـ ظاهرة غَّيرت كثيراً من واقع الحياة ، بل كان لها الأثر المباشر والمتعاظم فى صياغة وتشكيل حياة سكان الأرض ، فى كل مكان .



تقلص دور السياسيين والزعماء والحكام والقادة فى الاستئثار باختيار أسلوب معيشة الناس ، وتوجيههم نحو ما يرون أنه « الأفضل » لهم . هناك أشخاص يحتلون مواقع رسمية ، أو غير رسمية غالباً ، أسماؤهم غير معروفة عادة ، أو يجهلها معظم الناس ، لكنهم يغِّيرون فى أنماط وأشكال حياة البشر جميعاً، ويبدِّلون إلى ماهو أبعد من نفوذ الساسة والقادة والموجهين والمربين والآباء . مثلا: الذين صنعوا ثورة الاتصالات والمواصلات ، والذين غمروا الفضاء الجوى بموجات الإذاعة والتليفزيون ، والذين أطلقوا الأقمار الصناعية ، ونشروا محطات فضائية ، وبعثوا بمركبة صغيرة تمشى الهُوَيْنَى على أرض المريخ ، ثم أفادوا البشرية فى تطبيقات علوم الفضاء بالحياة اليومية ، والذين يصنعون الأحلام ويصيغون الخيال

فى أفلام السينما (خاصة العالمية) ، والذين يفرضون أذواقهم وابتكاراتهم على الأزياء ـ للرجال والنساء والأطفال ـ ويغّيرونها مع الفصول والأعوام ، والذين يعكفون على استحداث أدوية وعقاقير يتلهف على استخدامها ملايين البشر ، لتخفيف الآلام ، أو لجلْب الشفاء ، والذين يستخلصون من البترول المنتجات التى تستعمل فى شتى المجالات ، أو من علوم الذرة والإلكترونيات أدوات شتى ومنافع للناس ، والذين يَغْمرون العالم بمنتجات جديدة ، والذين يكدُّون ويبحثون للحصول على مصادر جديدة للطعام ، وتغذية ملايين الجوعَى ، أو مصادر جديدة للطاقة ، وللعمل ، ولتشغيل العاطلين ، أو مصادر جديدة للترويح عن النفس ، والتخفيف من ضغوط الحياة ... كل هؤلاء يدخلون فى زمرة السادة .. سادة عالم اليوم ، والغد ، رغم أنهم ليسوا زعماء ولا ساسة ، لكنهم يشاركون بقسط وافر فى تشكيل الحياة لكل البشر.
تلك بعض إفرازات القرن العشرين ، ومعالمه البارزة المؤثرة ، التى لها ما بعدها .

مباهج الثراء ، وهموم الفقر

لا حرج ولا مبالغة فى أن يقال : إن القرن العشرين ـ فى إحدى سماته ـ هو قرن الصحوة .. صحوة الكتل الجماهيرية بعد نوم مزعج طويل ثقيل ، وهوان ساحق مُذل عنيد . والأسباب كثيرة ، تتنوع وتختلف ، لكنها فى النهاية ـ فى شرق أو غرب ، فى شمال أو جنوب ـ تؤدى إلى نفس النتيجة : ثراء عابث متزايد ، يصحبه ترف شرِه غير عابىء ، وفى المقابل .. فقرِ عابس متكاثف ، يتبعه شظف مُهلك لا يزول . ولنأخذ مثالا من هنا ، وآخر من هناك...

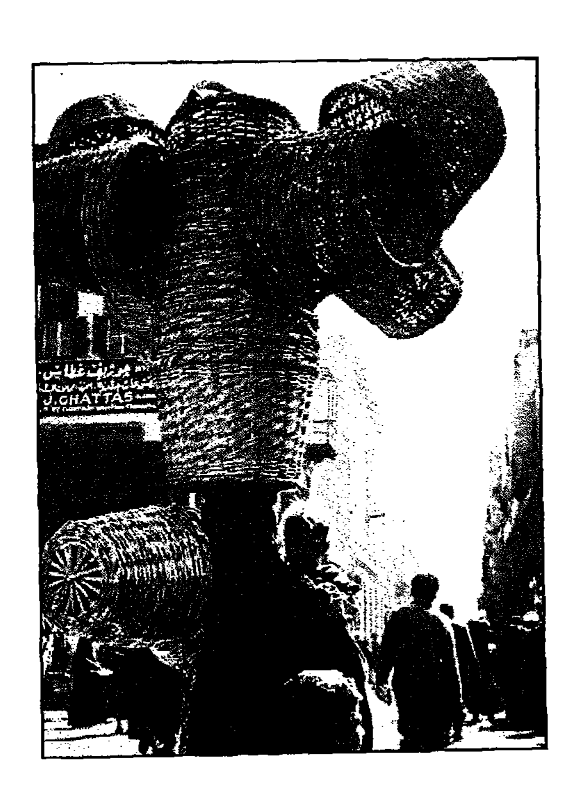

عبد الرحمن الرافعى

فى كتابه القَيِّم « فى أعقاب الثورة المصرية » ، يذكر المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعى ـ فى نهاية الجزء الثانى ـ بعض ملامح الصورة الاجتماعية المصرية فى أوائل هذا القرن ، فيقول : « .. فقد أهمل (الاحتلال البريطانى) الإصلاح الاجتماعى إطلاقاً ، ولم ينفق من الإيرادات العامة شيئاً على هذا

الاحتلال هو المسئول الأول عن عدم توجيه سياسة الحكومة نحو هذا الهدف ، لأنها كانت خاضعة لسلطانه المطلق .. فهو المسئول - من الوجهة الاجتماعية - عن سوء حالة الطبقة الشعبية .

« فالطبقة الخاصة من الأغنياء والكبراء والمثقفين - فى مجموعها - قد اتجهت وجهة الولاء لسياسته ، والانصراف إلى الحياة النفعية ، فخَلَت الحياة الاجتماعية من المفاخر والعظائم ، لأن الولاء للحكم الأجنبى يتولد عنه صَغار فى النفوس ، يتنافر مع كل ما هو عظيم ونبيل . واجتمع إلى ذلك .. الإسراف فى البذخ والترف ، والرغبة فى الظهور الكاذب ، واقتباس مفاسد المدنية الغربية ، دون محاسنها ، فصارت هذه الطبقة - فى مجموعها - عنوان الانحلال فى الوطنية وفى الأخلاق ، وأداة للاستغلال الأجنبى فى البلاد ، وتقطعت الروابط بين الطبقات، لانصراف أفرادها إلى المنافع الشخصية ، دون الحياة القومية .

« أما الطبقة المتوسطة فى اليسار والعلم ، فقد اتجهت أيضا إلى الحياة النفعية، تبتغى بلوغ مراتب الطبقة الخاصة ومحاكاتها فى مظاهر الأبهة والبذخ ، فلم تعُد على البلاد من جهودها أية فائدة .





« والطبقــة[1] الفقيرة من الفــلاحين والعمال ، وهم أغلبيـــة الشعب ، قــد ســاءت حالتهــم فــى عهــد الاحتلال ، فهو المسئول الأول عن انتشار الجهل والأمية بينهم طوال أربعين سنة ونيف . وهو بسيــاسته التعليمية .. قــد حال دون تعليمهم ، وتهذيبهم ، وتثقيفهم ، فحُرموا نور العلم ، والتربية الأخلاقية والدينية ، وساءت حــالتهم المادية والمعنوية ، وأهمل الاحتلال حالتهم المادية والصحية والنفسية ، وانتشرت فيهم الأمراض .

« واجتمعت إلى ذلك .. رعاية الحكومة للآفــات الاجتماعية التى جاءت من أوروبا ، ورعــاهــا الاحتــلال وحَماها ، فعَمَّت طبقـــات الشعب على الســواء ، كبيرها، ومتـــوسطهــا ، وصغيرها . وأُولى هــذه الآفــات : الربا . فقــد انتشر انتشاراً ذريعاً . وساعد على ذيوعه ، ما فُطر عليه معظم الطبقات فى بلادنا من قصر النظر ، وعــدم تقـــدير العــواقب ، وحب الظهـــور ، والإسراف ، ووجَــد المرابــون من هــذا الضعف ، ومن النظم والقـــوانين ، ورعـــاية المحـــاكم المختلطة[2] ، مــا جعلهم يتغلغلون فى مختلف الأوساط ، فى العواصم والبنادر

---

(١) فى المصطلحات الحديثــة يقال تمويهاً ، أو تحرجاً ، أو مجاملــة ، بدلا من«الطبقة» : الشريحة ، أو الفئة، أو المستوى ...

(٢) محاكم خاصة كانت قائمة فى أواخــر عهد إسماعيل المتدهور ، وما تلاه ، حتى ألغيت فى ١٥ أكتوبر سنة ١٩٤٩ نهائيا ، وكان معظم قضــاتها من الأجانب التابعين للقنصليات الأجنبيــة فى مصر لحماية مصالح رعاياها وحقوقهم الظالمة المتعسفة ، وكان هذا النظام القضائى سبة وإهانة لمصر وشعبها .

والقـــرى القـريبـــة والبعيدة ، فكبّلوا الأهالى بالديون ؛ مما أفضَى إلى ضياع ثروات الكثيرين منهم ، وانتشـــار الفقـر والبـؤس فى الطبقـــات الكبيرة ، ثم المتوسطة والصغيرة .

« وانتشرت الخمور الفتاكـة بين سكان المدن ، ثم سكان الريف ، وصـارت محلات المسكرات تُفتح علنًا فى القـــرى بين الفـلاحين ، وفى الأحيـــاء الآهلة بالعمال فى المدن ، برعـــايـة الحكومـــة وحمايتهـــا ، وفى كَنف الامتيـــازات الأجنبيـة(٣) ، ففتكت بهم فتكاً ذريعـاً ، وأفسـدت عليهم صحتهم ، ودينهم ، وأخـلاقهم ، ونقصت مقدرتهم على العمل والإنتـاج ، وسـاعدت على حـوادث الإجـرام ، والإخلال بالأمن العـام . وبينما الحكومات الأوروبيـة والأمريكيـة التى لا تحرم الخمـور ، تحاربها وتمنع انتشـــارها ، وبخـاصـة بين العمال والفـلاحين ... كـــانت هذه الآفـة تلقـى من الحكومـة (فى مصر) الرعـايـة والتنشيط ، وصـار تجار الخمـور فى المدن والأرياف ذرائـع للتسليف بالربا الفاحش ، واستـلاب أموال الأهلين ، وإفسـاد أخلاقهم . وانتشرت أيضـاً آفة الميسر ، إلى آفـة الخمر ، فسـاءت حالـة الشعب الاجتماعية لذلك .. وصـــارت وبالاً ، وزادته هذه الآفـات بؤسـاً وانحـلالاً . وفى ذلك .. يقـول الأمير حسين كامل (الذى صـار سلطانًا على مصر فى ديسمبر سنة ١٩١٤) فى حديث له ، نشرته جريدة « ذى إجيبشيان ستـاندارد » ـ أى اللواء المصرى ـ فى عدد ٢٠ أكتـوبر ١٩٠٨م ، يصف بؤس الفـــلاح :« إن الفـلاح يقضى حيـاته مثقـلاً بالديْن ، لا يزيد إيراده على الضرائب المفروضة عليه ، وفوائد الديون المطلوبة منه . وهو لكى يسد حاجة زراعتـه فى مواعيدها ، مضطر إلى الاستدانة بالربا الفاحـش ، فلهذا العسر من جهة ، ولخلـوه من المال من جهة أخـرى ، ولكثرة من يعولهم من جهة ثالثـة ، قد بقى الفلاح غريقـاً فى بحار الضنك ، لا يعرف لنفسه مخلِّصـاً منها » .. وصفوة القول ـ هكذا يقـول الأستاذ الرافعى ـ : إن سياسة الاحتلال كانت من أهم أسبـاب تأخر البلاد الاجتماعى ، وتشاركه فى حمل هذه المسئولية الحكومات الأهلية والبيئات المصرية ..» .


السلطان حسين كامل

ولما كانت مصر آنذاك فى الواقع والأساس بلدًا زراعيًّا قبل أى اعتبار آخر ، فإن الجدول التـالى يوضـح بالأرقام قتـامـة الصورة الاجتماعيـة ، أو عمق بحار الضنك التى أشار إليها الأمير آنفاً .

---

(٣) حقـوق فـرضتهـا الجهـات الأجنبيـة لنفسهـا فى مصر تعلو حقـوق المصريين أبناء البـلاد ، ويذعن لها ويحميها وينفذها رأس الدولة آنذاك وحكومته !

بيان ملكية الأراضي بالمملكة المصرية

موزعة على الملاك لغاية ديسمبر سنة ١٩٤٦[٤] :

فئات الملاك (حسب المساحة المملوكة)	مجموعة ملكية كل فئة	عدد الملاك
لغاية نصف فدان	٣٩٧١٨٥ فدانا	١٣٨٢٦٣١
أكثر من نصف فدان لغاية فدان	٣٥٥٧٦٧	٤٩٢٠٨٤
أكثر من فدان إلى فدانين	٤٩١٠٢٨	٢٣٦٣٥٦
أكثر من فدانين إلى ٣ أفدنة	٣٨٩٤٥٨	١٧٣٥٢٨
أكثر من ٣ أفدنة إلى ٤ أفدنة	١٦٣٤٦٧	٤٩٣٠٧
أكثر من ٤ أفدنة إلى ٥ أفدنة	١٨٢١٣٣	٣٩٩٧٠
أكثر من ٥ أفدنة إلى ١٠ أفدنة	٥٦٤٤١٣	٨٣٤٠٣
أكثر من ١٠ أفدنة إلى ١٥ فدانا	٣٣٠٢٥٣	٢٧٣١٩
أكثر من ١٥ فدانا إلى ٢٠ فدانا	٢٤٠٨٤١	١٤١٥٧
أكثر من ٢٠ فدانا إلى ٣٠ فدانا	٢٩٠٩٦٥	١١٩١٩
أكثر من ٣٠ فدانا إلى ٥٠ فدانا	٣٥٧٠٦٣	٩٢٠٠
أكثر من ٥٠ فدانا إلى ١٠٠ فدان	٤٦٦٤٥٦	٦٨٥٨
أكثر من ١٠٠ فدان إلى ٢٠٠ فدان	٤٤٣٩٨٨	٣١٧١
أكثر من ٢٠٠ فدان إلى ٤٠٠ فدان	٣١٧٥٧٥	١١٠٢
أكثر من ٤٠٠ فدان إلى ٦٠٠ فدان	٢٣٧٣٨٧	٤٦٢
أكثر من ٦٠٠ فدان إلى ٨٠٠ فدان	١١٧٤٦٧	١٧٧
أكثر من ٨٠٠ فدان إلى ١٠٠٠ فدان	٩١٣٢١	١٠١
أكثر من ١٠٠٠ فدان إلى ١٥٠٠ فدان	١٩٤٧٦٨	١٦٦
أكثر من ١٥٠٠ فدان إلى ٢٠٠٠ فدان	٦٨٧٠٧	٣٩
أكثر من ٢٠٠٠ فدان	٢٠٣١٨١	٤٢
مجموع التوزيع [٥].	٥٩٠٣١٤٣	٢٦٣٦٠٩٦

---

(٤) فى أعقاب الثورة المصرية (١٩١٩) ــ جـ٢ / عبد الرحمن الرافعى

(٥) كان مجموع السكان فى مصر سنة ١٩٠٠ نحو عشرة ملايين نسمة . وفى عام ١٩٥٠ نحو ٢٠ مليونا .

Dans les années 1860, un journaliste du *World* de New York, Daniel Kirwan, se tenait une nuit sur le Pont de Londres et regardait le port de la plus riche cité d'Europe. « La Tamise coulait à nos pieds, » allait-il écrire, « et on aurait cru voir une carte... En bas, à gauche, les Catherine Docks, les London Docks, remplis de navires, Shadwell, où s'alignaient des vaisseaux plus légers... une forêt de mâts... » Mais sous le pont, à l'abri des arches, le décor changeait. Là se tenait « un véritable campement de bohémiens » peuplé d'épaves. « Je vis huit personnes du sexe masculin, deux vieilles femmes à l'air hagard, une jeune fille d'une vingtaine d'années et un enfant de dix ans, toutes dépenaillées et misérables au dernier point. » Kirwan fut frappé du contraste que formaient ces malheureux avec la prospérité qui s'étalait sur le port. Certes, la misère n'était pas une nouveauté, mais la misère dans une société capable de produire d'immenses richesses pouvait difficilement passer pour naturelle. En fait, c'était la grande énigme de l'Âge du Progrès. L'insuffisance du niveau de vie de masses considérables semblait narguer les merveilleux progrès de la science et de l'industrie, et elle empoisonna le climat social de l'Europe pendant tout le XIXe siècle.

وقف مراسل صحيفة « العالم ـ World » الأمريكية فوق جسر (كوبرى) لندن ليلاً ، ثم كتب يصف مشاهداته وانطباعاته عن « أكثر موانىء أوروبا نشاطًا وثراء .. ونهر التيمز ينساب متدفقاً عند أقدامنا .. » . وبعد أن أعطى صورة مبهرة عن السفن الراسيات ، وأخرى رائحات غاديات ، محملة بالركاب والبضائع ، وخيرات البلاد والمستعمرات ، ألقى نظرة إلى ما تحت الجسر ، فقال: « .. فى معزل متوارٍ خلف قواعد الجسر ، اختلف المنظر . هناك ، أقيم معسكر حقيقى للغجر ، يسكنه دهماء مشرَّدون . رأيت ثمانية أشخاص من جنس الذكور ، وامرأتين مسنَّتين تبدو على ملامحهما سمة التوحش والضياع ، وفتاة فى سن العشرين ، وغلامًا فى العاشرة ، وكلهم فى أحط الدرك من التمزق والبؤس » . فزع مراسل الصحيفة من التناقض الصارخ بين مظاهر الثراء الوافر الغالب على مشهد الميناء ، والفقر البائس الساحق لآدمية هؤلاء .



وفى الحق ، لم يكن مشهد الشقاء والبؤس وافداً جديداً على مجتمعات أوروبا فى ذلك الحين .. لكن دراسة « المشهد » أو تحليل الصورة ، يثير الدهشة والجزع ، إذ لا يمكن التسليم بأن يكون أمراً طبيعياً انتشار الضياع والفقر والبؤس على هذا النحو داخل مجتمعات قادرة ـ بما لديها من إمكانيات وثروات ـ على انتشال المطحونين والمشردين من عذاب المعاناة وقسوة المذلة والهوان ، ولاذنْب لهم فى هذا ، ولا فى ذاك .

إنه الوجه الآخر من « العملة » المزيَّنة بإشراقة القرن العشرين . نعم ، هى



عملة مزينة براقة مبهجة : فالتقدم العلمى ينافسه التطور التكنولوجى ، و إنتاج المصانع يسابق مخزون الزراعة بالصوامع ، وثروات الأثرياء تثير فى نفوس كثيرين ثورة دفينة واشتهاء ... فكانت تلك هى الصورة القاتمة لمجتمعات عبرت أبواب التطور والتقدم ، أو هى الوجه الكالح للعملة التى تحمل تاريخ بداية القرن . وسرعان ما انتقلت المشاهدة الصامتة والصرخات الخرساء المكتومة ، إلى لغط وشطط ، وضجيج وعجيج ، تَفَجَّر فى نهاية المطاف ، وانطلق هادراً لايخاف ، واستباح لنفسه ما كان يأمل ويرتجى ، وانتزع عنوة ما كان يهاب ويشتهى .

إنها « أزمة » عصر الزهو واللهو والتقدم . كان واضحاً ـ ومؤلماً وعجيباً فى الوقت نفسه ـ ازدراء الطبقة الثرية المترفة المرفهة ـ وهى القلة المسيطرة ـ لجماهير الطبقة الفقيرة الضعيفة المنحدرة على الدوام فى مهوى الهوام . وزاد الأمر سوءاً ، والمشكلة تعقيداً ، أن الصناعة تضخمت ، والتجارة اتسعت ، ومجالات الإنتاج والتسويق تنوعت ، فتضاعفت أعداد العمال ، أى زاد حجم الكتل البشرية الذليلة ، لأنهم فى الأغلب الأعم ، لم يكونوا فى مستوى اجتماعى مقبول، ولا يتوافق مطلقاً مع الانطلاق الكبير فى التقدم العلمى ، والازدهار المبهر فى الإنتاج الصناعى .. فكان الأثرياء فى قرارة نفوسهم ، وأحياناً فى ثنايا أحاديثهم ، يعتبرون هذه الطبقة الشعبية العمالية ـ المنتجة ـ آفة تكدير صفو العصر ، ومصدر إزعاج داخل المجتمعات الأوربية ، منذ القرن التاسع عشر ، وبدايات القرن العشرين .

من أجل ذلك .. كان الضيق والتضييق ، والنزاع ثم الصراع ، فلما نشبت الثورات الدموية (١٩٠٥،و ١٩١٧) فى روسيا ، هللت لها وهتفت مؤيدة حشود من العمال والفقراء والبائسين فى كل أنحاء أوروبا ، وخارج أوروبا . ومن الحق أن يقال : إن الثورة الصناعية (فى القرنين ١٨ و ١٩)جلبت إلى ملايين الأفراد قدراً من الكسب ، وأتاحت فرصاً لتغيير أحوال المعيشة .لكن ، وهذا حق أيضاً ، كانت ظروف العمل قاسية مهينة ، وأحوال العمال صحيا ، وتعليميا ، وأمنيا ، واجتماعيا كانت سيئة مهيضة . وظهرت مشكلة : أن أعداداً ضخمة من الأيدى العاملة نزحت إلى المدن وضواحيها ، تقيم فى عشوائيات سكنية ، لا تحظى بأدنى رعاية أو أمان اقتصادى للمستقبل .. ولو كان الغد القريب .

	
(٢)	(١)

(١) تتويج القيصر الكسندر الثانى فى قصر الكرملين.

(٢) كان الشعب الروسى قبل الثورة منقسما إلى طبقة الثراء الفاحش وطبقة الفقر المتوحش الغالبة.

وقبل عصر الثورة الصناعية ، كان المجتمع ـ فى أوروبا ، والشرق، وفى معظم المجتمعات ـ يتكون غالباً من طبقتين : الطبقة الأرستوقراطية ، وطبقة الفلاحين . الأولى تملك الأرض ، والثانية تفلحها وترعاها ،وتعيش عليها كالرقيق ، وإلى جانب الزراعة الجبرية ، تربى للسيد المالك ماشيته وأغنامه ، هكذا جيل بعد جيل . وبالرغم من سوء هذا النظام فى القهر والعبودية ، إلا أنه كان يقدم للفلاح بعض العون ، أو العوض : ففى أحوال الاضطرابات والشدائد والفزع ، كان السيد المالك المبجل هو الملاذ والملجأ ، لديه المأوى، وتحت مظلته الحماية والرجاء ... فلما أقبلت الثورة الصناعية وانتشرت ، أطاحت بهذا النظام ، وحررت الفلاح والعامل الزراعى من قيود الارتباط بالسيد المالك ـ أو الإقطاعى كما يسميه البعض ـ وكذلك بالأرض . وأخذت البلاد تدريجياً ـ غرباً وشرقاً ـ تدخل فى عصر جديد ، ونظام اجتماعى مختلف ، أطلق حرية العمل والسعى ـ وإن كانت فى ظروف رديئة ، شاقة كما ذكرنا ـ وقطع الصلة الإنسانية والأمنية بين العمال وأصحاب المصانع والأعمال . وقد بدأ ذلك النظام الجديد فى إنجلترا وفرنسا فى أواخر القرن الثامن عشر ، وامتد إلى روسيا حين أعلن القيصر ألكسندر الثانى (فى عام ١٨٦١) تحرير عشرين مليوناً من أرقاء الأرض . فأين يذهب هؤلاء ، وقد انقطعت عنهم مصادر تلبية احتياجاتهم الضرورية الأساسية ، كالمأوى والطعام ، التى كانت تأتيهم من سيد الأرض ؟ !. بحثوا عن مورد للكسب فى ميدان الصناعة وفى المناجم . وأصبح الأجر ـ وإن كان زهيداً لا يساوى

الجهد المبذول لساعات طوال ، وفى ظروف شاقة خطرة مؤلمة ـ أصبح بديلاً عن المأوى والإطعام والحماية فى أرض السيد . وترك ملايين الفلاحين الأرض ، هجوماً على المدن ، وهم فى خوف وقلق ، وتعرضوا لكثير من المتاعب والمصائب والاستغلال والإذلال (ولسوف يعيد التاريخ نفس المشهد ـ ولو بدرجات متفاوتة ـ فيما بعد ، قرب نهاية القرن مع انهيار الاتحاد السوفيتى).

وفى واقع الأمر ، لم يتغير من « الصورة » المعيشية لهؤلاء ـ وهم الكثرة العاملة المنتجة ـ إلا بعض الخطوط الثانوية ، والألوان القاتمة ـ أما الملامح العامة والسمات ، فقد ظلت كما هى : نَصَب ، ووهَن ، ورِق، وإذلال . إن القوانين التى منحتهم حق التحرر من عبودية الأسياد ، هى التى أتاحت لهم ـ عن غفلة أو عَمد ـ حق الموت جوعا فى صمت الجماد . كيف ؟ . إنهم فى الأصل والمنشأ مزارعون ، لا تُحسن أيديهم إلا أعمال القرى والحقول . والصناعة تحتاج إلى أيدٍ محترفة مدرَّبة . ولأنهم كثرة نازحة متزايدة ، فقد وقعوا فريسة القهر والاستغلال من جانب « السيد » الجديد ، الذى يملك ـ بلا حسيب ولا رقيب ـ المصنع وآلاته ومُعداته ، أو المنجم وأدواته ، وأساليب نزح خيراته .. أى يملك ما أطلق عليه كارل ماركس : « وسائل الإنتاج » ، فصار تعبيراً شائعاً على كل لسان .





« السيد » صاحب العمل يجمع الأموال والعمال يتضورون جوعا . وإلى اليمين أم فى حجرة مظلمة تبكى طفلها المحتضر .

إن « السيد » المهاب الجديد ، يختلف بالضرورة عن « السيد » المبجل القديم. وهذا أمر طبيعى ، لاختلاف الموقع ، والعمل ، ومظهر التحكم والسيادة . من قبل ، كان الفلاح البائس المسكين ، يزرع الأرض ، وينتظر المحصول . الآن ، لا صبر ولا انتظار .. فالآلات لا تتوقف ، والعمل الشاق متواصل ، وإرضاء « السيد » أو معاونيه ـ على أى نحو وقصد ـ حتْم

مفـروض .. وإلا ، فـالتعـذيب أو الإدانة أو الطرد ، والآلاف غيره ـ أو غيرها ـ كثيرون متلهفون . والأجـور لا ضابط لها ولا رابط : فهى مع الأيدى المدرَّبة واحتياج العمل ، مناسبـة لا بأس بها ، لكنها قـد تنقص ولا تزيد . أما مع غير هذه ، فهى أجــور لا تكفى مطلقـاً لتغطيـة نفقــات الحد الأدنى للمعيشـة . وباختصار : كـانت « الصورة » مفـزعة .. والهُوة سحيقـة بين صاحب رأس المال الذى يملك كل الحقـــوق ، والعـامل الأجير الذى عليــه فقط أن يخضع ويقْنع ويطيع ، وإن هلك عملاً، أو جوعاً ، أو ضحية صقيع .

وحتى الأطفـال ، لم يكـونوا فى معـزل عن تلك الصـــورة الكئيبـة ... ففى تقرير (عام ١٨٩٠) للجنة قضائية كُلفت بالتحرى عن عمل الأطفال فى إحدى المقاطعـات البريطانية ، جاء :« إن الأطفال الذين يعملون فى الأشغـال اليدوية الدقيقة (صناعة الدانتيل) يُنتزعـون من الخرائب التى يسكنونها فى الثانية ، أو الثـالثة ، أو الرابعـة صباحـاً ، ويُـجبرون على العمل بأجـور ضئيلة حتى العـاشرة، أو الحادية عشرة مســاء ، أو إلى منتصف الليل .. فكانت وجــوههم شاحبة ، وأجسادهم ضــامرة ، وأيديهم ذابلة ، وعيونهم من الرعب زائغة . إن منظرهم حقًا مخيف » !.

وفـــى حــوار تلك اللجنة مع أحـد الأطفال، جـاء على لســانه ـ كما ورد فى التقــــرير ـ : «إننى أعمل فى ورشة للخراطة. أبدا عملى يومياً من السادسة صبـاحاً، وأحيـاناً من الرابعة ، وحتى الليل . بالأمس امتـد عملى طوال الليل ، واستمـــر حتى الآن . إننى لم أنم منذ أول أمـس . كـان يعمل معـى بالأمس ثمانيـة أطفــال بهذا الشكل ، لم يحضر منهم اليوم غير واحـد . أكسبُ أجـراً قدره ثلاثة شلنات وست بنسات فى الأسبوع ، سواء عملت ليلاً ، أم نهاراً ، أم ليلاً ونهاراً معاً » .



فى الفترة بين عـــامى ١٨٧١ و ١٩٠٠م ، هاجـــر مـن أوربا إلى أمـــريكا واستراليا وغيرهما من البــلاد نحو ٢٥مليـونـاً ، فى أكبر هجرة بشرية محدودة الزمن فى التاريخ البشرى . ولم تتوقـف تلك الهجرات الجماعية الكبيرة إلا مع اندلاع الحرب العــالميـة الأولى (١٩١٤) . ومع ذلك .. لم تخفّ وطأة المعـاناة عن الذين لم يهاجــروا . مثـلا : فى أواخـر القـرن الســابق ، وأوائل القــرن العشرين ، كـان العمال يتكدســون فى مناطق سكنيـة عشـوائيـة بعيـدة عن الأحيــاء التى يقيم بها القـــادرون والأثرياء.. وأحيـــاناً يسكنون الخرائب ، والمزابل ، والكهوف . فى كوخ متهالك قـذر فى أحد أحياء لندن الحقيرة (ونحن نتخـذ لندن نمـوذجاً ، لأنها كـانت عـاصمـة الإمبراطورية الأقـوى والأغنى

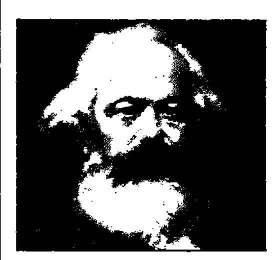
والأضخم فى العالم) ، كان يسكن - كما ورد فى أحد التقارير للجنة بحث مَلكية - ثلاثة وستون شخصاً فى تسع غرف عطنة ، فى كل حجرة سرير واحد. وفى بيوت العمال الجديدة ، كانت مواد البناء رديئة للغاية ، والإهمال ظاهراً بوضوح ، والحجرات خالية من النوافذ ، لأن الحكومة كانت تتقاضى عنها ضرائب !، ووسائل الإمداد بالمياه النقية أو الصرف الصحى معدومة ، أو فى حالة سيئة ... فالماء العذب نوع من الترف . والمناطق العمالية بأجمعها خالية من الأشجار والمساحات الخضراء . البيوت معتمة رطبة ، والشوارع الضيقة كريهة قذرة . لذلك .. تنتشر الأمراض والأوبئة ، مثل : الكوليرا ، والتيفود ، والتيفوس ، والسل ، وكانوا يسمونه «الطاعون الأبيض » . كان شائعاً ، وكذلك الدفتيريا ، وعديد من أمراض الفقر والبؤس . وكما ذكر العالم البريطانى المشهور « يونج » (*) : « من العسير حقًّا تقدير حجم البؤس ، ووطأة الرعب داخل هذا العالم ، حيث تعيش آلاف الأسر لاتكاد ترى النور ، وتقضى حياة قاسية مفزعة .. من العسير تخيل حالة الماء الذى يشربونه ، ولونه يميل إلى البُنى ، لما به من نفايات ، أو تصوُّر حالة جثث موتاهم التى قد تُترك نحو أسبوعين بلا دفن ؛ فتأخذ فى التحلل داخل لندن صيفاً فى شهر أغسطس ، فتخرج منها الديدان ...» .



كان طبيعيا إذن - فى إطار تلك الصورة ، أو هذه الحياة الوحشية الموحشة - أن يترك الآباء أطفالهم إلى الشوارع والأزقة يفعلون فيها ما يشاءون ، ويُفعل بهم ما يرغبون وما يكرهون : « فهم ضحايا الفقر والبؤس، ومطمع الإجرام والفسق. وتحت سمعهم وأبصارهم كل أشكال الرذيلة والفساد ». هكذا كتب عنهم من لندن «دانيل كيروان » . وفى باريس ، عاصمة الترف والسَّرف والنور والعطور ، راح الأخوان « جونكور - Goncourt » يتجولان طويلاً طويلاً فى الأحياء الفقيرة بالعاصمة ، ليلتقطا مادة قصصهما الروائية «الواقعية» التى حظيت بشهرة واسعة ، وثراء وفير. وذات يوم ، شاهدا أطفالاً فى أسمال ممزقة بالية ، يضحكون بشدة وصخب مرح على منظر شاب أُلقى القبض عليه، وضُرب ضرباً مبرحاً ؛ حتى زهقت روحه أمامهم ، وهم مستغرقون فى التهليل والضحك ، بينما الجمهور من الكبار - كأنهم شخوص فى سيرك - يمرون على تلك المذبحة بلا اكتراث ، أو ينظرون ملياً بلا أدنى تأثر أو انزعاج!.

هكذا كان الحال من الأهوال فى أحياء العمال ، بينما على الجانب البعيد

(*) توماس يونج : طبيب فيزيائى



كـارل مـاركس

الآخر من العـاصمة البريطانية ، كانـت الفخامة والرفاهيـة والأناقة والأبهة . إنهما عالمان متبـاعدان منفصــلان ، بينهما تناقض صارخ ، وتبـاين جارح ، وعــداء مكتــوم . وبينما كــان الطفل الذى يـولد فى بيت ـ أو قصر ـ الترف والنعيم يُتوقَّع لـه فى المتوسط أن يعيش على الأقل إلى سن الثـامنة والثلاثين ، كان ابن الفاقة والضنك لا يأمل أن يتجاوز السابعة عشرة .

من تلك البيئة ، ومن خلال التناقضات المفزعـة الصارخة داخل الصورة ، استمـد « كارل مــاركس » نظريتـه التى سوف تلعب دوراً كبيراً ومـؤثراً على جـوانب الحياة فى القـرن العشرين ، مثلما استمد « بنيـامين ديزرائيلى » (٦) فكرته عن أن أوروبا تضم شعبين : الأغنياء والفقراء .ثم قال : « يجب أن نُعد أنفسنا لغدٍ ينتظـرنا . إن المستقبل سوف يطلب منا حسـاباً دقيقاً قـاسياً عن عذاب وآلام ملايين الأشخاص ».

وهذا ما فعله القرن العشرون !. كــان « طبيعياً » أن يثير فى أذهان مفكرين كبـار ، مثل « هربرت جـورج ويلز » ، و « جورج برناردشـو » فى بريطانيـا ذاتها أفكاراً عن « الاشـتراكيـة » ، وتكوين « الاتحاد الاشـتراكى الفـابيـانى ». وينتشر التعبير « الاشتراكى » بسرعه انتشار الحريق فى كل أرجاء أوروبا . فى فـرنسـا ، فى عـام ١٨٩٣ ، يدخل البرلمان (المجلس الوطنى) لأول مـرة نائب اشتراكى ، ممثلاً لحزب الاشتراكيين . وفى عــام ١٨٩٥يفوز الحزب الماركسى باثنى عشر عضــواً فى البرلمان ، يزيـدون إلى ثلاثة وثلاثين عــام ١٩٠٠ . وفى تلك السنة ، ينال الحزب الاشـتراكى النمساوى أربعـة عشر مقعداً فى البرلمان . وفى ألمانيـا ـ مهــد الفكرة الاشـتراكيـة الشيـوعيــة ـ يحصل الاشـتراكيـون الديموقراطيون (عــام ١٨٩٨) على ثلاثة ملايين من أصوات الناخبين ، تتيح لهم ستـة وخمسين مقعداً فى الرايختــاج (البرلمان) من بين ثلاثمائة وسبعـة وتسعين للأعضـــاء ، ويتضــاعف عـــدد ممثلى هـذا الحزب الاشـتراكى الديموقراطى عام ١٩١٢ فى البرلمان ، فيُصبح ١١٠ نائباً . وهتلر ـ فيما بعد ـ ألم يكن رئيساً للحزب القومى الاشتراكى الألمانى ؟ .

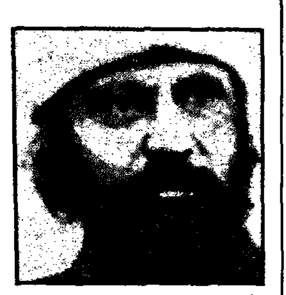


يوحنا بولس الثانى

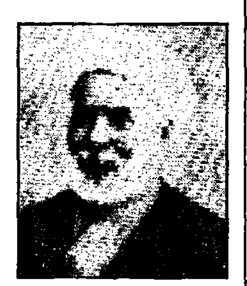
وسواء بصراع الطبقات الذى حضَّ عليـه ماركس ، وإنْجلز ، أو بالإضراب والعصيـان عن العمل ، الذى دعا إليـه المعتـدلون المسالمون ، أو بالقـوانين

(٦) كونت بياكونسفيلد ، ورجل الدولة البريطانى الشهير (١٨٠٤ـ١٨٨١) وكان أيضاً روائياً . تولى رئاسة الوزراء عــام ١٨٦٨ ، ثم من ١٨٧٤ ـ ١٨٨٠ ورئـاسـة حـزب تورى (المحـافظين) ، وهو الذى أعلن فيكتوريا امبراطورة على الهند .

التشريعية التى انتزعها النواب الاشتراكيون فى البرلمانات المختلفة ، فإن القرن العشرين كان شاهداً على العصر ، مسجلاً ـ منذ بدايته ـ لمشاهد وألوان من التغيرات الاجتماعية الكبيرة التى حولت مسار وأفكار واتجاهات ونظم الدول والشعوب . وتردد صداها ـ وبالتالى أثرها ـ فى أنحاء العالم كله. وامتد تأثيرها كذلك على رجل مثل بابا روما « ليو الثالث عشر » ـ ١٨٧٨/١٩٠٣ ـ فوجدت منه مدافعاً منافحاً فذًا (مثلما شهد العقدين الأخيرين من القرن ذاته (العشرين) قريناً له حصيفاً ذا تأثير واضح وكبير على التحولات السياسية والاجتماعية فى أوروبا والعالم ، وخاصة على انهيار دولة الاشتراكية الشيوعية الكبرى ، أى الاتحاد السوفيتى وكتلته فى أوروبا الشرقية، وهو « يوحنا بولس الثانى »). قضى ليو الثالث عشر الخمسة والعشرين عاماً فى منصب البابوية ،مشغولاً ـ بذكاء وبحماس غير معهود ـ بقضايا ومشكلات العالم الجديد ، المقبل على القرن الوليد .


جمال الدين الافغانى

ولئن كان « ليو الثالث عشر » لم يُخْفِ نقده واشمئزازه من الفكرة الماركسية، فإنه لم يجامل ، ولم يحابِ النظرة الرأسمالية : « فلا يوجد عداء طبيعى بين الطبقات كما تزعم الماركسية (هكذا كتب فى رسالته البابوية عام ١٨٩١[٧]) التى تعطى للدولة حقوقاً تعلو وتطغى على حقوق الأفراد أبناء الشعب ، وأصحاب الحق الأول والأوفى ». وفى الرسالة نفسها يناشد الرأسمالية أن تعدِّل وتحسن من أساليبها :« فالعمل ليس سلعة . وإنه لمن العار أن يُعامل الإنسان مثل آلات الإنتاج والانتفاع ». ثم يضيف : « من الواجب أن تستجيب الملْكيات الخاصة (بما يسمى الآن قطاع الأعمال الخاص) ، وبسرعة للأساليب المنصفة لكل أفراد المجتمع » ، ثم يدعو إلى مؤازرة عمل النقابات ، وإعطاء مطالبها أُذناً صاغية . ولا يغفل الإشارة إلى المحافظة على الأخلاقيات المقدسة للأسرة قبل وبعد كل شىء ، ومن بين الوسائل التى تحقق ذلك : تخفيض ساعات العمل ، خاصة بالنسبة للنساء والأطفال .


الإمام محمد عبده

لم يكن غريباً أن تظل هذه الرسالة القيمة مجرد دخان فى الهواء ، فى سماء الرأسماليين، وأصحاب الأعمال الأثرياء .. فالدولة ـ فى النظام الغربى ـ فصلت الدين ، وأبعدته تماماً عن مسارها السياسى منذ قرن مضى ، لكن

(٧) Rerum novarum

أثر تلك الرسالة أيقظ فى نفوس الملايين من أبناء الطبقات الكادحة فى أوروبا الشعور بأن الكنيسة الكاثوليكية تحس بآلامهم ، وتتعاطف معهم فى مطالبهم، ومن هنا كان ميلاد كثير من الأحزاب السياسية فى البلاد الكاثوليكية ، تتضمن برامجها ما يتفق مع أسمائها عن « الاشتراكية المسيحية » . وفى بلاد الشرق الأوسط ترددت الصيحة نفسها من علماء دينيين أجلاء ، من أمثال : جمال الدين الأفغانى ، ومحمد عبده .

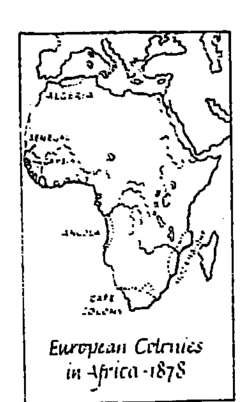
بعد إشراقات القرن الجديد ـ العشرين ـ وبداياته ، استطاع المجتمع الأوروبى أن يقدم نفسه نموذجاً لمجتمعات العالم : فقد بدأ فى إصلاح بعض أخطائه ، وعلاج كثير من أمراضه ، وإزاحة قدر كبير من العَنَت الذى أثقل كاهل الجيل السابق . لم تعد مطالب الجيل العامل الجديد هى مطالب آبائهم نفسها التى كافحوا ـ وبعضهم مات ـ من أجلها ، من أجل العدالة الاجتماعية. وصحيح أن ظروف المعيشة لم تصبح بعد لائقة تماماً أو ممتازة ، لكنها بالفعل تحسنت . وفى كل البلاد الأوروبية ـ باستثناء روسيا ، وبعض دول البلقان ـ صدرت قوانين تنظم العمل بروح إنسانية ، وتضع ركائز نظام اجتماعى يضمن قدراً من الأمان والإنصاف . وتكوَّن المزيد من النقابات ، ونشطت وأثمرت . وتحسنت الأجور . وظهرت فى جوانب الحياة المختلفة بشائر الانتصار على ثالوث الخطر المُعادى لكل تقدم وكل حضارة : البؤس ، والجهل ، والمرض . وكان هذا التحول واضحاً فى المدن الكبيرة ، وبدرجة أكبر فى مجالات الرعاية الصحية. ومُدت خطوط جلْب المياه النقية لمئات الكيلومترات ، ومثلها خطوط الصرف الصحى. وتم تطهير مياه الأنهار ، وساعدت اكتشافات لوى باستير فى فرنسا ـ الذى توفى عام ١٨٩٥ ـ ونظريته عن الميكروب والمصل ، ساعدت على نشر الوعى الصحى والوقاية . وكذلك بحوث واكتشافات جون ليستر فى بريطانيا ، وكان جديراً بأن تمنحه الملكة فيكتوريا مرتبة النبلاء .



واستقبلت المدن بزهو وابتهاج خطوط الغاز والكهرباء، فأضيئت الشوارع ، والبيوت . وجرت على الطرقات ـ لأول مرة ـ « الخيول الحديدية » ، أى السيارات ، ثم عربات الترام ، وأضيفت إلى المدن ـ وكل الأحياء ـ رئات

جـديدة للتنفس ، ممثلة فى حـدائق عامـة خضراء مزهرة ، وملاعب للأطفال .

واستمدت المدن الكبرى مـن فيينا ما قرره عمـدتها « كارل لوجـر » من تكفل الدولة ـ مع خـدمات الغـاز ، والماء النقى ، والترام ـ بإنشـاء بيوت الأيتـام ، والإنفاق عليها ، وكذلك مؤسسـات دفن الموتى ، وإحاطة العاصمة ـ كما فعل هو فى فيينا ـ بحـزام أخضر من الأشجار والحدائق الفسيحة فكـان « لوجر» نموذجاً فذًا للبطل « الاشتراكى » ، محبـوباً من الجماهير التى أعادت انتخابه عمدة للمدينة من عام ١٨٩٠ إلى ١٩١٠ م .


European Colonies in Africa -1878

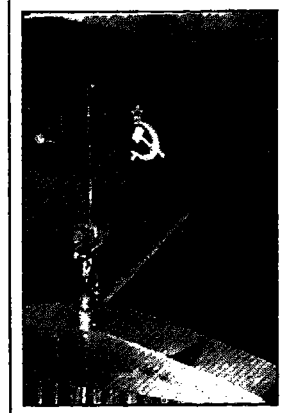
هكذا شق العمال طريقهم فى مسار القرن العشرين ، وأخذ يتسع ويتسع ، وأصبحوا قوة فعالة مؤثرة فى سيـاسات الأحزاب ، وما يصدر من تشريعات، وفى توجيـه الرأى العام ، وفى شئون الدولة ، بعـد أن صار التعليم إجبـارياً ، وظهـور الصحـافـة الشعبيـة والعماليـة : فى إنجلترا ، وفـرنسـا ، وهولندا ، وبلجيكا، وألمانيا ، وإيطـاليا ، وسويسرا ،والدول الإسكندنـافية . وانخفضت نسبة الأمية فى بعض هذه الدول إلى ٥٪.

وتقـاربت المسافـات بين الطبقـات .. ضاقـت الهوة ، وتضاعفت القـوة ، وزادت روابط الأُلفـة والأخـوة داخل مجتمعات طابعهـا الرأسماليـة الحرة . ورفعت شعـار القوميـة والوطنية ، مقـابل ـ على الجانب الآخر ـ الماركسيـة العمالية (البروليتارية) ؛ فاستقر النظام الاجتماعـى على قاعدة قوية راسخة ثابتة ، فحواها : الدولة .. الوطن .

لُعبة الحرب والسلام

عندمـا اقترب القـرن العشرون من نهايتـه ، حـدث شىء عجيب ، فـاجأ العالم كله ، إذ لم يكن فى الحسبان : انهار الاتحاد السوفيتى (لا «امبراطورية الشر » كما أطلق عليهـا الرئيس الأمـريكـى رونالد ريجان) [1].. فكان هذا الانهيـار المدهش إيـذاناً بزوال شبح التهـديد بصـدام مُهلك خطير ـ تدخل

(١) لابد أن نذكـر هنا توقعـات بعض المفكرين والسيـاسيين ـ فى الشرق ، كما فى الغـرب ـ عن فشل النظام الشيوعى قريبـاً فى وقت ما ، نتيجة لمثالب فى النظرية ، وفى التطبيق . وعلى سبيل المثـال : الأستاذ عباس العقاد فى أكثر من كتـاب ومقال ، والرئيس الفرنسى شارل دوجول ، الذى كتب فى مـذكراته قبيل وفاته (١٩٧٠) أنه بعد نحـو عشرين سنة لن يكون للاتحاد السوفيتى وجـود ، وهذا ما وقع بالفعل . لم تكن نبوءة .. وإنما هى تقدير ، وحس رجل دولة سياسى رفيع المستوى .



الأسلحة الذرية بين أدواته ـ بعد أن ساد التوتر والصراع معظم مناطق العالم طوال هذا القـــرن ، بسبب التنافس الحاد ـ والســاخن أحيــانا ـ بين قطبى التنازع على سيــادة العــالم : الاشتراكيــة الشيوعيــة ، وكتلتهـا من جـانب ، والرأسماليــة الغربيــة ، وأنصارها من الجانب الآخــر .. فكان سلام العــالم وشعوبه دائماً فى دائرة القلق والخطر، خاصــة فى النصف الثانى من القرن ، وفيما عُرف بالحرب الباردة. تنفس العالم بارتياح ، وتنوعت مشاعر الدول ، والأمم ، والأفراد ، والشعــوب. كثير من هؤلاء استبشر خيراً بسيادة عصر من الســلام والســلامــة والهدوء ، مع نشــاط أكبر وأوسع فى مجالات التجــارة ، واتساع نطــاق الأسواق الحرة فى التبادل ، وغلبــة النظم الاقتصاديــة المنطلقة السلسة ، على الأنظمــة الموجهة المقيِّدة العقيمــة. ورحب آخرون بانتصــار ما يعرف بــالديمقراطية فى السيــاسة والحكم على الشمــولية ، أو الديكتــاتورية المسيطرة القــابضــــة ، لأن هذا الانتصـــار بدوره يتيح فــرصــاً أكبر وأوسع للاستقرار والعيش فى سلام ، خاصة مع ثورة الاتصال والمعلومات، وتطور وسائــل النقل والسفر ، وتبادل التجــارة، فيستحيل بذلك نشــوب حرب ، أو التهــديد بإشعال حــرب تفســد مصالح الجميع . وتفــاءل غيرهم بأن توازن القـــوى الجديد الذى يحظى برضـــا الجميع ، وبمكان كل منهم من العـــالم ومصــالحه ، يحفــز الكل إلى حماية الأمن ، وحفظ السلام ، فــلا بديل.. وكأنما التاريخ يدخل منعطفاً جديداً ، يبدأ به مسيرة القرن الحادى والعشرين . لكن استقراء التــاريخ يحمل على الاعتقاد بأن لا جــديد تحت الشمس ، كما قيل .. إذ ليست هذه أول مرة يأمل فيهــا الناس ويترقبون طلوع فجــر جديد مشرق بالرخــاء والسلام ، والأمن والاستقــرار ، بعــد ليل طويل ظالم مظلم . كما أن الآمال وحدها ورغائب الناس ليست هى التى تصنع دائماً وقائع التاريخ ، أو تحدد مسار الأحداث . وهذا مثال :



نابوليون بونابرت

فى أعقاب قيــام الثورة الفرنسيــة (١٧٨٩) التى أطاحت بالحكم الملكى ، وأعلنت شعار « الحرية ـ الإخاء ـ المساواة » ، فأبهرت معظم الناس حينذاك، خُــدع خلْق كثيرون ، حتى من بين المفكــرين والعلماء ، وظنوا أنها بداية عصر طويل من السلام والنعيم ، وبعض هؤلاء كان داخل إنجلترا الملكيــة الصارمة شديدة العــداء لفرنسا وللثــوريين . وفى عام ١٧٩٢ ، أعلن العــالم الإنجليزى «جوزيف بريستلى » عن اعتقــاده الراسخ بأن « الاتفاقــات التجارية الأخيرة بين انجلترا وفرنســا ، وبين الدول الأخرى التى عُــرفت بالعــداوة فيما بينها ،

يبدو أنها أظهرت بداية استعداد الجنس البشرى لتفهم أن الحرب حماقة وجنون ، وأننا على وشك الدخول فى عصر جديد من الاستقرار الذى يعم العالم بأجمعه، أو على الأقل سوف يشمل ربوع أوروبا » . وبعد سنوات قلائل .. كانت أوروبا بالذات ، ومصر والشام ،تشتعل بحروب ومغامرات نابوليون بونابرت ، وتخلِّف خسائر فى الأرواح بالملايين ،وخراباً ودماراً بمئات الملايين.

ولم ينقشع الأمل ، ولم ينقطع الظن باقتراب عهد جديد من السلام الدائم، بعد أن تعلم الناس ، وتألمت الدول من ويلات النزاع المسلح والحروب .. فيكتب « جون ستيوارت ميل » عام ١٨٤٨ ، بعد جيل واحد من حروب نابوليون ومؤتمر فيينا (عام ١٨١٥ الذى وضع اتفاقية سلام أوروبا ومستقبلها بعد هزيمة نابوليون الحاسمة الأخيرة)،كتب ميل يقول : « إن اللجوء إلى الحرب أصبح أمراً ممقوتاً مهجوراً ، بعد أن تمت تقوية ومضاعفة الروابط والمصالح الشخصية التى هى بطبيعتها معادية للحرب .. إن التوسع البعيد المدَى ، والتزايد المتسارع فى التجارة الدولية هما الضمان الرئيسى لسلام العالم». وتغنَّى ـ مثله ـ مفكرون كبار فى كل أوروبا بآثار حرية التجارة على تدعيم السلام والاستقرار لأحقاب طويلة قادمة ، تخيلها البارزون فى حاشية الملكة فيكتوريا (ملكة بريطانيا) بأنها ستمتد إلى ألف سنة من الرخاء والأمن والازدهار الاقتصادى والحكم الديموقراطى .



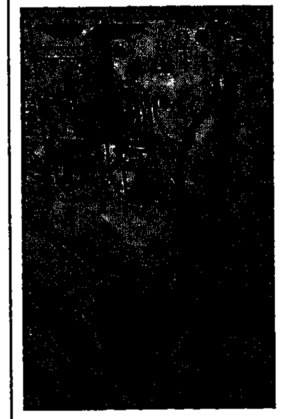
لكن الذى حدث بالفعل ، أن العراك لم يتوقف ، والحروب الصغيرة ظلت تشتعل[٢] ، ثم بعد مائة عام بالتمام من توقيع معاهدة أو اتفاقية فيينا ، تجتاح العالم(١٩١٤) حرب شاملة طاحنة لم يشهد لها مثيلاً من قبل ، ثم تلتها (١٩٣٩) أخرى أشد دماراً وفتكاً وإهداراً للأرواح والقيم والأموال والمدن والممتلكات .

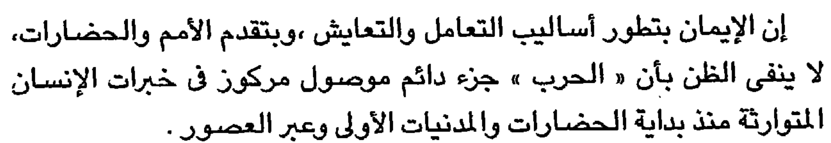
وبعد منتصف القرن التاسع عشر ، مع

(٢) نذكر منها على سبيل المثال : حرب تركيا ـ اليونان (١٨٢٢) ، غزو روسيا لتركيا (١٨٢٨) ، مساندة بريطانيا وفرنسا لليونان فى حربها مع تركيا (١٨٢٩) ـ غزو فرنسا للجزائر (١٨٣٠) ـ جمهورية البوير والصراع ضد إنجلترا فى جنوب أفريقيا (١٨٣٦) ـ حرب الأفيون بين إنجلترا والصين (١٨٣٩) ـ أنتفاضات ثورية دامية (١٨٤٨) فى فرنسا ، وألمانيا والنمسا،وبولندا ، وإيطاليا ـ حرب القرم (١٨٣٦) بين تركيا وروسيا ـ الحرب الفرنسية الروسة (١٨٧١) .

تطـور تكنولوجيـا الأسلحـة وأدوات الحـروب والنظـم العسكرية، زعم فريق من المفكرين والكتاب أن « الحرب أصبحت مستحيلة » لأن العاقل الحازم الحكيم لا يفكر فيها كوسيلة لفض المنازعات وحل المشكلات،حيث إنها الآن شديدة الفتْك والتدمير ، ولا تجلب إلا التلف وإفساد مصالح كل المشتركين فيها .. فالتهديد بها ـ فقط ـ خير ألف مرة من المخاطرة بإشعال فتيلها . ومع ذلك .. لم يتوقف التهديد والوعيد ، ولا المغامرة بالمقامرة ، فاندلعت نيران حروب مهلكة متشابكة .. إذ يبدو أن الشجار أو العراك هوًى غلاب ، وطبيعة محركة عند بعض الناس ، مهما توارى ذلك خلف أقنعة ومسوح حضارية ، وبواعث زائفة منطقية ! .

ثم أقبل القرن العشرون . وزاد اعتقاد الناس ، خاصة لدى المثقفين والمستنيرين ، بأن التقدم العلمى والتكنولوجى يمكن أن يسهم بقدر كبير فى تطوير البيئة نحو الأحسن ، وفى إصلاح الإنسان ، وتوجيهه نحو الأفضل ، فكراً ، وسلوكاً ، وكفاءة ، وانضباطاً، فيشارك عن رضا واقتدار فى صنع التقدم والثراء والرخاء ، وفى المحافظة بإرادة وحزم على السلام والوئام . ولتحقيق ذلك ... يكفى التنبيه والتنوير ، وإثارة العزائم ، والطَّرْق المستمر لإشعال الحماس، حتى لا يفْتُر أو يضيع . ومن عجب ، أن يلتقى المتفائلون والمتشائمون ـ فى مطلع القرن العشرين ـ عند دفْع الإنسان المتحضر فى النهاية ، إلى تحقيق هذا الهدف الجميل النبيل : أن يسود السلام ، فيعيش العالم أحقاباً خالية من الصراعات الدموية والحروب . ثم خاب ظن هؤلاء وهؤلاء .





إن الإيمان بتطور أساليب التعامل والتعايش ،وبتقدم الأمم والحضارات، لا ينفى الظن بأن « الحرب » جزء دائم موصول مركوز فى خبرات الإنسان المتوارثة منذ بداية الحضارات والمدنيات الأولى وعبر العصور .

فى كتاب « دروس التاريخ » [٣]،يذكر « ويل ديورانت » أنه أجرى حساباته الدقيقة من واقع الأحداث ، فوجد أن العالم المعروف المسكون بالبشر ،لم يَنْعم بالسلام الحقيقى ، أى العيش بلا حروب ، إلا لفترات زمنية ، مجموعها ٢٦٨ سنة فقط خلال الـ ٣٤٢١ سنة الماضية .

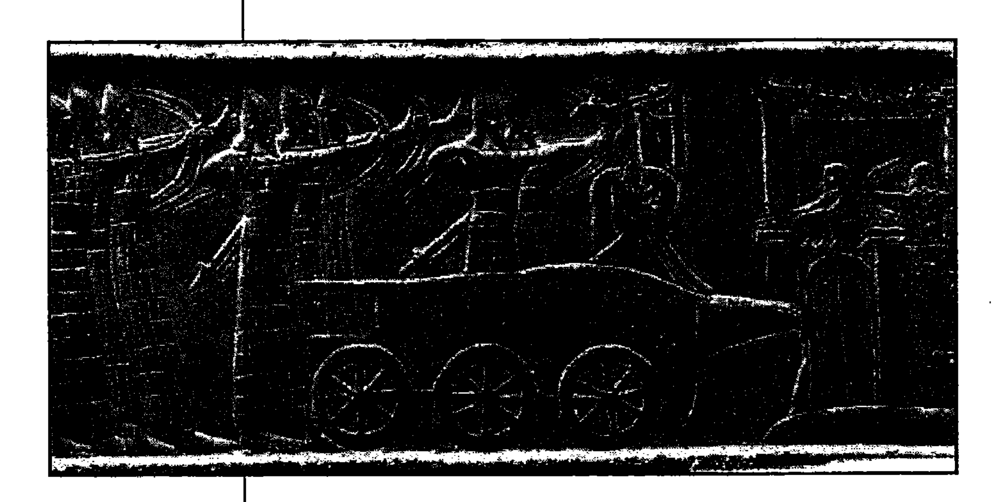
ويشير « آرثر فريل » فى كتابه « بدايات الحرب » [٤] إلى أن الجيوش

(٣) The Lessons of History - New York (1968) .
(٤) The Origins of War (London - 1985)

المنظمة المتقاتلة عُرفت فى التاريخ القديم مع العصر الحجرى منذ عشرة آلاف سنة على الأقل ، وأنها أقامت الحصون والسدود لتحمى نفسها وأهلها من عدوان الآخرين ، وأن الحضارات المصرية الأولى ـ وكذلك حضارة ما بين النهرين ـ كانت أول من أدخل عناصر جديدة وأدوات مستحدثة فى فنون الحرب والقتال ، فكانت من أوائل الذين توسعوا وامتلكوا عن طريق الحرب ، ثم تبعهم الصينيون والإغريق والرومان .

إن إشعال نيران الحرب ، تيار سارٍ متدفق مع مجرى التاريخ ، لم يكد يتوقف، وربما لن يكون : لأنه ـ للأسف ـ عند البعض رغبة ، وعند آخرين ضرورة لا بديل عنها ولا محيص . هل هذا صحيح ؟ ، وما مقدار الصواب أو الخطأ فى زعم أولئك ، وفى تقدير هؤلاء ؟ ومَن المستفيد ؟ وهل كان فى الإمكان تجنُّب نشوب حروب طاحنة مهلكة مخربة ، كالتى وقعت فى القرن العشرين؟. ما هى النتائج ؟ وما الثمن ؟ ومن دفع؟..إن دراسة ذلك بوعى وأناة وعمق ، قد ينبه ويحذِّر ويحفظ ويعصم ، وربما يَحُول دون الإسراع إلى التهلكة ، وويل لمن لا يتعلم من دروس التاريخ ! .

بداية ، قد لا نجد حرجاً فى طرح بعض الأسئلة ، لأنها سوف توضح مسار البحث الذى نبتغيه . والسؤال أحياناً قد يكون أصعب من الإجابة .



(٥) The Causes of War - M. Howard - Cambridge - 1983 .



ـ لماذا يتعارك الناس ، وبالتالى الدول .. فضلًا عن القبائل والعشائر ـ ويتصارعون إلى حد التقتيل والتدمير والإبادة ؟!.

ـ ما الفرق بين « الفتوة » أو « البلطجى » الذى يفرض إرادته ومطالبه ـ غير المشروعةـ بالقوة والقهر على فئة ، أو شارع ، أو حى من الأحياء ، أو قرية ، وبين دولة تفعل نفس الشىء ، ولكن بأسلوبها وأدواتها ووسائلها ؟ .

ـ هل التعبيرات التى نسمعها اليوم ـ وطوال القرن العشرين ـ ونتداولها فى أحاديثنا وكتاباتنا ، مثل « الإمبريالية » ، و« الديكتاتورية » و«الديمقراطية » و«الأرستوقراطية » ..هل كانت معروفة متداولة قديماً ؟ .. نعم ، إن لم تكن بالاسم ، فإن مظاهرها كانت قائمة بالفعل ، منذ الحضارات الأولى .. ولكن فى القرن العشرين ـ وقبيل مطلعه ـ تغيرت دوافع وأسباب تلك المفاهيم والتعبيرات ـ وبالتالى بواعث ودوافع الحروب ـ وإن بقيت مدلولاتها ومظاهرها العامة كما هى. مثلا : قديماً ، وحتى القرن التاسع عشر ، كانت فى معظم أوروبا الملكية ، والحاشية ، والطبقة الأرستوقراطية ، وقادة الجيوش وكبار العسكريين الذين يمثلون دعامة وحماة السلطة ، وسند صاحب السلطان ، وذراع المملكة القوى الباطش . الآن ، فى القرن العشرين تحولت هذه كلها ، أو أُضيفت إلى صيغ جديدة تلائم روح العصر وأفكاره ومستحدثاته ، فأصبحت غالباً : السلطة الحاكمة ، وقادة السياسة ، وزعماء الأحزاب والنقابات ، والمؤسسة العسكرية ، مع صراع الطبقات ، وسباق التسلح ، وتحالف الأنظمة ... وسقطت عروش وممالك ، ومعها حاشيتها ، وطبقة أريستوقراطيتها ، وهؤلاء جميعاً كان بأيديهم مقدرات الحرب والسلام . ومع ذلك .. لم تتوقف الحرب ، ولم يَدُم السلام .

فى الدراسات الحديثة ، يرى البعض أن الحروب ، أو الصراعات المسلحة فى القرن العشرين كان باعثها غالباً : التنافس على القوة والنفوذ (٥):ففى عام ١٩٣٩ ، كان معظم البريطانيين ،يبررون الفشل فى قضية معينة أثارت خلافاً فى مفاوضات ، ولم تجد تسوية مُرْضية ، ولكن بدافع تدعيم نفوذهم وقُوتهم قبل أن يروْا أنفسهم معزولين جانباً ، لا يجدون لنفوذهم وقوتهم ما يحتفظون به ويدعمونه ، وهذا هو المهم ، فيرضخون لقبول مرتبة الأدنى التَّبيع ، فى نظام عالمى يسيطر عليه منافسوهم . وفى تقدير كثير من الناس

---

(٦) - On The Origins Of War and The Preservation of Peace - Donald Kagan
New - york (1995) .

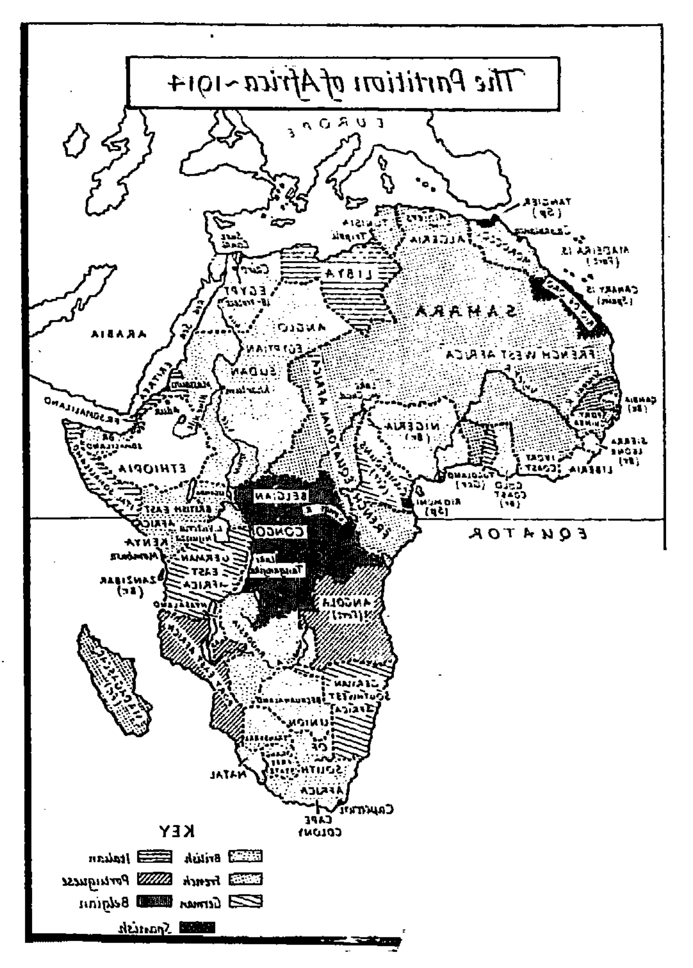
ومؤرخى القرن العشرين الكبار ، أن كلمة « power » ـ أى : القوة مع النفوذ والسلْطة ـ كلمة عسيرة التقبل ، سيئة الإيقاع ...فهى فى أساس مغزاها توحى بالرغبة فى فرض إرادة طرف (شخصى ، أو دولة) على طرف آخر ، وعادةباستخدام القوة ومن هنا .. توارث الناس مفهوم أن القوة ذات النفوذ والسلطة : سيئة كريهة . لكن القوة فى حقيقتها محايدة : « إنها القدرة على تحقيق رغبات ومطالب ، قد تكون جيدة أو رديئة .كما أنها أيضاً تعنى القدرة على مقاومة مطالب ورغبات الآخرين الجبرية المتعنِّتة . وفى المعنى



أفريقيا سنة ١٨٣٠ خالية تقريبا من الاستعمار .

الأخير ، نجد أن القوة ضرورية ولا غنىً عنها لاكتساب الحرية والمحافظة عليها . ولقد أُبْلِغْنا أنه فى مملكة الإله الخالدة، لا حاجة ولا ضرورة لامتلاك الناس للقوة ، أما فى هذا العالم الذى نعيش جميعا فيه ، فإنها ضرورة لازمة ، والنضال من أجلها لا مَحيد عنه » (٦).

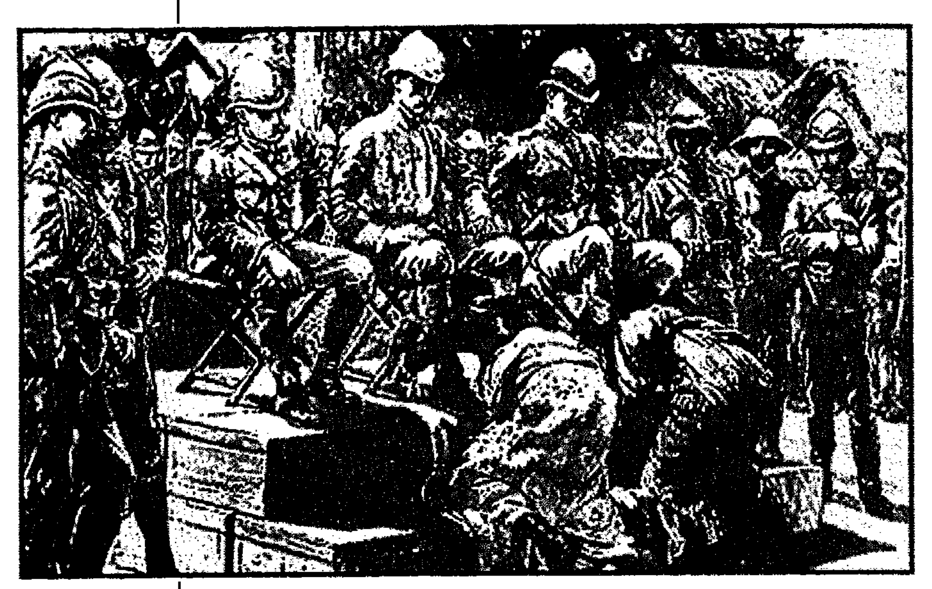
(١) التفاصيل فى محتوى جزء قادم من هذه السلسلة بإذن الله .



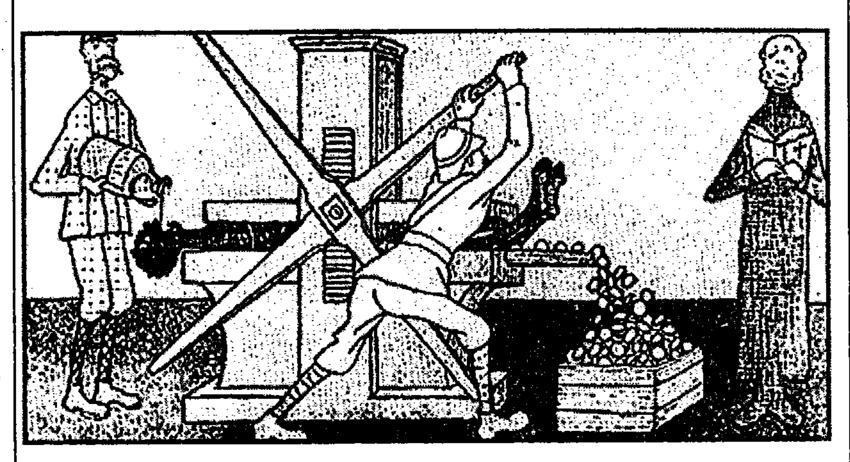
فريقيا سنة ١٩١٤ مقسمة بين دول الاستعمار الأوروبى

إذا كان من أبرز صفات الإنسان ـ العاقل الرشيد ـ ومميزاته : التعلم من الخبرات السابقة واكتساب مخزون أو رصيد من نتائجها ينفعه مستقبلاً، ويستعين به فيما يواجه من مشكلات وأزمات وعقبات ، فإن الوقوف عند «أزمتين » كبيرتين حادتين من أزمات استخدام القوة وبسط الإدارة بالنفوذ والقهر ، فكانتا من أخطر أحداث هذا القرن ، يعتبر وقوفاً متأملاً متفحصاً لابد منه ، لأن صراعات القوة فى القرن القادم (قوة السلاح ، وقوة الاقتصاد، وقوة العقائد، وقوة الجوع ، وقوة التكتلات البشرية ..) تلوح نُذرها ، وتتراقص أشباحها من قريب ومن بعيد . « وهواة » العراك والحروب دائماً موجودون ، وتراهم أحياناً جاهزين متلهفين !(٧)

ومظهر آخر من مظاهر « لعبة » الحرب والسلام ، أو استخدام العراك والقوة والبطش ، ساد مناطق كثيرة من العالم منذ أوائل ـ ثم طوال ـ ذاك



رسم من عام ١٨٩٦ يصور رئيس قبيلة أفريقية وزوجته، فُرض عليهما المستعمر البريطانى أن يركعا لتقبيل أقدام الضباط الغزاة أمام أفراد القبيلة .



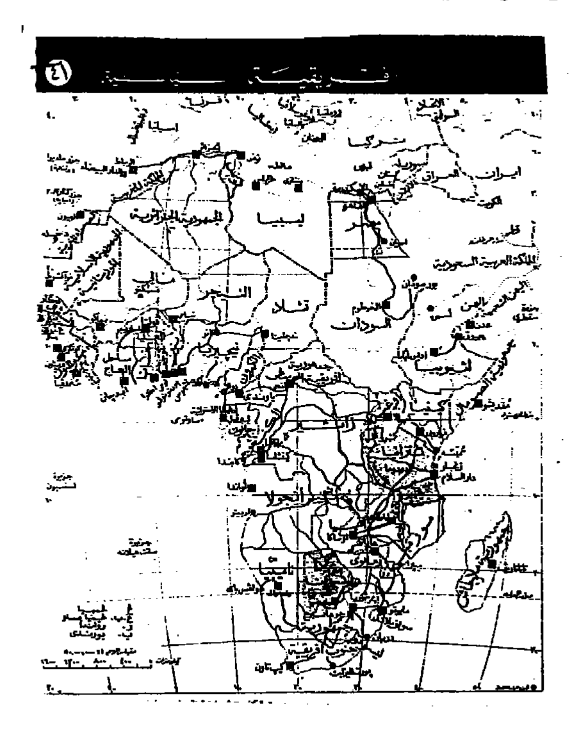
رسم فرنسى يوضح أسلوب الاستعمار البريطانى فى استنزاف أفريقيا لصالحه ، ولا يترك للأفريقى إلا ما يُبقى على حياته . وبينما يعتصره ، يتلو عليه رجل - إلى اليمين - بعض المواعظ والدعوات التبشيرية .

القرن العشرين . إنه لون جديد من « الاستعمار » ، ولكن بلا جيوش ولا معارك تُستنزف فيها الدماء ، دماء المستعمِر (بكسر الميم الثانية) ، ودماء المستعمَر (بفتح الميم) . يكفى فقط - إن كان لابد من استنزاف دماء - أن تكون هى دماء الوطنيين أصحاب الوطن الضعيف :الأرض ،والثروة ، والمال، والجهد ، والآمال ،والطموحات ، والسعادة ، والمستقبل..وبلا مقابل! .. إنه

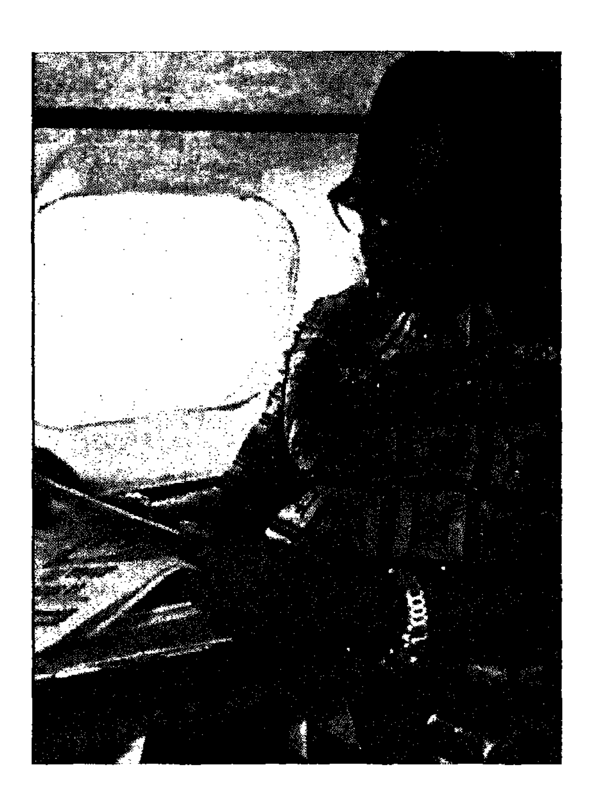
استعمار ظريف ، حصيف ، مخيف ، .. واستغلال كثيف غير شريف . كيف؟. لنأخذ مثالاً على ذلك من : أفريقيا (ومثلها ـ كما سوف نتناول بالتفصيل فى الأجزاء التالية ـ فى آسيا ، وأمريكا اللاتينية ،وفى أمريكا الجنوبية) .

فى مطلع القرن العشرين ، كانت أفريقيا خالية تقريباً من آفة الاستعمار والاحتلال ، سوى بعض مناطق محدودة للغاية ومتفرقة على السواحل فى الشمال والغرب والجنوب. ولنتأمل الخريطة الأفريقية لعام ١٨٧٨ م ، ثم نلقى نظرة على خريطة أفريقيا المسكينة الممزَّقة عام ١٩١٤ : إنها تكاد تخلو من بقعة مستقلة تماماً ، أو تنعم بحريتها كما كانت منذ سنوات قلائل . جاء المستعمر الأبيض بجيوشه وسلاحه وقهره وبطشه ، وماهو معروف عنه من سفك الدماء ، واستباحة الحرمات ، واستنزاف الثروات ، واقتناص العبيد (الرقيق) . وهذه بعض الصور والرسوم المنتقاة مما نشر آنذاك فى صحف وكتب الغرب نفسه ، أى فى بلاد المستعمر الدخيل المحتل .

ثم كانت الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨) وتلتها الثانية (٣٩ ـ ١٩٤٥) فى أعقاب كل حرب ، استطاعت دول محدودة (مثل مصر) أن تحصل سلمياً على حريتها . وفى أوائل النصف الثانى من القرن ، نشبت فى



افريقيا سنة ١٩٩٠



موبوتو سى سيكو كان يحتكر كل إنتاج بلده من الذهب والماس والنحاس (رابع دولة فى العالم فى انتاج النحاس) وله مجموعة من الطائرات الخاصة الكبيرة ويمتلك قصورا فى العواصم العالمية وشعبه يموت جوعا، وعلى مشهد من كل ساسة العالم قُدرت عند موته ثروته الخاصة ـ فى بنوك الغرب ـ بنحو ٩ مليار دولار !!!

أفريقيا صراعات الاستقلال، سواء بدافع وطنى ، أم بتحريض من الدول الكبرى المتنافسة على سيادة وقيادة العالم . واستقل معظم الدول الأفريقية (وبعضها بتقسيمات حدودية جغرافية سيئة ، أثارت فيما بعد مشاكل ومعارك)، وإن كانت لم تسلم من الضغوط والقيود فيما عرف بمناطق الحماية والنفوذ .

لم يكن من السهل المقبول عند الدول الاستعمارية أن تترك أفريقيا وترحل عنها فى هدوء وسلام ، وهى تعلم تماماً أن كنوز الثروات الأفريقية ما زالت وافرة عامرة، على الرغم من استنزافها بقسوة طوال سنوات الاستعمار، فكانت سبب ثراء أوروبا وانتعاش أمريكا شمالاً وجنوباً (بسبب تسخير ملايين العبيد فى العمل الشاق المتواصل بلا أجور ولا حقوق) ، فضلاً عن أن أبناء أفريقيا دافعوا بأرواحهم وسواعدهم ـ بفرق عسكرية كاملة ـ عن أوروبا أثناء الحربين العالميتين .. فماذا يفعل المستعمر قبل رحيله ؟ .

اتخذ عدة وسائل خبيثة ماكرة ، لكنها مثمرة ، منها : أنه زرع الريبة والكراهية والحقد فى نفوس أبناء القبائل الوطنية (ومعروف أن معظم دول أفريقيا مازال ـ وسيظل لقرون قادمة ـ قَبَلِىّ الثقافة والمشاعر والفكر

والعلاقات الاجتماعية ، وبدرجة كبيرة ، قبل أى اعتبار آخر) ، وترتب على هذا .. فتور الثقة فيما بينهم ، ودوام التنافس الحاد ، والحرص على التفوق العرقى ، والغلبة أو السيطرة ، فيكيد بعضهم لبعض ظاهراً وباطناً ، والمستفيد هو الرجل الأبيض ، المستعمر السابق ، لأنه ما زال صاحب كلمة مسموعة ، ونفوذ غير مباشر :فى التعليم ، والاقتصاد ، والاستيراد ، والتصدير ، والتجارة، والصناعة ، والزراعة ، والتسويق ، والإعلام . ومعظم الرؤساء الأفارقة يتخذ مستشارين له من الأوربيين والأمريكيين .. وتحت مظلة البعثات التبشيرية والتدريبية والمراكز الثقافية والفنية يؤهل المستعمر القديم أو الحديث ، ويعدّ توابعه وأشياعه من الذين سيتولون قيادة الدولة مستقبلاً ، ويشغلون المناصب الكبرى والتشريعية والتنفيذية فيها ، وحتى داخل المؤسسات العسكرية التى هى أيسر وأطوع من غيرها فى إحداث القلاقل والانقلابات إذا ما اقتضى الأمر ، وهو ـ الاستعمارى المحتل السابق ـ يرقب من بعيد ، ويحرك الخيوط من قريب ، ويحتكمون إليه إذا اشتجروا ـ ويحتمون به ـ أو بمنافسه على المنطقة ـ إذا اندحروا. وفى جميع الأحوال ـ كما أظهرت الوقائع ، وكُشفت أسرار ، خاصة فى الربع الأخير من القرن العشرين ـ كانت ثروات أفريقيا « تتسلل » إلى بنوك أوروبا وأمريكا بالملايين والمليارات (وقد ذكر أن ثروة موبوتو رئيس الكونغو (زائير) الذى كان فى نشأته جندياً بالجيش، بلغت يوم طرده من بلاده أكثر من تسعة مليارات دولار ، كلها خارج وطنه ، وشعبه يئن فقراً ، ويهلك جوعاً !) . إنها ثروات البلاد والعباد المسروقة أو المنتهَبَة ، يسرِّبها ـ لحسابهم بالخارج ـ من هم فى مواقع السلطة والمقدرة والنفوذ ،فتتلقاها الدول الاستعمارية القديمة فى بنوكها ومشروعاتها ، تنعم بها وتستفيد ، وتستنزف ما يتبقى من أموال فى البلاد الأفريقية المكدودة المنكوبة بطبقتها الثرية الجديدة ، عن طريق بيع المنتجات الصناعية المصدرة إليها ، وقد تكون مواد صناعتها الأولية مشتراة من أفريقيا بأبخس الأثمان ، لأن الاتحادات والشركات الكبرى فى الغرب هى المتحكمة فى تحديد الأسعار عالمياً .



والغريب المريب ، أن الربع الأخير من القرن العشرين ، سَرتَ فيه شائعة مؤداها : أن أفريقيا لا خير فيها ولا أمل .. أى لم تَعُدْ فيها ثروات طبيعية تُستثمر ؛ فتُثْمر .. ولا أمل فى دفعها لكى تلحق بركب الحضارة الغربية

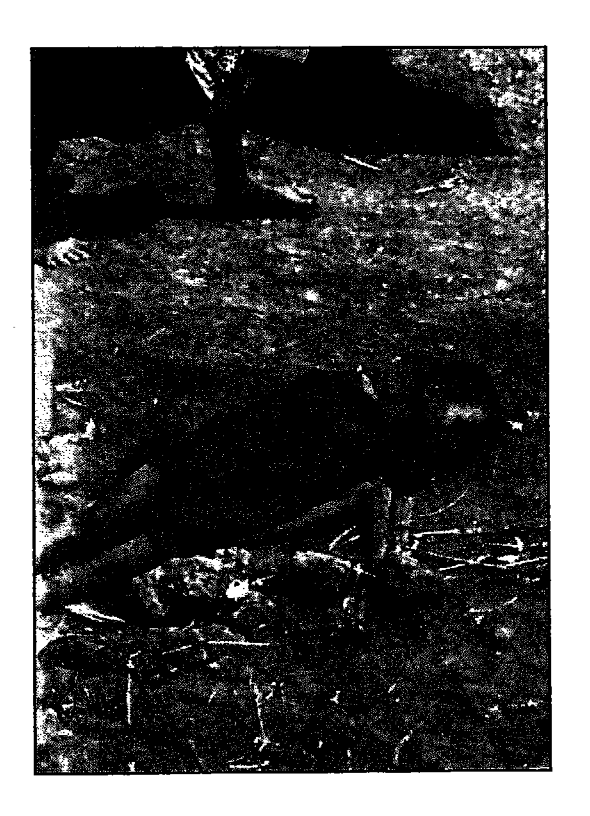
المتطورة المتسارعة . ويضربون أمثلة على ذلك : من موجات التصحر ، وهلاك مئات الآلاف من الجوع ، وقتل الملايين بوحشية فى الحروب الأهلية (الصومال ، رواندا ، بوروندى ، الكونغو ، مالى ، ليبيريا ، سيراليون ...) ، وفشل النظم الديموقراطية فى السياسة والحكم .. ثم فجأة ، تظهر أصابع اليد الأمريكية من منتصف التسعينيات ، تحرك الأحداث فى مناطق كثيرة من أفريقيا ، ويبدو من خلالها بوضوح أن الولايات المتحدة عازمة على « انتزاع» مكانة فرنسا فى مناطقها الأفريقية (الفرانكوفون) ، وعلى«احتلال» نفوذ بريطانيا ـ التى كانت يوماً عظمى ـ فى مواقعها الأفريقية (الأنجلوفون) ، بل وتعلن صراحة أن أفريقيا مازالت عامرة بالكنوز والثروات الطبيعية ، وأنها لابد أن «تستَثْمر » بحكمة وعناية . والسؤال : لصالح من ؟ أو لحساب من؟؟ ... لسوف نتناول ذلك كله بالتفصيل فيما بعد ، إن شاء الله .

فى النصف الأول من هذا القرن ـ العشرين ـ كانت السيادة فى المظهر العام للمنافسة الضارية بين أوروبا وأمريكا ، وبينهما معاً وبين شمال آسيا وشرقها (روسيا واليابان) . لم تعد القوة الصناعية حكراً على أوروبا وحدها، وبالتالى القدرة التجارية والملاحية ، واحتواء الأسواق العالمية . وبذلك حدثت تغيرات تاريخية وجغرافية ، ساعدت على تكثيفها وتسارعها أفكار جديدة ومذاهب ، بعضها ثورى دموى (كالشيوعية) ، وبعضها وطنى قومى ، مصمم على التحرر والاستقلال عن الدول الاستعمارية الكبرى ، كما حدث فى الشرق الأوسط ، وفى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية . ثم تغير الكثير من الملامح وسمات القرن فى النصف الثانى منه بعد الحرب العالمية الثانية ، وإنشاء منظمة الأمم المتحدة .



فى بداية القرن ، كان عدد سكان العالم ١٥٧١ مليون نسمة . ثم زادوا عام ١٩٥٠ إلى ٢٥٠٠ مليون نسمة ، وفى عام ١٩٧٠ أصبحوا ٣٣٠٠ مليون، وفى نهاية القرن ضِعْف ذلك تقريبا .. فالزيادة مستمرة متصاعدة رغم الوفيات، وضحايا الحروب والأوبئة والكوارث الطبيعية والمجاعات ، واستخدام وسائل تنظيم الإنجاب . وكان لابد من اتساع المدن وازدحامها بالأعداد المتزايدة من سكانها ، وبالوافدين إليها من الريف للإقامة والعمل بها . وبعد أن كان عدد المدن التى يزيد سكانها عن المليون فى العالم كله لا يزيد عن العشر فى بداية القرن، تجاوز عددها المائة فى نهايته . وهذا بيان بالخمسين الأُول منها بالترتيب.





أبناء أفريقيا يهلكون بالطرقات ولا أحد فى العالم «المتحضر» يبالى ، وتحت رأس هذا الغلام المسكين كنوز وخيرات ، وأسهم آجداده فى رخاء أوروبا وأمريكا فى القرون الغابرة !

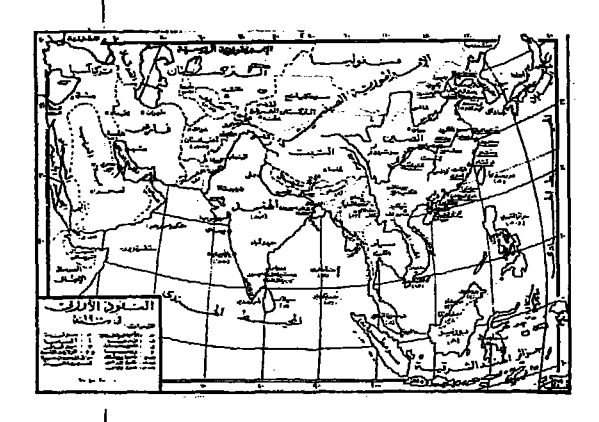
تسلسل	المدينــــــة	عدد السكان بالألف / ١٩٩٥	عدد السكان بالألف / ٢٠٠٠	معــدل الزيــادة
١	طوكيو / اليابان	٢٨٤٤٧	٢٩٩٧١	١,١
٢	مكسيكو / المكسيك	٢٣٩١٣	٢٧٨٧٢	٣,٤
٣	ساوباولو / البرازيل	٢١٥٣٩	٢٥٣٥٤	٣,٥
٤	سول / كوريا الجنوبية	١٩٠٦٥	٢١٩٧٦	٣,٢
٥	نيويورك / الولايات المتحدة	١٤٦٣٨	١٤٦٤٨	—
٦	أوزاكا / اليابان	١٤٠٦٠	١٤٢٨٧	٠,٣
٧	بومباى / الهند	١٣٥٣٢	١٥٣٥٧	٢,٨
٨	كلكتا / الهند	١٢٨٨٥	١٤٠٨٨	٢,٠
٩	ريودوجانيرو / البرازيل	١٢٧٨٨	١٤١٦٩	٢,١
١٠	بيونس أيرس / الأرجنتين	١٢٢٣٢	١٢٩١١	١,٤
١١	مانيلا / الفيليبين	١١٣٤٢	١٢٨٤٦	٢,٤
١٢	موسكو / روسيا	١٠٧٦٩	١١١٢١	٠,٨
١٣	القاهرة / مصر	١١١٥٥	١٢٥١٢	٢,٤
١٤	جاكارتا / إندونيسيا	١١١٥١	١٢٨٠٤	٣,٠
١٥	طهران / إيران	١١٠٨١	١٤٢٥١	٤,٨
١٦	لوس أنجليس / الولايات المتحدة	١٠٤١٤	١٠٧١٤	١,١
١٧	دلهى / الهند	١٠٥٠٥	١١٨٤٩	٣,٠
١٨	لاجوس / نيجيريا	٩٧٩٩	١٢٥٢٨	٤,٨
١٩	كراتشى / باكستان	٩٧٥٩	١٢٥٢٨	٤,٨
٢٠	لندن / المملكة المتحدة	٨٨٩٧	٨٥٧٤	١,_
٢١	باريس / فرنسا	٨٧٦٤	٨٨٠٣	٠,٧
٢٢	ليما / بيرو	٧٨٥٣	٩٢٤١	٣,٧٣
٢٣	استانبول / تركيا	٧٦٢٤	٨٨٧٥	٣,٢
٢٤	تايبيه / تايوان	٧٤٧٧	٨٥١٦	٢,٦
٢٥	إسن / ألمانيا	٧٣٦٤	٧٢٣٩	٠,٥
٢٦	شنغهاى / الصين	٧١٩٤	٧٥٤٠	٠,٩
٢٧	بوجوتا / كولومبيا	٦٨٠١	٧٩٣٥	٣,٢
٢٨	بانجوك / تايلاند	٦٦٥٧	٧٥٨٧	٣,٠
٢٩	مدراس / الهند	٦٥٥٠	٧٣٨٤	٢,٩
٣٠	شيكاغو / الولايات المتحدة	٦٥٤١	٦٥٦٨	٠,٢
٣١	بيكين / الصين	٥٨٦٥	٥٩٩٣	٠,٤

٣٢	هونج كونج / الصين	٥٨٤١	٥٩٥٦	٠,٥
٣٣	سنتياجو / شيلى	٥٨١٢	٦٢٩٤	١,٩
٣٤	بوسان / كورياج	٥٧٤٨	٦٧٠٠	٢,٨
٣٥	بانجالور / الهند	٥٦٤٤	٦٧٦٤	٣,٥
٣٦	دكا / بنجلاديش	٥٢٩٦	٦٤٩٢	٤,٤
٣٧	تيانجين / الصين	٥٠٤١	٥٢٩٨	١,٢
٣٨	لاهور / باكستان	٤٩٨٦	٥٨٦٤	٣,٦
٣٩	ميلانو / إيطاليا	٤٧٩٥	٤٨٣٩	٠,٥
٤٠	مدريد / إسبانيا	٤٧٧٢	٥١٠٤	١,٤
٤١	سان بطرسبورج / روسيا	٤٦٩٤	٤٧٣٨	٠,٤
٤٢	كينشاسا / الكنغو	٤٥٩٠	٥٦٤٦	٤,١
٤٣	بغداد / العراق	٤٥٦٦	٥٢٣٩	١,٦
٤٤	برشلونة / إسبانيا	٤٤٩٢	٤٨٣٤	٢,١
٤٥	شنيانج / الصين	٤٤٥٧	٤٦٨٤	١,٠
٤٦	بلوهوريزونت / برازيل	٤٣٧٣	٥١٢٥	٣,٦
٤٧	أحمد أباد / الهند	٤٣٠٠	٤٨٣٧	٣,١
٤٨	سان فرانسسكو / الولايات المتحدة	٤١٠٤	٤٢١٤	٠,٨
٤٩	حيدر أباد / الهند	٤١٠٠	٤٧٦٥	٣,٠
٥٠	هوشى ـ منه / فيتنام	٤٠٦٤	٤٤٨١	٢,٩

الإمبريالية ، وعصر التوسع والسيطرة الأوروبية

شهدت نهاية القرن ١٩ ، وبداية القرن ٢٠ اتساع السيطرة الأوروبية بشكل غير مسبوق . ومن هنا جاء التعبير الشائع « عصر الإمبريالية » بزعامة بريطانيا وفرنسا ، الذى ورث عصر الإمبراطوريات الكبرى : النمساوية ـ المجرية ، والعثمانية التركية ، والضينية ، فى مناطقها .

كانت أفريقيا وآسيا هما المجال الأوسع لإشباع نَهَم المستعمرِيْن الجديديْن . ودخلت دول الشرق العربى تحت مظلة هاتين الدولتين بانتزاعهما من الدولة العثمانية : الجزائر لفرنسا عام ١٨٣٠ ، ثم تونس ١٨٨١ ، ثم المغرب ١٩١٢ . أما مصر التى حصل محمد على باشا على



استقلالها بالحكم الذاتى، فإنها دخلت تحت السيطرة، ثم الحماية البريطانية عقب ثورة أحمد عرابى (١٨٨٢)، ولأكثر من سبعين عاماً[1]. وبين عامى ١٨٨٠ ـ ١٨٩٥ كانت القارة الأفريقية كلها تقريباً مقسمة بين الدول الأوروبية.

فى آسيا ، كان ضَعف إمبراطورية المانشو فى الصين وإمبراطورية المغول فى الهند مدعاة لإثارة شهية بريطانيا وفرنسا ... فاضطرت الصين ـ بعد حربها مع الإنجليز والفرنسيين ـ أن توقع اتفاقية نانكنج، وتتنازل عن هونج كونج لبريطانيا والسماح بإقامة عدة موانىء حرة لتجارة المستعمرين الجدد ، بما فيها تجارة المخدرات ، ثم انتصرت فرنسا فى غزوها لإمبراطورية شينج ، وأنشأت لها قاعدة فى سايجون ، ثم أقامت مستعمراتها فى الهند الصينية . ولما هَزَمت اليابان الصين فى حربها عام ١٨٩٤ ، استولت من الصين على ولاية كوريا ، حتى إنه فى عام ١٩٠٠ حاصرت بعثة عسكرية من مختلف الجنسيات العاصمة الصينية بكين .

ويبدو اهتمام الدول الأوروبية باستغلال خيرات الدول والمناطق الضعيفة على امتداد العالم (ثرواتها الطبيعية والأيدى العاملة الرخيصة) ، وذلك من خلال الجدول التالى الذى يوضح التنافس المتزايد على استثمار الأموال التى تحقق عائداً ضخماً من تلك الدول ، دون أدنى اهتمام برعاية وتطوير حياة الشعوب التى تُستثمر فيها تلك الأموال إلى الأفضل ، وذلك إلى جانب الاستثمارات الأوروبية داخل الولايات المتحدة المنطلقة إنتاجيًا .

---

(١) بعد ثورة الشعب المصرى عام ١٩١٩ ، اضطرت بريطانيا إلى إعلان إلغاء الحماية على مصر ، واعترفت بها دولة مستقلة ذات سيادة ، لكن النفوذ البريطانى المتغطرس ظل قائماً فى مصر مع قوات من الجيش البريطانى رابضة بمنطقة القتال ، إلى أن رحلوا عنها عام ١٩٥٤ فى عهد الرئيس جمال عبد الناصر .

حجم الاستثمارات الإمبريالية خارج أوروبا
سنة ١٩١٤ (بالمليون دولار أمريكى)

* مجالات الاستثمار : القطن ـ الكاكاو ـ البن ـ خام النحاس ـ منتجات الألبان ـ الماس ـ الفاكهة ـ الأسماك ـ الذهب ـ المخصبات ـ الحبوب ـ خام الحديد ـ الجوت ـ منتجات مصنعة ـ اللحوم ـ البترول ـ زيت النخيل ـ المطاط ـ الأرز ـ التوابل ـ السكر ـ الزنك ـ الطباق (الدخان) ـ الصوف .

الدولة المستثمرة		داخل الولايات المتحدة	داخل أمريكا الجنوبية	داخل أفريقيا	داخل آسيا	داخل أستراليا
بريطانيا	سنة ١٩٠٠	٢٢٥٠	١٣٥٠	١٩٠٠	١٧٠٠	١٦٠٠
	سنة ١٩١٤	٧٠٠٠	٣٧٠٠	٢٤٠٠	٣٥٠٠	٢٢٠٠
فرنسا	سنة ١٩٠٠	١٥٠	٥٠٠	٧٠٠	٥٠٠	—
	سنة ١٩١٤	٥٠٠	١٦٠٠	٩٠٠	١٢٠٠	١٠٠
ألمانيا	سنة ١٩٠٠	—	—	—	—	—
	سنة ١٩١٤	١١٥٠	٨٠٠	٥٠٠	٧٠٠	—
الولايات المتحدة	سنة ١٩٠٠	١٥٠	٢٥٠	—	—	—
	سنة ١٩١٤	٥٠٠	١٢٠٠	—	١٠٠	—

تسارع التغيير فى العصر الحديث

إذا كان القـرن التاسع عشر هو قـرن السيادة للقوى الأوروبيـة (ومعها الدولة العثمانية من عاصمتها إستانبول) على مسار السياسة العالمية ، فإن القـــرن العشرين ـ فى معظـمه ـ خضع لسيـــادة وتأثير قــوى جــديدة ، أو متجددة ، بدأت تظهر ملامحهـا مع أوائل هذا القرن فى شكل « قوىً عظمى » هى: الولايات المتحدة الأمريكية ، وروسيا ، واليابان ، ثم ظهرت بعد منتصف القرن قوىً أخرى ذات تأثير مباشر فى السياسات الدولية (كالصين).

وعلى الرغم من أن كــلاً من هذه القــوى العظمى سلك طريقـاً خـاصًّـا به مختلفاً عن غيره فى تطوره ونموه ، إلا أن هنـاك سمات مشتركة تجمع بينها .. فكل من هذه الدول الثلاث تتمتع « بالوفـرة » : فى الاتساع ، وفى السكان ، وفى الإنتـاج الصناعى . وقد حـرصت كل منهـا على التركيز الشـديد فى التصنيع والإنتاج بالجملة ، فتحولت من دولة زراعية تعتمـد اقتصادياتها أساساً على الزراعـة ، إلى مجتمعات مـدنية صناعيـة تعرضت لتغيرات سريعـة متواليـة اقتصادياً واجتماعياً ، أدت إلى تصادمـات بين النظام التقليدى القديم ، وبين التحـديث الضرورى فى الأفكار والمؤسســات والنظُم .وتعـرضت هذه الدول الثـــلاث أيضــا لفترات متراوحـــة بين العـزلة والانطواء على نفسهـــا ، وبين الانغماس فى السياسات والمشكلات العالمية .

* الولايات المتحدة الأمريكية :

تنفـرد الولايات المتحدة الأمـريكيـة بأنها الوحيدة فى التـاريخ الحديث فى النمـو المتطور سريعاً ـ بـلا نظير ـ خلال أجيـال قليلة ، فتتحـول بسلاســة وهدوء من مجتمعات زراعية منكمشـة محدودة الأثر ، إلى دولة ذات حضارة قـارية تملك زمـام أكبر وأقوى تمركـز اقتصـادى وحربـى فى العالم . ولقـد استفادت جغرافيًّا ، واقتصاديًّا ، واستراتيجيًّـا مما أضافته إلى مساحتها من



اتســـاع ، بشرائهـــا ولاية ألاسكا من روسيـــا (١٨٦١) بمبلغ ٧٢٠٠٠٠٠ دولارا ، ثم جزر هاواى (١٨٩٨) . وبعـد حروب طويلة متـوالية ضـد قبائل السكان الوطنيين (الذين يُطلق عليهم « الهنود الحمر » وأُبيد منهم ملايين)، واستمرت حتى عام ١٨٩٠ اتسع نطاق المدنية الصناعية ، حتى شمل الغرب الأمريكى كله ، وانحصرت بقايا تلك القبـائل الهندية فى محميات معزولة قليلة العدد .

وساعد النمو السكانى فى الإسراع بالنمو الاقتصادى والاجتماعى :

عام	
١٧٩٠	٣٩٢٩٠٠٠
١٨٣٠	١٢٨٦٦٠٠٠
١٨٨٠	٥٠١٥٥٠٠٠
١٩٠٠	٧٥٩٧٤٠٠٠
١٩٢٠	١٠٥٧١٠٠٠٠
١٩٥٠	١٥٠٦٩٧٠٠٠
١٩٩٠	٢٤٨٧٠٩٠٠٠

وأضـــافت الزيادة المستمـرة فى أعداد المهـاجـرين إليهـا قدرات جـديدة ، وقـوى بشرية منتجـــة متـلاحقـة . وابتـداء من عـــام ١٨٨١ زادت هجـرة الجماعـــات البشرية بكثـافـــة من جنوب وشرق أوروبا . وفى الوقت نفســه نشطت الهجرة الداخلية بأعـداد ضخمة من الشرق إلى الغرب ، ومن الجنوب إلى الشمال . ولما كـان معظم المهـاجـرين يفضل سكنى المدن ، فقـد ارتفعت سريعاً نسبة سكان المدن من ١٦ ٪ عام ١٨٦٠ إلى ٣٣٪ عام ١٩٠٠. وفى عام ١٩٢٠ كانت الغالبية من الشعب الأمريكى تقيم فى المدن .

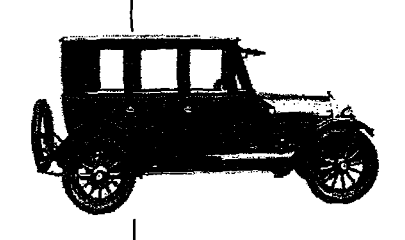


وربما كـان هذا التغير الاجتماعى السريع ـ التحـول من المجتمع الريفى الزراعى إلى المجتمـع المدنى الصناعى ـ هو أبرز معـالم القـــرن العشرين ، وأبعـدها أثراً ، سـواء فى أمـــريكا ، أم فى بلاد كثيرة غيرها . لكن الهجـــرات المتلاحقة المكثفة إلى الولايات المتحدة ـ مع الزيادة السكانية المتوالية ـ أمدتها

بأيد عـاملة قـوية ومستمـرة ، سـاعدت على اكتشـاف واستغـلال مصـادر الثـروات الطبيعيـة الهائلة التى تمتلكهـا تلك الـدولة ، بالإضـافـة إلى تطور وتسارع نظـم الاتصال والنقل والمواصلات ، وأسـاليب الصنـاعـة والتجارة والتسويق ، مع نمو متلاحق فى الاختراعـات والتطبيقات التكنولوجية .. حتى إنه فى عام ١٩١٠ ، بلغ إنتاج الولايات المتحـدة وحدها من الحديد والصلب ما يفوق إنتاج بريطانيـا وفرنسا وألمانيا والنمسا والمجـر معاً . وفى عام ١٩٢٠ أنتجت الولايات المتحدة واستهلكت من زيت البترول نحو ثلاثة أرباع الإنتاج العالمى كله . وظهـرت بها صناعات جـديدة ضخمة ومتطورة فى أوائل القرن العشرين ، من أبرزها صناعة السيارات .



* هنـرى فـــورد



سيارة أمريكية إنتاج ١٩٢٠

يعتبر هنرى فـورد رائد نظرية الإنتـاج بالجملة (فى صناعة السيـارات) التــــى غيرت مـن نظريـات الاقتصـاد داخل أمريكا ، وفى العالـم كلـه ، وغيرت بالتـــالى فى نظم المجتمع . أصبح « خط التجميـع » سمـة مميـزة فى المؤسسات الصناعية الكبرى .

وإزاء تكتل أصحـاب المصـانع ورءوس الأمـوال ذوى السيطرة والحظوة وتركيـز الثـروة ، وتكوينهـم للشركـات العمـلاقـة والاتحادات الاحتكارية ، تكوَّنت ونشطت نقـابـات العمال ، لكنهـا ظلت لفترة أضعف من مثيـلاتها فى دول أخـرى صناعيـة ، فوقفت فى مـواجهـة سيطرة وقـوة نفوذ واستغـلال أباطرة الصنـاعـــة ، إلا أنها تطورت واشتـــدت مع مـــرور السنين ، بعـــد مساجلات ومصادمات مع أصحاب المصانع ، ومالكى الثروة .

فلما صـارت الولايات المتحدة القـوة الاقتصـادية الأولى فى العالم ، كـان عليها أن تنظر نظرة جـديدة إلى الدول والشعوب والأحـداث ، وتدخل فى تيار

مشكلاتها ، بل وتلعب دوراً أكبر فى مجال السياسات الدولية .. فانضمت إلى قائمة القوى الإمبريالية ، وغَدت عاملا رئيسيًّا فى الديبلوماسية العالمية ، خاصة أثناء رئاسة تيودور روزفلت(١٩٠١ ـ ١٩٠٩) ورئاسة وودرو ويلسون (١٩١٣ ـ ١٩٢١)

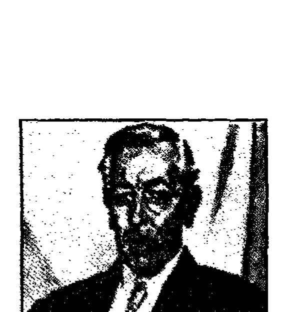


تيودور روزفلت

* روسيا :

على الرغم من أن روسيا كانت قوة كبيرة مؤثرة فى القرن التاسع عشر ، إلا أنها كانت أقل تطوراً ونمواً من الولايات المتحدة الأمريكية بمراحل .. فكان الشعور بالتخلف والنقص ذا تأثير على فكر وآراء الأدباء والسياسيين الروس ، فى مقابل الإحساس بالنضج والثقة بالنفس لدى الرأسماليين الأمريكيين .

وشهدت السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر نزاعاً فكرياً بين اتجاهين متغالبين داخل روسيا : بين المناصرين للسلافية ، الذين يروْن أن خلاص روسيا يكمن فى العودة إلى تقاليدها وموروثاتها الدينية الأرثوذكسية ،وبين « المتغربين » الذين يهاجمون الدين ، ويؤيدون كثيراً من الأفكار العملية الغربية المتحررة . وفى غيبة طبقة تجارية ثرية(يسميها البعض بورجوازية) ، لم ينجح التيار الليبرالى المتحرر فى أن يصير قوة فعالة وموجِّهة للسياسة داخل روسيا ، فظلت سلطة الحكم الفردى المسيطر ـ حتى سنة ١٩١٧ ـ هى المحدِّدة للمسار الاجتماعى والاقتصادى ، أى تلعب الدور نفسه الذى كانت تضطلع به الحكومات فى معظم الدول الكبرى آنذاك .



وودرو ويلسون

كانت المشكلات الزراعية هى الغالبة على أفكار السياسيين والاقتصاديين الروس . تفاقمت تلك المشكلات وتعقدت ، وساءت آثارها بعد أن أصدر «القيصر المحرِّر » قانون إلغاء الرق الزراعى (تسخير الأقنان أو عبيد الأرض فى الزراعة) بدون الإعداد السليم والملائم لما يترتب عليه . وزاد تعقد المشكلة بارتفاع تعداد السكان فى فترة زمنية قصيرة .. ففى المناطق الزراعية من وسيا الأوروبية ارتفع عدد السكان من ٥٠ مليوناً سنة ١٨٦٠ إلى ٨٢ مليوناً سنة ١٨٩٧ ولم يحل المشكلة تهجير ثلاثة ملايين فلاح ـ حتى سنة ١٩١٤ مناطق نائية فى سيبيريا لاستصلاحها . ولم تنجح مشروعات تشجيع الإقامة بالمناطق الجديدة فى إيقاف زحف الهجرة إلى المدن وترك الحقول . ولم يكن فى المدن مجالات صناعية أو حرفية تستوعب هذه



لنـين يخطب فى الجماهير

الهجرات النازحة المكثفة غير المدرَّبة . وبدأ تطبيق نُظم ومشروعات ، كان من المقـــدر لها أن تحقق نجــاحـــاً وتطوراً داخل المجتمع الروسى ـ الريفى والحضرى ـ إلا أنها لم تُستكمل ، وانهارت بسبب الحرب العالمية (١٩١٤)، وبسبب الثورة والحرب الأهلية .

حوَّلت الثـورة الروسية البولشفيـة الفلاحين (الأرقاء سابقـا) إلى ملاَّك للأرض، ولكن حتى سنة ١٩٢٠ كـان الإنتـــاج الزراعى أقل بكثير مما كـان عليـه فى أول القــرن. ثم أحدث برنامــج ستالين (بعــد عـام ١٩٢٩) لتكوين التجمعـات الزراعية الإجبـارية ، الذى صـاحبه قتل جماعى للمعـارضين أو المناهضين لسيـاسته [١]، أحـدث رِدة اقتصادية واجتماعيـة ، وأعـاد شبح الاختلال والفوضـى.. فظل الإنتاج الزراعـى الروسى متخلفاً بشدة عن إنتاج أوروبا والشمال الأمريكى ، فـاضطرت روسيا ـ التى كانت تصـدر الحبوب والغـلال قبل الثورة ـ إلى استيراد الحبـوب بكميات كبيرة سنة ١٩٧٠ ومـا بعدها من الولايات المتحدة ـ العدو اللدود ـ وكندا .

(١) مـلاحظة عـابرة لحين الحديث عن الثـورة الروسيـة : على الرغم من عنف سيـاسـة ستـالين الدمـوية وجبروته وسيطرته القابضـة إلا أن الحكايات عنه مبالغ فيهـا أحيانا ، وقـد تغفل ظروف بيئته وعصره والعوامل المحيطة به ، ثم إنه دفع روسيا دفعة قوية نحو التطوير ، وضخم اليهود سوءاته لعدائه لهم.

إلا أن النمو الصناعى الروسى كان حقاً متزايداً ومُلفتاً للنظر ، وهو الذى جعل منها « قوة عظمى » فى القرن العشرين . وكان أساس هذا التطور الصناعى السريع : التمويل الأجنبى ، خاصة من فرنسا ، مع التركيز الصارم على إنتاج المناجم والصناعات المعدنية ، وعلى إنشاء الوحدات الصناعية الضخمة ، وعلى تدخل الدولة بقوة وحزم فى التصنيع .



ستالين فى سنوات ماقبل الحرب العالمية الثانية .

وقد حقق الإنتاج الصناعى نجاحًا كبيراً ، بمعدل نمو سنوى مقداره ٨٪ فى الفترة بين عام ١٨٩٠ و ١٩٠٦ ، وكذلك بين عام ١٩٠٦ ـ ١٩١٣ . لكن سنوات الحرب العظمى والحرب الأهلية (بين ١٤ ـ ١٩٢١) كانت مأساوية بالنسبة للصناعة ، فاضطر الحكم الشيوعى إلى انتهاج سياسة رأسمالية محدودة فى الفترة بين ١٩٢١ ـ ١٩٢٩ للنهوض من الانهيار الاقتصادى ، فعاد الإنتاج الصناعى إلى مستواه قبل الحرب ، فى الوقت الذى واجه فيه الاقتصاد الغربى أزمته الاقتصادية الشهيرة عام ١٩٢٩ ،فأصبحت روسيا فى مقدمة الدول الصناعية ، واستمر النمو الاقتصادى بها إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية .

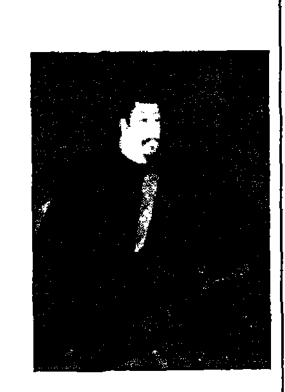
فى الفترة بين ١٩٥٠ ـ ١٩٨٠ ارتفع النمو الاقتصادى الروسى من $\frac{1}{3}$ إلى $\frac{2}{3}$ النمو الاقتصادى الأمريكى . ومع ذلك .. كان الإنتاج الصناعى



الاتحاد السوفيتى

الروسى أقل جـودة . ومنذ ١٩٦٠ اضطرت روسيا إلى استيراد التكنولوجيـا المتقدمة ، وإلى جذب رأس المال الأجنبى . وشهـد القرن العشرون ميلاد حكم النظام الشيوعـى(بثورة أكتوبر ١٩١٧) ، وطـابعها : « ديكتاتوريـة الطبقة العاملة ـ البروليتـاريا)، كما شهد أيضاً انهيـار هذا النظام بكامله فى ديسمبر ١٩٩١ ، كما سوف يأتى بالتفصيل .

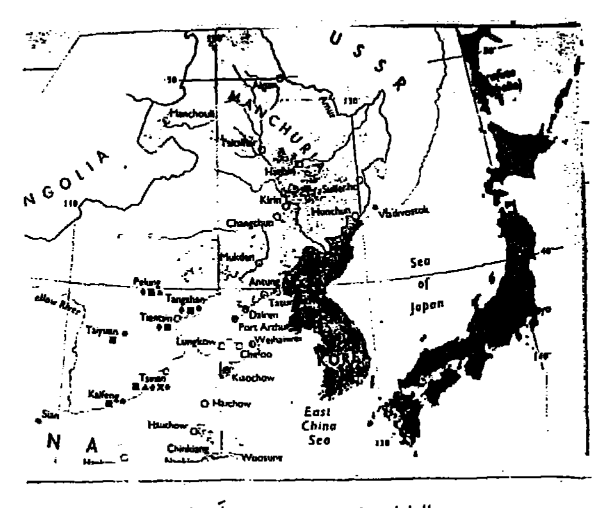
* اليابـان :



بدأت الإصلاحـات التشريعية والاقتصادية والاجتماعية فى اليـابان حول عام ١٨٨٥مع التركيز الشديد على التعليـم المجانى .. فلما جاء عام ١٩٠٥ ، كان ٩٠٪ من أطفـال اليابان ملتحقين بالمدارس ، وتضـاعفت أعداد المدارس الثانوية وكليات التعليم الفنى والصناعـى ، وتكوَّن لليابان جيش كبير حديث التنظيم ، وأسطول بحرى متطور .

كـان الإصـلاح الاقتصـادى هو ركيـزة التغيرات الكبيرة التـى شهـدها المجتمع اليـابانى فى مطلع القرن العشرين . وأشرفت الحكومـة بعزم وحـزم على برامج التصنيع ، خـاصـة فى مجال الصناعـات الاستراتيجيـة : كإنتـاج الأسلحة والذخيرة، وبناء السفن ، والنسيج . وتضـاعفت الصادرات ، وحدث انتعـاش اقتصـادى ضخم ،ابتداء مـن عام ١٨٩٥ . وقبيل الحرب العـالميـة الأولى ،زاد إنتاج المصنوعات اليابانية ، وإقبال الأسواق العالمية عليها .

ثم كانت قفزة صناعية اقتصادية فى الفترة بين ١٩١٥ ـ ١٩٢٠ . وفى عام



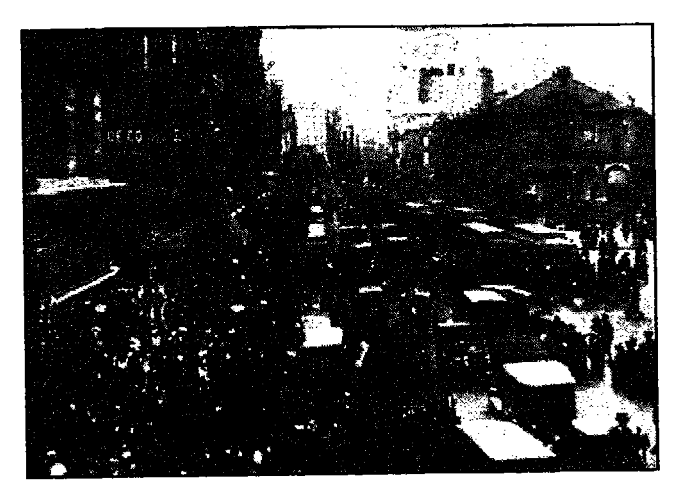
اليابان وشرق وجنوب شرق آسيا

١٩٣٦ تفوقت اليابان على بريطانيا ، إذ أصبحت المصدرة الأولى للمصنوعات القطنية فى العالم . وأدى التطور الصناعى الكبير إلى النمو الحضرى واتساع المدن. وبينما كان ١٢ من سكان اليابان يعيشون فى المدن سنة ١٨٩٥ ، زاد عددهم إلى نسبة ٤٥٪ سنة ١٩٣٤ .

إلا أن صناعات اليابان كانت تعتمد أساساً على الإنتاج الفردى والصناعات الصغيرة . وفى الفترة بين عامى ١٩٢٠ ـ١٩٣٠ لم يكن فى اليابان كلها سوى شركتين كبيرتين صناعيتين : ميتسوى Mitsui، وميتسوبيشى Mit-subishi، لكن نقطة الضعف الكبيرة فى الاقتصاد اليابانى كانت تكمن فى اعتمادها المتزايد على استيراد المواد الخام .. ففى سنة ١٩٣٠ كانت تستورد



من اليابان فى مطلع القرن ٢٠ .



نيويورك سنة ١٩١١



الصناعة فى روسيا أوائل القرن العشرين .

كل احتياجاتها من الفحم ، وكذلك ٨٥ ٪ لمواد الخام للحديد والصلب ،وأيضا ٧٩٪ من النفط ، وجانباً كبيراً من مواد الطعام . وقد دفعها هذا إلى انتهاج سياسة إمبريالية (توسعية مسيطرة) .. فكانت حرب اليابان ـ الصين (١٨٩٥) انتصرت فيها اليابان . ثم أحرزت انتصاراً آخر على روسيا فى غزوها لها عام ١٩٠٤ ، فانتزعت اعتراف روسيا بالسيادة اليابانية على ممر سخالين، وعلى كوريا التى ضمتها اليابان إليها عام ١٩١٠ .

بهؤلاء الثلاث : الولايات المتحدة الأمريكية ، وروسيا ، واليابان ، كقوىً كبرى جديدة أو متجددة ، بدأت تتغير معالم السياسة والاستراتيجية العالمية فى أوائل القرن العشرين ، فى الفترة التى سبقت نشوب الحرب العظمى عام ١٩١٤.

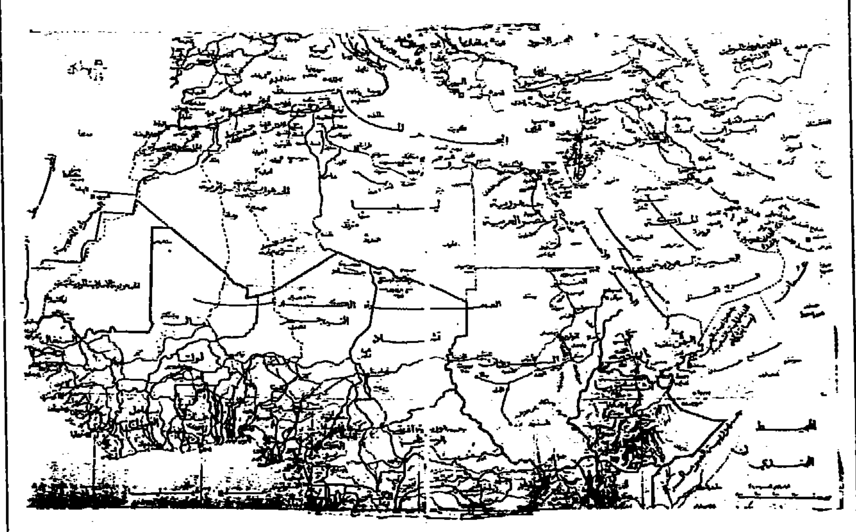
* الشرق الأوسط :

حرصت بريطانيا كل الحرص على أن تضع يدها على أكبر مساحة من منطقة الشرق الأوسط ، لأهميتها السياسية والاقتصادية والدولية (فهى قلب العالم) ، ولتأمين طرق مواصلاتها إلى الهند وشرق أفريقيا ، حيث مستعمراتها المتدفقة بالخيرات . نازعتها فى ذلك .. فرنسا (وأحياناً روسيا) ، فاقتسمتا المصالح فيما بينهما ومناطق النفوذ أو الاحتلال . وقديماً، كانت السيادة البحرية فى منطقة الشرق الأوسط للدولة العثمانية، حتى إن البحر المتوسط كان يُعرف بأنه بحيرة إسلامية، إلى أن هزم الأسبان الأسطول العثمانى فى موقعة ليبانتو (١٥٨٨) قبل أن تظهر قوة إنجلترا البحرية العالمية. ثم ظهر التفوق فى البحر المتوسط للأسطول الفرنسى والهولندى .

ولما احتلت إنجلترا جبل طارق (١٧٠٤) أقامت به قاعدة بحرية ، وتفجرت أطماعها التوسعية ؛ فاستولت على ميناء ماهون بجزيرة منورقة

(*) يطلق تعبير الشرق الأوسط على الدول شرقى البحر المتوسط (تركيا ، لبنان ، سوريا ، الأردن ، فلسطين ، مصر) ومعها المملكة العربية السعودية والجزيرة العربية (الكويت ، البحرين ، قطر ، الإمارات العربية المتحدة ، عمان ، اليمن) ، ويمتد هذا المصطلح أحياناً ، ليشمل السودان ، وليبيا ، والمغرب العربى ، (تونس ، الجزائر ، المغرب) وأيضا يغطى جزئيا مناطق منضمة للشرق الأقصى : أفغانستان ، إيران ، باكستان ، الهند . ومصطلح «الشرق الأدنى» تدخل فيه بعض هذه الدول شرقى البحر المتوسط مع دول البلقان والدول المطلة على البحر الأسود .

(١٧٠٨)، وأقامت به قاعدة بحرية أخرى ، فأصبحت لها السيادة على القسم الغربى من المتوسط، والقدرة السيادية على سواحل إسبانيا وفرنسا وإيطاليا من الجنوب . لكن موقعة أبو قير البحرية (١٧٩٨) منحتْ إنجلترا مفتاح السيطرة النهائية على الطرق البحرية المؤدية إلى الهند وآسيا وشرق أفريقيا، والقدرة على تهديد المصالح الفرنسية فى الشام (سوريا/لبنان)، وكذلك القدرة على التصدى لأطماع القيصر الروسى فى الوصول إلى البحار الدفيئة . وعندئذ ارتكزت سياستها واستراتيجيتها الخارجية على تدعيم سيادتها وسيطرتها الكاملة على المنطقة، وإرهاب من تحدثه نفسه بالاقتراب منها، أو المساس بخيراتها .



وكانت تركيا (الدولة العثمانية) فى حالة متدهورة من الهزال الشديد، والفساد الأشد،أسلماها إلى الاحتضار . لقد شاخت الخلافة العثمانية وأناخت. وإذ فقدت مقومات القوة والثبات كَبَتْ وهَوَت. واستغرق سقوطها القرن التاسع عشر بأكمله، وبعضاً من العشرين .فالإمبراطوريات الكبرى لا تسقط فجأة بين عشية وضحاها، وإنما تركع، ثم تزحف، وقد تقاوم وهى تنزف، فإذا ما تلقَّت ضربة قاضية، وإن كانت واهية، لفظت أنفاسها قائلة : «ذَهَب عنى سُلطانيهْ » .

فى فترة احتضار الدولة « السَّنية » العثمانية، وقفت بريطانيا متربصة مترصدة. وأزعجتها كثيراً تطلعات محمد على باشا والى مصر فى التوسع، ومضاعفة قوَّته العسكرية وأسطوله البحرى ، وبهما هدد تركيا ذاتها،



الأمير سعيد بن سلطان مؤسس الدعائم القوية والأسطول البحرى لسلطانة عُمان .

فأسرعت بريطانيا تقف على باب غرفة « الرجل المريض » الراقد على فراش الموت، لا رعاية له وحماية، وإنما لكى تستأثر هى بالميراث، فأخذت تراقب أنفاسه ، وتحاصر حراسه ، إلى أن يحين القدر المحتوم فى وقته المعلوم . وهكذا ، حرصت سياستها بقوة على انتهاج تلك الخطة، مهما كابدت عنتاً وشدة .

وفى منطقة الخليج العربى، كانت بريطانيا أكثر اطمئناناً على مركزها، بعد أن عقدت معاهدات مع أمراء المنطقة، وراح نفوذها يزداد مع الأيام ويقْوى، بلا حرج أوخشية من استانبول .. فالدولة « العلية » لم تكن كبيرة الاهتمام بتلك المنطقة، إلا من حيث المظهر السيادى، واتساع مظلة السلطنة. وفى المقابل، لم تكن إدارات تلك المنطقة تكترث بسلطان الدولة،إلا من حيث الشكل: فالولاء الدينى مكفول لخليفة المسلمين .

كانت الهند وجنوب آسيا أقرب إلى عُمان وأقوى فى العلاقات من استانبول. فى عام ١٨٩١ قدت بريطانيا معاهدة مع الأمير أحمد بن سعيد والى سلطنة مسقط « تعهد فيها بالنيابة عن نفسه، وعن خلفائه بألاَّ يتنازلوا عن أى جزء من أراضيهم، أويؤجروها، أويرهنوها، أويسمحوا باحتلالها، لأى دولة أخرى غير بريطانيا » . وادَّعَتْ بريطانيا أن عُمان محمية بريطانية، إلا أن محكمة العدل الدولية قضت فى عام ١٩٠٥ بأن عمان دولة مستقلة .

وفى عام ١٨٩٢ عقدت بريطانيا معاهدة مع كل شيخ من شيوخ الإمارات الساحلية بالخليج العربى. وتعهدت بريطانيا بدفع معونة مالية، مقابل « ألاَّ يعقد معاهدة مع دولة أخرى غير بريطانيا أو يتصل بسواها، وألا يأذن لوكيل أية دولة أجنبية بالإقامة فى أراضيه، أويبيعه، أويؤْجره، أويَهَبه، أو يأذن لدولة أجنبية غير بريطانيا باحتلاله » .

وكانت قطر جزءاً من إمارة البحرين، وترتبط مع بريطانيا بعلاقات وطيدة. فى عام ١٩١٣ قًعت بريطانيا معاهدة مع تركيا « لسحب حاميتها من قطر، والتخلى عن مطالبها فى هذه الإمارة » . فلما ظهر البترول فى أراضيها، زاد حرص بريطانيا على تثبيت نفوذها وأقدامها فى تلك الإمارة .

كانت جُزر البحرين مطمعًا لفارس (إيران)، وتَزْعُم مِلكيتها لها .. فعقدت بريطانيا عام ١٨٩٢معاهدة مع شيخها، تماثل ما سبق من معاهدات مع شيوخ الإمارات الأخرى .



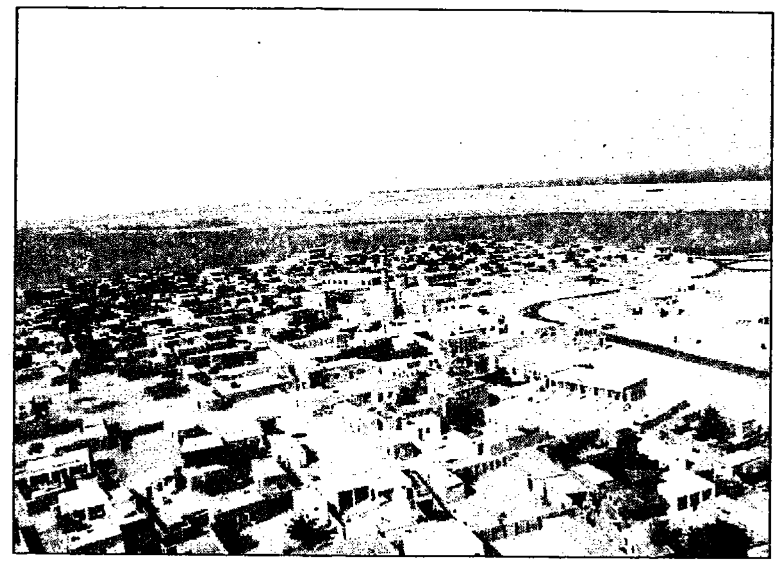
الملك عبد العزيز
آل سعود

أما الأحساء (التى هى الآن جزء من المملكة العربية السعودية)، فكانت تابعة لتركيا، وتخضع لنفوذها، إلى أن أغار عليها ـ ١٩١٣ـ عبد العزيز بن سعود، وطرد الحامية التركية بها. ولما كانت تركيا آنذاك مشغولة بحروبها مع إيطاليا ودول البلقان، فإنها آثرت الخضوع للأمر الواقع، وأقرت ابن سعود والياً على نجد والأحساء. وفى عام ١٩١٥ عقد الإنجليز معاهدة معه «اعترفوا فيها باستقلاله فى نجد وملحقاتها، مقابل امتناعه عن الارتباط بعلاقات مع أى دولة أخرى غير بريطانيا، وعلى أن يُخبر بريطانيا عند محاولة أى دولة للتدخل فى شئونه » .

والكويت .. كانت أفقر إمارات الخليج فى مواردها. وكان أهم ما بها ـ قبل اكتشاف البترول ـ ميناءها الطبيعى الذى يَفْضل الموانىء الأخرى بالخليج، وهو مدخل إلى العراق، وإلى الجزيرة العربية، وصالح للملاحة طوال العام. فلما ظهرت مطامع روسيا فى المنطقة ، والسيطرة على هذا الميناء، وكذلك مطامع الألمان الذين أرادوا أن يجعلوه نهاية خط بغداد للسكة الحديد (الذى تولوا تنفيذه)، أسرع الإنجليز بعقد معاهدة مع أمير مُنْشَقّ على الأسرة الحاكمة ـ ١٨٩٩ ـ اعترفوا فيها بحقه بالإمارة، واستقلالها، على أن يلتزم بما التزمت به الإمارات الأخرى. وفى عام ١٩٠١ وافقت تركيا على المركز الذى اكتسبه الإنجليز فى الكويت، مقابل التعهد بعدم احتلالها، أو إخضاعها لهم. وفى اتفاقية عام ١٩١٣ التى عُقدت بين تركيا وبريطانيا ، اعترف الإنجليز بأن «الكويت تابعة لتركيا ، فى مقابل اعتراف تركيا بشرعية الاتفاقات المعقودة بينهم وبين أمير الكويت ». وفى عام ١٩١٤قاموا بها وكالة سياسية .

أما العراق ، فكان ولاية تركية كبيرة. يتميز بموقعه الجغرافى، وبثرواته من الأراضى الخصبة، والمياه الوفيرة .لكنه كان من أقل الولايات العثمانية خضوعاً للسلطان، لبُعده عن استانبول، وانعزاله بنطاقات من الجبال وبمساحات واسعة من الصحراء .. فكان اتصاله بإمارات الخليج العربى، وبخطوط تجارته النشطة أقوى وأوثق .. فكان من الميسور على الإنجليز زيادة نفوذهم فى العراق، خاصة أن أحواله الاقتصادية كانت متخلخلة

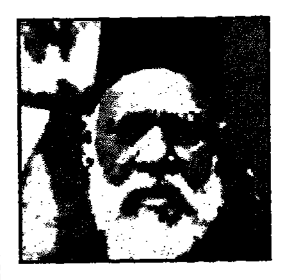




* صور من إمارات الخليج العربى فى مطلع القرن العشرين

متخلفة، وخطوط مواصلاته الداخلية متعثرة سيئة ، مع فقر غالب على سكانه. وفوق ذلك .. كان يئن من الفتن والمنازعات التى كانت تشجعها بريطانيا فى الخفاء، لتمكن لنفسها فيه، وتبسط نفوذها عليه .

من أهم الأحداث والوقائع الممهدة للقرن العشرين



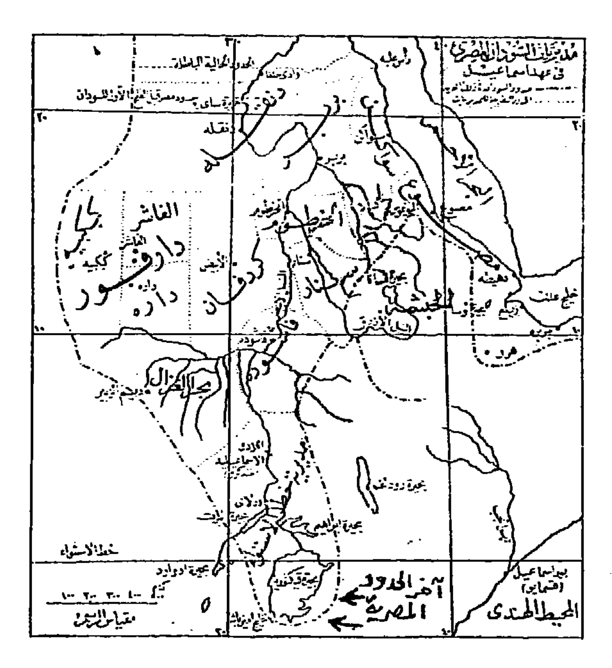
أحمد عرابى

السنة	الأحداث والوقائع
١٨٨٠	حرب البوير (جنوب أفريقيا) الأولى . ـ صدور أول ميزانية فى عهد الخديوى توفيق (فى مصر) : الايرادات : ٨٥٦١٦٢٢ ج المصروفات : ٣٦٤١٥٤٤ ج ـ يضاف إليها : ٦٨١٤٨٦ ج مقدار الجزية السنوية لحكومة الأستانة (تركيا) ـ ويضاف إليها أيضا : ٤٢٣٨٥٩٢ ج سداد أقساط من الديْن العام أى ديون أوروبا منذ عهد إسماعيل (أى أن قسط الدين المدفوع أكبر من مصروفات الدولة كلها !) .
١٨٨١	بداية ظهور الثورة المهدية فى السودان المصرى ضد مظالم الحكم . ـ بارودى باشا وزير الجهادية (الحربية) فى مصر يقيم حفلا بمناسبة صدور مرسوم بزيادة رواتب الضباط والجنود بالجيش فأصبحت كالآتى : ٨٠٠٠ قرش لرتبة فريق — ٦٥٠٠ قرش لرتبة لواء ٥٠٠٠ قرش لرتبة أمير آلاى — ٣٥٠٠ قرش لرتبة قائمقام ٢٥٠٠ قرش لرتبة بكباشى — ١٥٠٠ قرش لرتبة صاغ ٩٥٠ قرش لرتبة يوزباشى — ٧٥٠ قرش لرتبة ملازم أول ٦٠٠ قرش لرتبة ملازم ثان — ٢٥٠ قرش لرتبة صول أول ٨٠ قرش لرتبة باشجاويش — ٦٥ قرش لرتبة بلوك أمين ٥٥ قرش لرتبة شاويش — ٤٠ قرش لرتبة أونباشى ٣٠ قرش للنفر ـ إنشاء المحاكم الأهلية فى مصر (ابتدائية وجزئية واستئناف ومحكمة نقض و إبرام ، و إنشاء النيابة العمومية ـ ١٧ نوفمبر) . ـ افتتاح مجلس النواب المصرى الجديد (وزارة شريف باشا ـ ٢٦ ديسمبر) ـ وفاة الروائى الروسى دوستويفسكى .
١٨٨٢	صدور الإحصاء عن تعداد المصريين (٢ مايو) وفيه أن سكان مصر (عدا السودان) ٦٨٠٦٣٨١ نسمة . ـ ضرب الإسكندرية بقنابل الأسطول الإنجليزى (١١ يوليو). ـ معركة التل الكبير الحاسمة فى الثورة العرابية ، ثم سفر عرابى إلى العاصمة (القاهرة) أثناء المعركة واعترافه بالهزيمة (١٣ سبتمبر) ـ بريطانيا تعلن احتلال مصر . ـ الخديوى توفيق يصدر مرسوما بإلغاء الجيش المصرى (١٩ سبتمبر) ـ مرسوم بتجريد جميع الضباط الذين اشتركوا فى الثورة العرابية (من



فاجنر

	رتبة ملازم إلى يوزباشى) من رتبهم ، وحرمانهم من المعاش (٢٤ أكتوبر) .
١٨٨٣	وفاة الموسيقار فاجنر. ـ ثورة بركان كراكاتوا (بالمحيط الهادى) . ـ مرسوم من خديوى مصر توفيق بتعيين فالنتين بيكر مفتشا عاما للبوليس وقومندانا عامًا (٩ يناير) . ـ مرسوم بتعيين السير إفلين وود (أحد قواد الحملة الإنجليزية) . سردارا (قائدا) عاما للجيش المصرى الجديد برتبة فريق ، وتخفيض عدد الجيش من ١٦ ألف إلى ٦ آلاف (١٦ يناير) . ـ صدور الميزانية المصرية لتلك السنة ، وبها عجز قدره / ١٦٣٥٠٠٠ ج ـ ومن بين المصروفات ٤٢٥٠٠٠ ج نفقات مصر على جيش الاحتلال . ـ ظهور وباء الكوليرا فى مصر ، قادمًا من الهند عن طريق عامل بباخرة فانتشر من دمياط إلى الصعيد ،وبلغت ضحاياه / ٦٠ ألفًا من يونيو إلى ديسمبر .
١٨٨٤	استقالة شريف باشا من رئاسة الوزارة المصرية ، احتجاجًا على طلب الإنجليز فصل الحكم فى السودان عن مصر ، وسحب الجيش المصرى من السودان فكان أول وزير مصرى فى عهد الاحتلال يستقيل احتجاجًا على سياسة الإنجليز ، وتدخلهم السافر فى شئون مصر (٧ يناير) . ـ مقتل البطل المصرى الضابط محمد توفيق ، دفاعًا عن مدينة (سنكات) بالسودان ، وعن كرامة جيش مصر ، واستشهد معه كل رجال الحامية المصرية (٨ فبراير) ، ولم يأبه أحد بمقتله ومن معه ، أو تقدير بطولتهم واقتراح أحد الخيرين الاكتتاب لمساعدة عائلته ، فلم يلبِّ النداء أحد. ـ ألمانيا تستولى على جنوب غرب أفريقيا . ـ اكتشاف الذهب بوفرة فى الترنسفال (جنوب أفريقيا) .
١٨٨٥	سقوط الخرطوم فى أيدى الدراويش (أتباع المهدى) ومقتل غوردون باشا الحاكم العام (البريطانى) وقتل ٢٥ ألفاً من الأهالى ، وثمانية آلاف من العسكريين (٢٦ يناير) . ـ بلجيكا تستولى على الكونغو . ـ تكوين حزب المؤتمر الوطنى فى الهند . ـ وفاة المهدى (بالسودان) بحمى الالتهاب السحائى الشوكى (٢٢ يونيو).
١٨٨٦	بريطانيا تقتسم شرق أفريقيا مع ألمانيا . ـ إنشاء مدينة جوها نسبرج (جنوب أفريقيا) ـ إقامة تمثال الحرية فى مدخل مدينة نيويورك (الولايات المتحدة) .



حدود مصر بالسودان سنة ١٨٨٥

١٨٨٧	فرنسا تعلن قيام اتحاد الهند الصينية .
١٨٨٩	المهندس إيفل يتم إقامة برجه الشهير فى باريس . ـ إقامة أول ناطحة سحاب فى أمريكا والعالم (فى شيكاغو) .
١٨٩٠	استقالة بسمارك (موحد ألمانيا) .
١٨٩١	معاهدة إنجلترا مع سلطان مسقط (عُمان) تعطى امتيازات لبريطانيا فى المنطقة. ـ وفاة الرسام فان جوخ . ـ بداية إنشاء خط سكة حديد سيبيريا .
١٨٩٢	وفاة الخديوى توفيق وفى اليوم التالى تولى الحكم ابنه عباس حلمى الثانى (٧ يناير) . ـ معاهدة بريطانيا مع أمراء ساحل الخليج العربى ومع أمير البحرين .
١٨٩٣	ـ وفاة الموسيقى الروسى تشايكوفسكى . ـ بداية الحرب اليابانية ـ الصينية (حتى ١٨٩٥) .
١٨٩٦	هزيمة إيطاليا فى الحبشة (إثيوبيا) . ـ بداية جوائز نوبل .
١٨٩٧	وفاة الموسيقى برامز



الرسام :فان جوخ

١٨٩٨	صدور مرسوم بتأسيس البنك الأهلى المصرى ، و إعطائه حق إصدار أوراق النقد . - الحرب الأمريكية الإسبانية . - الولايات المتحدة تضم إليها هاواى .
١٨٩٩	معاهدة بين الإنجليز وأمير الكويت ، تعترف فيها بريطانيا باستقلال الكويت . - حرب البوير الثانية (جنوب أفريقيا) . - إنشاء محكمة التحكيم الدولية الدائمة فى لاهاى .
١٩٠٠	صدور العدد الأول من جريدة « اللواء » صحيفة الزعيم المصرى مصطفى كامل . - بريطانيا وألمانيا يشرعان فى سباق التسلح .

* * *

*** فى أواخر القرن حصل ثلاثة من مصر (لأول مرة فى العالم العربى) على ثلاث جوائز نوبل وهم :**

- أنور السادات (للسلام - ١٩٧٨) .

- نجيب محفوظ (فى الأدب - ١٩٨٨).

- د . أحمد زويل (فى الكيمياء ١٩٩٩) .



برنارنوبل



* الرئيس أنور السادات



* نجيب محفوظ



د . أحمد زويل

مظاهر وسمات العصر
الذى وُلد فيه القرن العشرون

** لما كان الزمن حلقات متصلة متتابعة،
والتاريخ وقائع متشابكة متماوجة ...
فإن ميلاد القرن العشرين هو امتداد لما
سبقه، أو تطوير لما كان قبْله، أو
إضافة إلى ما ورثه عن سلفه ...
وتلك نظرة من قريب على جوانب من
أبرز سمات العصر الذى أفضَى إلى مولده .



* الرسام دولاكروا : الحرية تقود الشعوب .



* الملوك يرقصون فرحا باتفاقية السلام

الإمبراطوريات الكبرى

نقصد بها التى كان لها تأثير واضح على سياسات الأمم وحياة الشعوب، وعلى التغييرات والتحولات الكبرى فى مسار الوقائع والأحداث قبيل شروق شمس القرن العشرين .

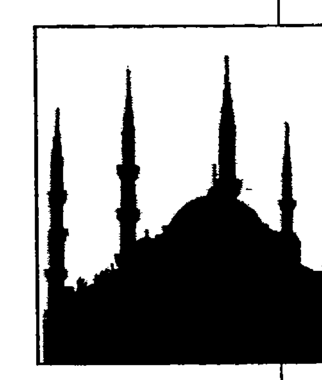
كانت الاتفاقات التى صاغها ملوك وأباطرة أوروبا فى مؤتمر فيينا عام ١٨١٥، وبضمان سيادة أربع قوىً كبرى أوروبية، هى: النمسا / بريطانيا / بروسيا / روسيا،(ثم ألحقت بها فرنسا) تهدف إلى إقرار السلام الدائم، وإلى عدم اعتداء إحدى هذه الدول على غيرها، أو على ما نالت من أراضٍ بعد تقسيم غنائم الحروب. وساد الظن بأن هذا التوازن بين القوى العظمى سوف يحقق ويصون تلك الأهداف زمناً طويلاً .



* أباطرة وملوك أوروبا فى مؤتمر فيينا للسلام يقتسمون العالم .

لكن سرعان ما اندلعت الانتفاضات الثورية التحررية داخل تلك الدول، وأحرزت نجاحاً فى فرنسا، وبلجيكا، وسويسرا، دون تدخل من جانب دول الاتفاقية .. إذ لم يكن من مصلحتها ذلك .. إلا أنها جميعاً اتجهت نحو الإمبراطورية الشرقية المتداعية«العثمانية » وكلٌ يطمع فى استلاب أقصى ما يستطيع منها (رغم أنها كانت لا تزال تحتفظ ببعض قوتها وهيبتها)، وأخذوا يثيرون القلاقل والفتن داخل ولاياتها الأوروبية .

شهد القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين النزاعات الدائمة ـ التى



* مسجد سليمان يشرف على العاصمة إستانبول.



* جنود أتراك فى البلقان.

تحولت إلى صراعات دامية ـ بين الدولة العثمانية من جانب، وبين روسيا أو النمسا ـ المجر من جانب آخر، بسبب مناطق أو ولايات خاضعة لإستانبول، نمت فيها روح الوطنية، ورغبة الكفاح من أجل الاستقلال، ووجدت تعضيداً ودفعاً من تلك الإمبراطوريتين، ومن دول أخرى أوروبية .. إلا أن بريطانيا وفرنسا كانتا بالمرصاد للطامعين فى مكاسب من الدولة العثمانية، فأضمرتا معاً اقتسام الغنيمة وحدهما . لذلك .. وقفتا بصلابة إلى جانب الخليفة العثمانى، ودخلتا معه حرب القرم التى شنها القيصر الروسى نيقولا الأول، الطامع فى انتزاع أملاك من الدولة العثمانية فى البلقان، لكنه مات أثناء الحرب، وعقد خَلَفه ألكسندر الأول معاهدة سلام، بعد هزيمة روسيا فى القرم، تتضمن الاعتراف بوحدة أراضى « الإمبراطورية » العثمانية.



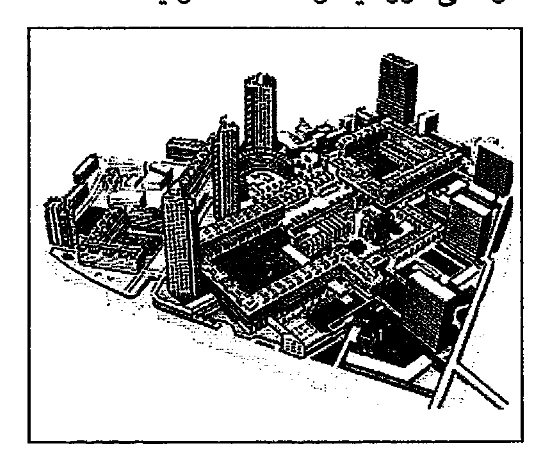
* عضد مؤتمر برلين توزيع بعض ولايات الدولة العثمانية

ولم يمنع ذلك من استقلال الصرب، ومونتنجرو ، ورومانيا، وبلغاريا، ثم تساليا، واليونان، إلى أن بدأت الدولة العثمانية فى الاحتضار بعد طول انحدار مع اشتعال نيران الحرب العالمية الأولى (١٩١٤) .

التصنيــع وآثــــاره

مع نمو وتطور الانطلاقة الأوروبية الكبرى فى التصنيع (التى عُرفت بالثورة الصناعية)، ونزوح أعداد كبيرة من سكان الريف إلى المدن، كان لابد من البحث عن أساليب وبدائل لتوفير الاحتياجات المناسبة من المحاصيل الزراعية ومواد الطعام .

وقد أسهمت العلوم والتكنولوجيا فى توفير ذلك : بابتكارات جديدة، وآلات زراعية حديثة، واختيار أنواع جيدة من البذور والحبوب للزراعة، فزاد إنتاج المحاصيل وتنوع. وابتُكرت كذلك وسائل جديدة لتخزين المحاصيل، وحفظ مواد الغذاء، وتحسين تربية الماشية والأغنام وسلالاتها، وإعادة توزيع الأراضى الزراعية، ونشأت التعاونيات .



مشروع تجديد حى باربيكان السكنى بلندن



* آلات زراعية جديدة
أوائل القرن ٢٠

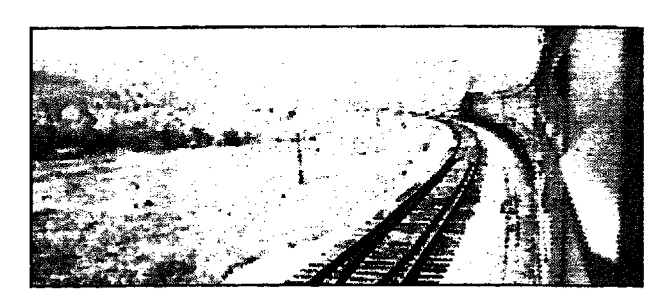
واتسعت المدن،وأعيد تخطيطها، أو أقيمت بها أحياء جديدة بنظم وأشكال معمارية حديثة متطورة، متسعة الشـوارع والطرق، فسيحة الحدائق العامة ومراكز الخدمات .

وصدرت قـوانين بإصلاحات اجتماعيـة، بعد نضال متـواصل شديد من فئات الشعب العـاملة والمتـوسطـة والفقيرة ، شـارك فيهـا أدباء، وفنانون، ومفكرون، وسيـاسيـون، وكتــاب، ودينيـون . وحظى التعليم فى الفترة بين ١٨٨٠ ـ ١٩١٤ بقسط كبير من الرعاية والإنفاق، وتحسنت الصحة العامة .

وفى أواخـر القـرن ١٩ ، أوائل العشرين، كان السبـاق بين الدول على مـد



* الاحتفال بلقاء خطى سكة حديد الباسفيك والاتحاد بأمريكا



* قطار روسى عبر سيبريا

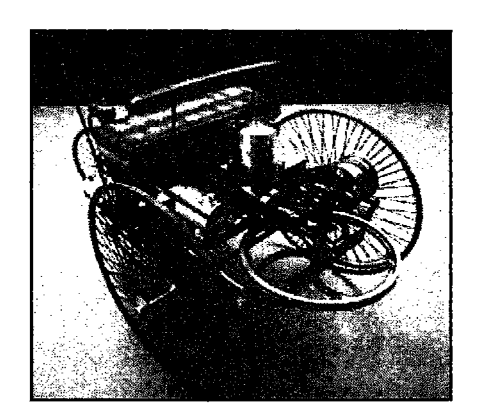


* كـارل بنـز

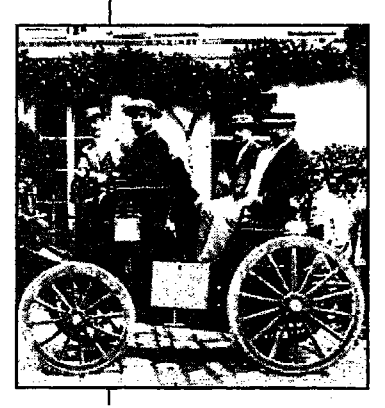
خطوط السكك الحديدية، كأفضل وأسرع وسيلة لربط المدن بعضها ببعض، وبالموانىء، والمناطق النائية،فتيسَّر الانتقال والسفر، وامتد التعمير إلى مناطق مُهملة مهجورة، فظهرت مدن وقرى على امتداد تلك الخطوط،وانتعشت أسواق التجارة محلياً وعالمياً، ونشطت الهجرة، فدخل الإنسان مرحلة أُطلق عليها : عصر السرعة .

ثم ظهرت السيارة .. أو « المركبة التى جعلت العالم يمشى على الهواء » ، كما قال « دنلوب » مبتكر الإطارات !.

كانت البداية العملية لاستخدام تكنولوجيا السيارات (أو وضْع طريقة الاحتراق الداخلى على عجلات تجرى على الطرق) مع « كارل بنز » ، و«جوتليب ديملر » فى ألمانيا . من قبلهما كان استخدام البخار فى تحريك



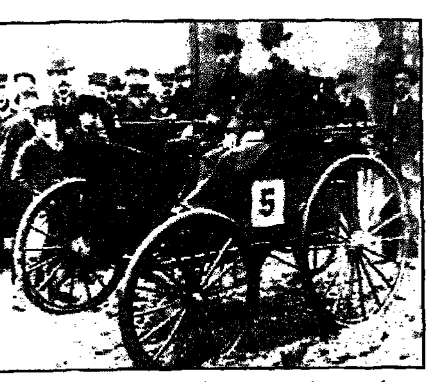
* سيارة طراز بنز عام ١٨٨٥ وهى أول سيارة حقيقية بمحرك غازى وعجلات



* أول سيارة سباق بيجو عام ١٨٩٤



* إطارات جديدة إعلان عام ١٨٩٥





* أول سباق سيارات فى أمريكا ـ نوفمبر ١٨٩٥

الآلات ودفعها إلى الأمام شيئاً معروفاً ، ومطبقاً فى عدة دول : فى فرنسا، ثم فى إنجلترا ، ثم فى أمريكا، وغيرها .

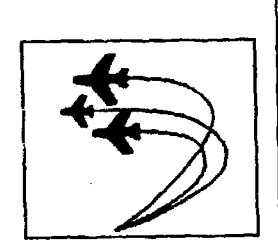
ثم كانت الآلات الزراعية ذات المحركات البخارية الضخمة هى التى أوحت إلى « هنرى فورد » ـ الأمريكى ـ بفكرة المحركات والتصميمات الجديدة، فكان رائداً فى هذا المجال، ومطوراً مبتكراً. وعندما وصلت إليه فى عام ١٨٩٥ ـ فى ميتشجان ـ سيارة ألمانية من صنع « بنز » انتقدها بشدة، لثقلها، وصعوبة تشغيلها. وفى الوقت نفسه كان الفرنسيون يسارعون بالتقاط المبادرة : « بانار بيجو » ، و « ديون بوتون ». ثم كان شق الطرق الفسيحة المريحة، وابتكار سباق السيارات لجذب أنظار وأموال الناس، وإغرائهم بشراء السيارات .

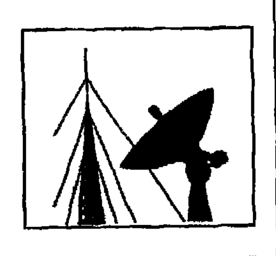
النقل والمواصلات

منذ أن خرج الإنسان القديم من الكهوف ، وسار على مهل عبْر السهول والوديان، وهو يحلم بابتكار وتنويع وسائل تُريحه من المشى على قدميه، وتنقله بأدواته وأحماله إلى أبعد مدى يريد .. فاستأنس الحيوان، واستخدمه فى حمله ونقل أمتعته وبضائعه وآلاته .

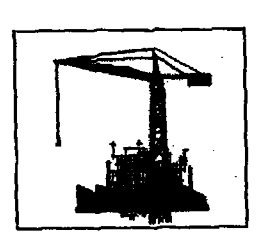
ثم كان اختراعاً ضخماً ـ بعد آلاف السنين ـ أن يصنع العجلة، ويثبتها فى صندوق لتكون « عربة » تحمله وما معه إلى مسافة أبعد، وبجهد أقل، وفى

زمن ـ نسبيًا ـ أسرع.. فلما شق الطرق ومهَّدها، أضحى السير فوقها أيسر وأقرب. ثم جاب الأنهار والبحار طافياً فوق الماء، باختراع ألواح الأخشاب أو جذوع الأشجار، بضمها بعضها إلى بعض، ثم صنع القوارب والمراكب، فالسفن، وتنقل بين القارات، فأنشأ الموانىء، وشيَّد المدن،فلما اتسع نشاطه، وتعاظمت تجاراته، وتضخمت أمواله، تعلم كيف يعتدى ويستولى على المدن والموانىء والأراضى، ثم يضم إليه الدول والشعوب. ومن أجل ذلك.. طوَّر فى أسلحته وابتكر.. ثم نظر إلى السماء، وتأمل الطير سابحات فى الفضاء، فسأل نفسه : لماذا لا يطير ؟ وصار حلماً يراوده منذ ألفى سنة.

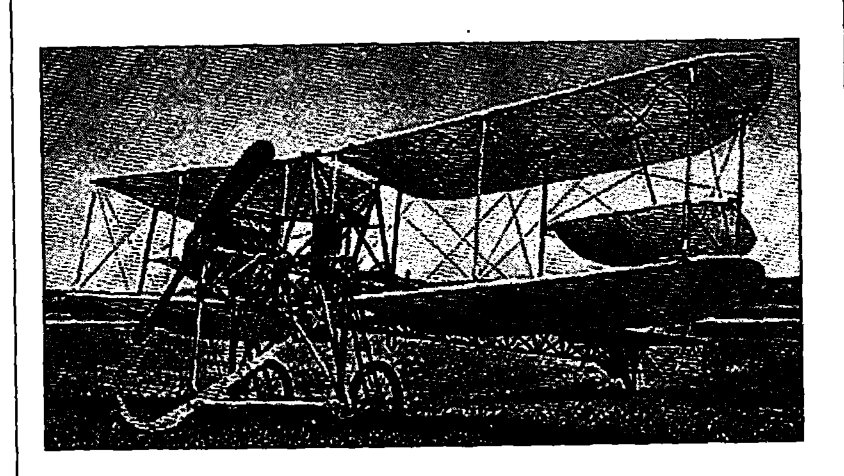


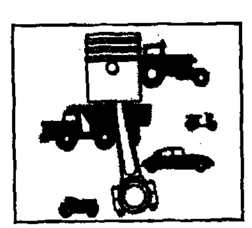


وقبيل نهاية القرن التاسع عشر، قَدَّمَ العلم للمجتمع محرك الاحتراق الداخلى، الذى استُخدم فى السيارات والسفن، ووضع فى يد الإنسان « طاقة » أو قدرة تتيح له أن يحقق حلمه القديم : التحليق كالطير فى الجو. وعليه الآن أن يفكر فى ابتكار مركبة ملائمة للارتفاع فى الهواء، والتجول فيه، ثم العودة بسلام إلى الأرض. وبالفعل فكر جيداً فى هذا الأمر، وتدبر علماء وباحثون مبتكرون فى دول مختلفة من العالم، خاصة فى أمريكا، وبريطانيا، وفرنسا، وألمانيا.



ونجح أخَوان أمريكيان : « ويلبور،وأورفيل رايت » فى صُنع « آلة » ذهبا بها ـ سراً ـ إلى مكان منعزل فى ولاية كارولينا الشمالية فى يوم من شهر









الأخوان الطياران:
« رايت »

ديسمبر ١٩٠٣، وصعدا بها الجو لمدة إحدى عشرة ثانية ـ فقط ـ ثم هبطا إلى الأرض، فكان ذلك نجاحاً حقق لأول مرة فى التاريخ حلماً ظل كامناً فى النفوس لألفى عام أو يزيد (باستثناء استخدام البالونات الضخمة التى ترتفع فى الهواء بدفع الغاز الساخن داخلها، وكانت معروفة فى القرن الثامن عشر) ، لكن الغريب حقاً، أن أحداً من الناس لم يشهد هذا الحدث التاريخى المدهش الذى حققه الأخوان رايت، حتى إن الكثيرين الذين سمعوا به بعد ذلك لم يصدقوه. والقلائل الذين صدَّقوا،لم يدركوا يومها مدى الآثار التى ستنجم عنه فى المستقبل.. فلما نجح الشاب الفرنسى « بليريو » بعدهما بقليل (٢٥ يوليو ١٩٠٩) فى عبور بحر المانش طائراً، آمن المنكر، وصدَّق المكذِّب، وانتبه الغافل، واستعد العالم كله للتعامل مع الفضاء- سلماً وحرباً ـ والتكيف مع «أداة» جديدة مبهرة من أنفع وأخطر أدوات العصر الحديث ..

فن العمارة

أقبل القرن العشرون فى زحام كثيف من معالم النمو الصناعى والاقتصادى والسكانى والعمرانى . وبالتالى كانت نهضة معمارية زاحفة ، تُواكب متغيرات العصر وقدراته ومتطلباته .. فأقيمت فى هذا القرن من المنشآت أكثر مما أقيم فى أى قرن مضى.

وابتُكرت أنماط معمارية حديثة ،وتدافعت النظريات البنائية الذكية المتطورة. كما استُحدثت مواد جديدة فى التشييد والبناء ، وبزغ نجم «المهندس » المتخصص ، من خلال المصمِّم المعمارى ، والإنشائى المنفِّذ .

ولم تغفل الطرز المعمارية الحديثة عن أن تحافظ على التراث المعمارى

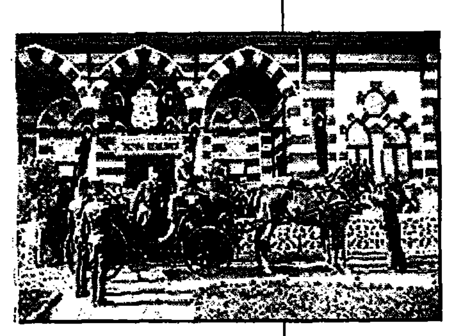
القديم : بيزنطى،أو إغريقى ، أو رومانى ، أو إسلامى ، أو هندى ، أو قوطى ، أو طراز عصر النهضة الأوروبى والباروكى . وأدخَلَت على هذه الطرُز الكلاسيكية الرصينة ، أو المتناغمة الرشيقة ، بعض لمسات تواكب روح العصر الجديد ومتغيراته .وكثيراً ما كان البناء معبِّراً عن « الذوق الشخصى» لصاحبه من ناحية اختيار الطراز المرغوب .

وتداخلت فى بعض الأحيان الطرُز ، وتزاوجت ، فأبدعت . وحرصت بعض الأُسر الثرية العريقة على قصور ومبانٍ تجارية لها (شركات ، مؤسسات ، بنوك ، فنادق...) تتسم ـ مع امتزاج بروح العصر الجديد ـ بفخامة طُرز عصر النهضة الإيطالية ، تماماً مثلما فعلتْ بعض الحكومات الغنية فى بناء المؤسسات الرسمية (مثل دور البرلمان ، والمكتبات العامة ، ودور الوزارات ، وقصور الحكام ، والجامعات ، والمتاحف ، ودور الأوبرا ، والمسارح ...) ، تلك التى تجمع بين الفخامة ، والرصانة ، والمهابة ، والجمال ، أو بتعبير أخلاقى : تمزج الجمال بالثقة .

التزم المعماريون المبدعون الكبار « مبدأ الأمانة » الذى عبَّر عنه المعمارى الفرنسى « أوجين إمانويل فيوليه لو دوك » بقوله : « إن الطراز المعمارى المتسم بالثقة يرتكز على الاستخدام الأمين للمواد : فالحَجَرَ مثلا يجب أن يبدو حجراً ، والحديد كالحديد ، والخشب مثل الخشب » . وبناء على هذا



مبنى الجامعة المصرية القديمة فى أوائل القرن العشرين



[الملك أوالخديوى فى زيارة لمبنى حمامات حلوان الجديد]

المبدأ ، لا يجب أن تُكتسَى الأعمدة الحديدية بالحجارة ، بل تُترك ظاهرة ومندمجة فى توافق مع التصميم .



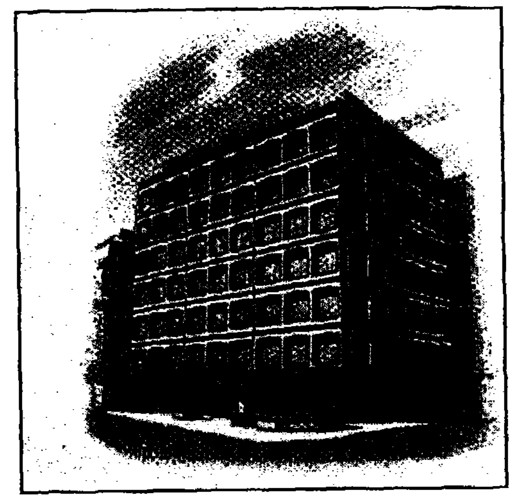
مبنى البرلمان البريطانى فى لندن وبرج ساعته الشهيرة .

فى ذلك العصر السابق على بداية القرن العشرين ، كانت تسود آراء كتاب كبار ، من أمثال الناقد الجمالى البريطانى « رسْكين » ـ ت ١٩٠٠ ـ الذى نادى بأن الطراز المعمارى « الجيد » ـ ويقصد بالجيد هنا :الجميل والأخلاقى معاً ـ إنما يَصْدر فقط عن معمارى « جيد » ، يعكس فى عمله مجتمعاً « جيداً » . ثم أتاحت المثالية المدنية المألوفة،وهى ناتج ثقافة خاصة وحضارة ، أتاحت حرية فى التعبير ، من خلال التخطيط والتصميم الأساسى المتناسق الأجزاء ، مع التغاضى عن إبراز الفخامة الزائدة، والأبهة المسرفة ، خاصة فى البيوت الصغيرة والذاتية ، ومع الارتفاعات العالية.

لم يكْتف عصر التصنيع بإثارة الاهتمام ، والرغبة فى تحسين نوعية المجتمع ومبانيه المعمارية ، وإنما أدخل أيضا مواد معمارية حديثة ، وتتطور باستمرار : مثل السبيكة المعدنية ، والحديد المطاوع ، والصلب (الفولاذ) ، والزجاج المصفح ، والطوب خفيف الوزن المقاوم للحريق ... فيسَّرت هذه

المستحدثات إقامة مبان « هندسية » تصلح أن تبقى أثرية مع الزمن ، وكذلك مبان « معمارية » صارت من معالم التاريخ الحضارى . وطوّع الحديد نفسه للبناء سابق التجهيز ، حيث تُجهز سبائكه مسبقاً ، ثم يتم ربطها بعضها إلى بعض فى الموقع .

وأَدْخَلت التغييرات الاجتماعية أيضاً التضخيم والتوسيع ، والتمديد



* مبنى يجمع بين القديم والحديث مع الفخامة والاتساع والجمال



* محطة قطار مركزية من أوائل القرن



محطة السكة الحديد بالاسكندرية (محطة مصر) عند افتتاحها (١٩٢٦).

والإضافات ، والتخصص فى أنماط البناء التقليدية أو الجديدة . ومع زيادة التعقيد والتشابك فى الإدارات الحكومية المركزية والمحلية ، أصبحت المنشآت المعمارية ، وقاعات الاجتماعات الرئيسية مبان ضخمة فخمة ، رحيبة الاتساع ، تجمع بين الجمال والجلال .

ودخل عنصر جديد تماماً : السكك الحديدية ، حيث ظهرت فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، ثم زادت وتطورت فى العشرين . وكان لزاماً أن تصبح محطات القطارات المركزية أو الرئيسية ، رمزاً ومعبِّراً عن العصر الصناعى، وآثاره ، وروافده ، ومتغيراته، وإيقاعاته ، أينما سار قطار وتوقف، وحيثما علا صفيره ومن ركابه تَخَفَّف.

المسرح والشعر


البـارودى

أقبل القرن العشرون ، والناس تردد وتتغنى فى مصر والشرق بأشعار : البارودى،وأحمد شوقى ،وحافظ إبراهيم ، وحفنى ناصف ، وخليل مطران ، وعائشة التيمورية ، ومصطفى الرافعى ، وجميل صدقى الزهاوى ، ومحمد رضا الشبيبى ، وناصيف اليازجى ، ونجيب الحداد ... وكثيرين غيرهم .. وبعض هؤلاء كتب شعراً للمسرح الشعرى العربى ، ومُثِّلت ، ونالت استحساناً .

وفى أوروبا ، كانت قصائد الشعراء الكبار تنتقل سريعاً من مكان إلى مكان، تشرِّق وتغرِّب مع المسافرين والركبان .. فمن شعراء الإنجليز : توماس هاردى، ووليام بتلرييتس (أيرلندى) . وفى فرنسا : بول فرلين ، وستيفان مالارميه ، وأرتور ريمبو . وفى إيطاليا : جاردوتشى ، وجابريل دانونْزيو ...

وقد كانت النزعة الرومانسية هى الغالبة ، مع أشعار الملاحم والبطولات، والتغنى بالوطنية والقومية ، وثراء الشعر المسرحى .

وقُبيل نهاية القرن التاسع عشر، فتح المسرح العالمى أبوابه مرحِّباً بثلاثة كُتَّاب للدراما، صنعوا معاً - كلٌّ بأسلوبه - التجديد الكبير المرتقب، الذى تعاظم شأنه على امتداد القرن العشرين: هزيك إبسن (من النرويج - توفى ١٩٠٦) الذى أثرى الدراما الاجتماعية بمسرحيات شعرية، ثم نثرية رفيعة المستوى، مثل: بيت الدُّمية. ومن السويد: أوجيست ستريندْ برج (ت ١٩١٢) الذى بدأ بالدراما النفسية الجنسية المفزعة، وانتهى بالدراما الرمزية. وفى روسيا: تألقت أعمال أنطون تشيكوف المسرحية (ت ١٩٠٤) ذات الطابع الواقعى الاجتماعى الرشيق الأنيق.



حافظ إبراهيم

وظلت مسرحيات شكسبير تحتل مكانتها المرموقة فى كل البلاد. أما مسرحيات أوسكار وايلد (توفى ١٩٠٠) الكوميدية، فقد تراجع الإقبال عليها، لأنها لم تعد تلائم العصر سريع التغير، سواء فى حبكتها، أم فى خصائصها، وطابعها المتقادم.. لكن وايلد، بذكائه البارع، وإبداعه المتوقد على الدوام، سرعان ما تحول إلى الميلودراما والكوميديا الرومانسية، فأحرز نجاحاً وإقبالاً متزايداً.

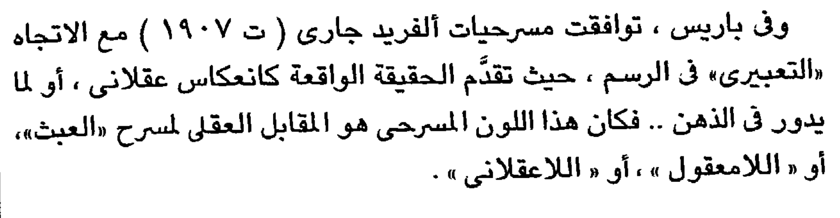


شوقـــى

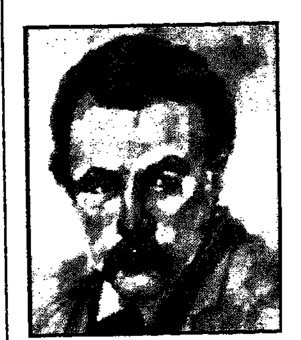


* مشهد من مسرحية تشيكوف « طائر النورس » عند تمثيلها عام ١٨٩٨.

وتألق نجم برنارد شو (١٨٥٦ - ١٩٥٠). وهو أحد أبطال إبسن.. فاستخدم الأسلوب الفنى نفسه فى بناء مسرحيات اجتماعية أخلاقية، تجمع بين البراعة والطرافة، والرقة فى الإنسانية، وتحمل المشاهد على التفكير الرصين العميق.



وفى باريس ، توافقت مسرحيات ألفريد جارى (ت ١٩٠٧) مع الاتجاه «التعبيرى» فى الرسم ، حيث تقدَّم الحقيقة الواقعة كانعكاس عقلانى ، أو لما يدور فى الذهن .. فكان هذا اللون المسرحى هو المقابل العقلى لمسرح «العبث»، أو « اللامعقول » ، أو « اللاعقلانى » .



* خليل مطران



* مشهد من مسرحية تشيكوف « طائر النورس » عند تمثيلها عام ١٨٩٨ .



* أوسكار وايلد ، أحد المجددين الكبار للمسرح الانجليزى فى أواخر القرن ١٩ .

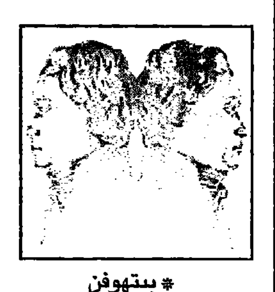


* نورا هلمر التى مثلت الشخصية الرئيسية فى مسرحية بيت الدمية لإبسن



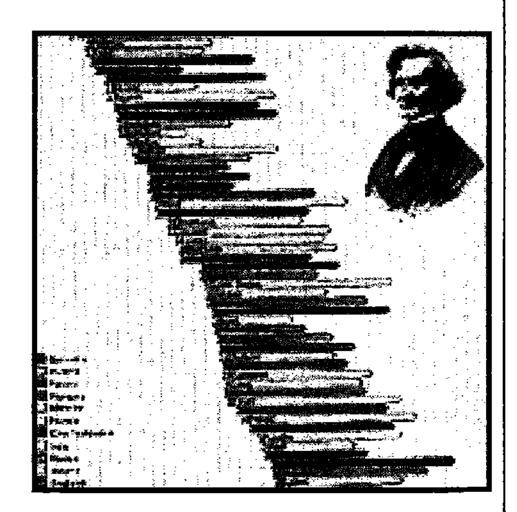
* برناردشو

الموسيقى


* بيتهوفن

يدين الموسيقيون العالميون لعبقرى التأليف الموسيقى « لودفيج فان بيتهوفن » بما نالوه من مكانة اجتماعية مرموقة،ومستوى بين الناس رفيع كريم . كان المؤلف الموسيقى قَبْله ـ مهما أجاد واشتهر ـ مجرد حِرفى ، وغالباً ما كان يوضع فى مرتبة صغار الموظفين أو العمال لدى أمير، أو ثرى ، أو راع لكنيسة . وكثيراً ما كان طعامه مع الخدم .. فلما أقبل بيتهوفن ، وتألق نجمه ، وانحنى الجميع لعبقريته وإبداعاته ؛ وضع نفسه فى الموضع اللائق ـ والإنسان حيث يضع نفسه ! ـ وهكذا صار كل المبدعين من بعده .

والجدول البيانى التالى يوضح تطور الموسيقى الرومانسية التى بدأ ازدهارها المبدع ببيتهوفن ، وانتهت إلى رحمانينوف (الروسى) ، وفيه بيان السنين ، وجنسية كل مؤلف. أما الشخصية المرسومة إلى اليمين من أعلى




* يد شوبان اليسرى (من قالب) تخليدًا لمهارتها المفرطة فى العزف على البيانو

الشكل ، فهى للموسيقار هيكتور برليـوز (الفرنسى ـ توفى ١٨٦٩) ، الذى




فردريك شوبان
(١٨١٠ـ١٨٤٩)

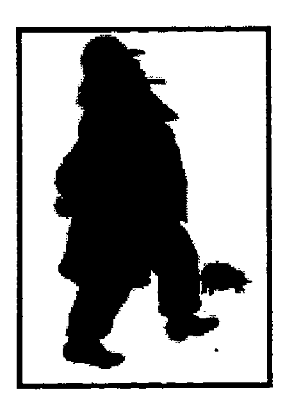
بلغ الذروة فى تأليف الموسيقى الكلاسيكية الرومانسية .

وقد تأثر الموسيقيون الكبار بالنزعة القومية وبالانتفاضات الوطنية التى شـاعت فى القــرن التـاسـع عشر ، وبداية القـرن العشريـن ، وظهـر ذلك فى أعمالهم: فالمازوركا والبـولونيز [1] تدخلان فى نسيج التأليف الموسيقى عند فـردريك شوبـان (ت ١٨٤٩) وهو بالمنفى ، تعبيراً عن مشـاعره الوطنيـة الجياشـة نحو مـوطنه بولندا ، وحنينه إليه .وفى بوهيميـا (الجزء الغربى من جمهورية التشيـك الآن) يناصر الموسيقار أنطونين دفـورجاك (ت ١٩٠٤)، والموسيقار بدرتش سمِتا نـا (ت ١٨٨٤) بمؤلفاتهما الثـورة الوطنيـة فـى بلدهما ، وكذلك فعل الموسيقى الكبير إدوارد جريج فى النرويج (ت ١٩٠٧). ويفعل الشىء نفسـه فى روسيـا كـل من : ألكسندر بورودين (ت١٨٨٧) ، وريمسكى كورساكوف (ت ١٩٠٨) . أما بيتر تشايكوفسكى (ت ١٨٩٣)، فقـد سلك سبيـلاً آخـر . وبالمستوى الرفيع نفسه ... كـان إدوارد ماكدويل (ت ١٩٠٨) فى الولايات المتحـدة الأمريكيـة ،وريشارد فـاجنر (١٨٨٣) فى ألمانيا.



* فاجنر : عبقرى الدراما الموسيـقية الوطنية الألمانية

واستخـدم فـاجنر الأسـاطير الوطنيـة الألمانيـة فى التأليف الموسيقى الدرامى، بدلاً من الأوبـرا التقليـدية ، التى كـانت ثانويـة بالنسبـة لقـدراته



* برامز : صورة ظلية وهو يمشى نحو مطعمه المفضل

(١) المازوركا : موسيقى شعبية بولندية ، تؤلف للرقصات الجماعية الدائرية، ألحانها شجية .
والبولونيـز : نوع من الموسيقى الوطنية البـولندية الراقصة بطيئة الحركـة (يستغرق زمنهـا $\frac{3}{4}$ فى قياس الموسيقيين) .

الفـائقة فى التنوع الهارمـونى المتألق المبهـر ، وفى السيطرة على الأوركسترا ، واستثمار كل آلاتها بمهارة .

وفى إنجلترا كان ختـام عصر الرومانسيـة الوطنية مع إدوارد إلجار (توفى ١٩٣٤) ، وأيضاً فى فنلندا مـع جان سيبيليوس (ت ١٩٥٧) ، وكـذلك فـى فرنسا مع سيزار فرانك (ت ١٨٩٠) ، الـذى أنشـأ وأدار جمعيـة وطنيـة ، وأيضاً مع سان صـانس (ت١٩٢١) .أما كلود دبوسى (ت١٩١٨) ، فهـو الذى قـاد تيار الموسيقى التأثيرية ، المواكِبـة لتيـار المذهب الجديد فى الرسم (التصوير) .



* تشايكوفسكى : عبَّر بألحانه عن روح الوطنية الروسية التى ضمنّها مؤلفاته وأسلوبه الفولكلورى فى الباليه متميز محبوب

الرسـم (أى التصويـر)

غَلَبت على مدارس التصوير (الرسم) فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وحتى أوائل القـرن العشرين ، النزعة الواقعيـة ـ خاصـة فى فرنسـا ـ وازدهرت أعمالها المعبِّرة عن الحياة اليوميـة فى كل جوانبها ، ومن كل الفئات والمستويات الاجتماعية .

لقد أصبح الفن حرًّا طليقاً ، مصوراً للمجتمع كله ، وليس ترفاً يختص به



* « بونجور مسيوكوربيه ! » لوحة رسمها الفنان الواقعى الفرنسى كوربيه لنفسه وهو يتلقى التحية من صديق عابر بالطريق .



* «إضراب عن العمل » لوحة (١٨٩١) ، يصور فها الفنان هربرت فون هركومر قمة الواقعية ، حيث مشاعر الحزن والاستسلام واليأس تنعكس على أفراد الأسرة ، نتيجة لتوقف عائلها عن العمل . وفيها أيضًا التضامن الأُسْرى : انحناءة الزوجة ، وتطويق زوجها بيدها المسترخية ، وكذلك الابنة خلفها تسند رأسها الحزين بيديها ـ توفى هركرومر ١٩١٤ .



* « يوم السباق » للفنان ويليام باول (ت ١٩٠٩) تصور مشهدًا من الحياة اليومية بانفعالات وتكوينات وألوان فاتنة .



* « صحوة الضمير » لوحة للفنان ويليام هَنْت من المدرسة الروفائيليه ، تعبِّر عن صحوة ضمير فتاة تحافظ على براءتها وعفتها بإزاء إغراء فتى وسيم ، كما يبدو من تشابك يديها ، ووضاءة وجهها وردائها .

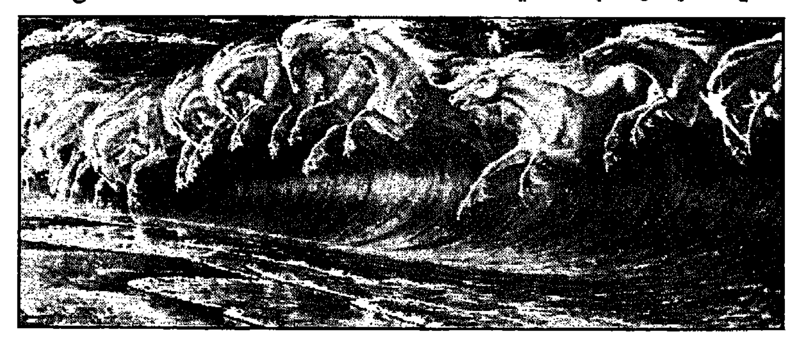


* « فى المقهى » للفنان الفرنسى إدوار مانيه . موضوع شعبى واقعى طريف . اللوحة تحمل طابع الفنان المتميز بالحيوية ، وثراء الألوان . وقد مهَّد لظهور المدرسة التاثيرية .

وينعم السادة والنبلاء وكبار الأثرياء . كان على رأس هذه المدرسة الواقعية : جوستاف كوربيه الفرنسى (ت١٨٧٧) ، وكان ريفيًّا بوهيميًّا ديموقراطيًّا ، يميل إلى الثورية .. فلما ظهرت آلة التصوير الفوتوغرافى ؛ خَبَت المدرسة الواقعية ، وأسلمت القياد لمدرسة جديدة :التأثيرية .

الفن الحديث

سَرَى تيار الموجة الجديدة ـ أو « الفن الحديث» ـ واكتسب جمهوراً كبيراً، وعداء متزايداً من جانب التقليديين (الكلاسيكيين) أصحاب المدارس القديمة. وكان لابد للحياة من أن تتطور ، وتأخذ مسارها مع الزمن



* « موجة تتكسر » أو اندفاع الزمن . أو التيار الجديد . لوحة للفنان البريطانى والتركرين (ت ١٩١٥) ، يصور الموجة كخيول جامحة سابحة (لاحظ الأقدام) منضبطة متناغمة الحركة والإيقاع كالموج ، لكنها ـ رغم خضوعها لقائدها ـ لا تتماثل .. فلكل نظرته واتجاهه وأداؤه المنطلق . اللوحة بارعة التكوين والتعبير عن الفكرة والحركة ، واستخدام الخط المنحنى فى انسجام مبهر وتوافق .



* « الوجه الأثيرى » للفنان النرويجى إدوارد مونش يعبر عن أسلوب فنانى الموجة الجديدة : الوجه المسطح ، والخطوط المتحررة تعكس رؤية الفنان الذاتية .

والمتسارع، مع المستجدات المتلاحقة. إنه قرن يودِّع (١٩) ، وقرن مقبل بإشراقات مبدعة، وتغييرات متدافقة فى كل شىء : فى الفكر والفن ، فى البناء والأزياء ، فى الابتكارات والاختراعات ، فى الاكتشافات والتطبيقات، فى العمل والتعامل، فى كل جوانب الحياة .. والفن صورة للمجتمع . ولوحة الفنان ـ ولو كان فنان دعاية وإعلان ـ مرآة قابضة ، مسجِّلة .. بمعنى أنها تمُسك بمظاهر عصرها ، وتسجل طابعه ، وتحمل نفحات من روحه .

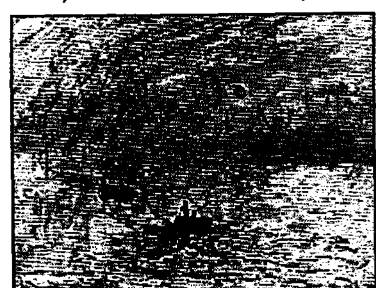
ملاحظة : القيمة الجمالية للوحات لا تستبين إلا بالألوان الحقيقية)

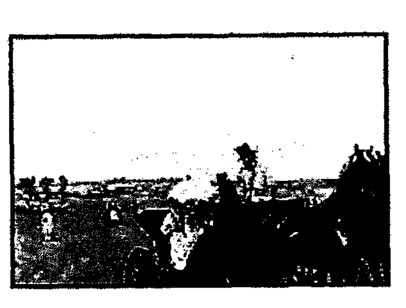
المدرسـة التـأثـيريـة

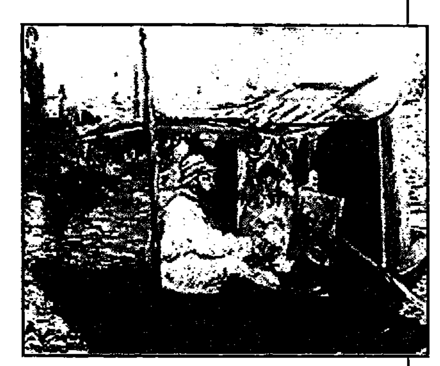

مدخل قرية (بيسارو)

إن تعبير « تأثيرى » ، أو « تأثيرية » فى الفن ، جاء فى الأصل من كلمة سخرية وازدراء ، كتبها الناقد الفرنسى « لوى لوروا » عام ١٨٧٤ متهكماً على لوحة للرسام «كلود مونيه » ،تصور الغروب عند شاطىء النهر . واختار لها الفنان اسم : « تأثير Impression » .. فكتب لوروا ناقداً لها: « تأثير .. أو انطباع ، أنا متأكد من ذلك!، فهى إذ تخبرنى من عنوانها بأننى تأثرت بها ، فلابد إذن أن يكون فيها شىء تأثيرى ، وأنا لا أدرى ! ».

بدأت هذه المدرسة ـ أو هذا التيار الفنى الجديد ـ بمجموعة من ثمانية مصورين (أى رسامين) ، كفريق متميز ، يتخذ أسلوباً خاصًا فى الرسم ، يختلف عن الأسلوب الواقعى ، أو الطبيعى ، أو الكلاسيكى التقليدى القديم. ويعتبر « كامى بيسارو » ـ توفى ١٩٠٣ ـ الأب الروحى لتلك الجماعة . وهو ابن رجل مصرفى ، وصديق طفولة للروائى الفرنسى « إميل زولا » . ومن هـؤلاء التأثيريين (أو الانطبـاعيين) : إدجـار دوجـا (ت ١٩١٧) ، الـذى تخصص فـى رسـم سبـاق الخيـل ، والمسرح ، والباليـه ، وكلود مونيه (ت ١٩٢٦) ، وأوجيست رنـوار (ت ١٩١٩) ، الذى سبـق اشتغاله بالزخرفة


* تأثير ـ كلود مونيه


* مضمار (ساحة) سباق ريفى ـ إدجار دوجا .



* مانيه يرسم لوحة .



* صورة فوتوغرافية لسيزان
يرسم من الطبيعة



* الرقص فى ملهى طاحونة
الحلوى - رينوار

الخزفية ، وتنسيق الزينة (الديكور) ، وألفريد سيسْلى (ت ١٨٨٣) ، الذى يُعتبر رائد هذه الجماعة أو المدرسة .

لقد كانوا مجموعة متآلفة مترابطة ، عزمَتْ على اتباع « مذهب » فنى جديد، فعملوا معاً ، وتدربوا على الإجادة معاً ، وأحياناً كانت مجموعة منهم ترسم منظراً واحداً يقفون أمامه جنباً إلى جنب ، وكلٌّ يرسم بأسلوبه وألوانه ..لكنه يحافظ على طابع تلك المدرسة فى ضربات الفرشاة على اللوحة ، وفى التحليل الضوئى ، وفى اختيار الموضوع البعيد تماماً عن الموضوعات التاريخية التقليدية ، أو الأسطورية . (ولم يدركوا حينذاك أن لوحاتهم هم ستصبح تاريخاً ، وفيها تسجيل لمظاهر حقبة تاريخية عاشوها وأبدعوا ـ على طريقتهم ـ فى تصويرها لمن بعدهم ؛ ليستشف منها ملامح الحياة اليومية آنذاك : فى الأزياء ، والمبانى ، والمركبات ، والسفن ، والملاهى ...) .



*نساء فى حديقة
(مونيه)

كانوا شغوفين بالطبيعة الفسيحة الوضاءة المبهجة ، بالحدائق والحقول والأنهار والأشجار والزهور ، بالحياة البسيطة المرحة ، وتقلبات الأنوار فى الليل والنهار ، ومن شروق إلى غروب ، وبالتحليل اللونى للظلال ، وانعكاساتها على نحو بارع دقيق . وبعضهم ـ مثل رنوار ـ مال كل الميل إلى رسم الأشخاص ، خاصة النساء كاسيات عاريات . وتفوق سيزان فى صياغة الشكل أو الملامح ، من خلال ضربات لونية بدرجات مختلفة ، وأجاد تحليل العلاقة بين اللون والشكل . إنها لوحات « ثورية » تعطى انطباعاً أو تأثيراً مباشراً بمجرد النظر إليها ، أو التأمل .

جماليات التنسيق

ونقصد به كل ما يسهم فى الارتقاء بالذوق الرفيع ، ونشر لمسات الجمال فى أرجاء المكان ، ولو بأبسط الأشياء والأدوات : فى البيت ، والمكتب ، والمدرسة، والمؤسسة ، والمتجر .. فى الزخرفة والتزيين (الديكور) ، وفى الأثاث ، وفى المزهريات ، والإضاءة ، وفى السجاد ، وتوزيع اللوحات ، والتحف ، والأدوات ...إن الطبيعة التى أبدعها الخالق جميلة ، ويجب أن تنظر العين فيما حولها إلى كل شىء .. جميل .

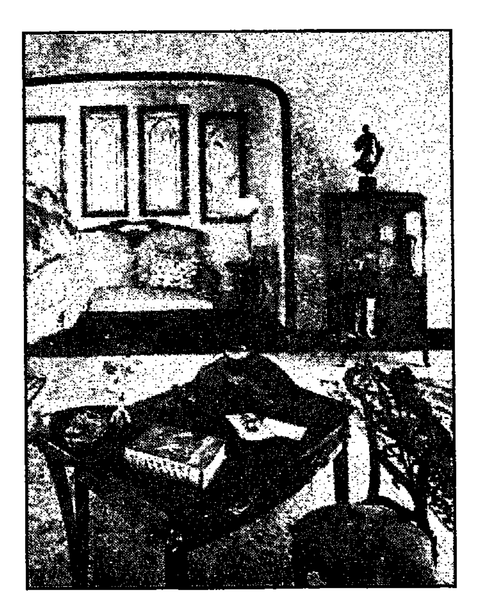
فى عام ١٨٩٥ ـ وكما سنرى بالتفصيل فيما بعد ـ افتُتح فى باريس « بيت



* تمثال من البرونز اللامع أمام حائط داخلي مغطى بورق مزخرف بالزهور بالأسلوب الجديد . يلاحظ التناسق بينهما (مع الألوان) في التعبير عن التحرر والانطلاق والحركة الرشيقة وذلك بالتموجات والخطوط المنحنية والدائرية ، وتطاير الشعر والملابس ، والجسم الملتف ، وإيحاءات الأطراف . إنه الفن المتوهج .



* مستوى رفيع من الرشاقة والأناقة في مزهريات بأسلوب «موجة الفن الجديد» التي ظهرت في فرنسا أواخر القرن ١٩ وأوائل العشرين .



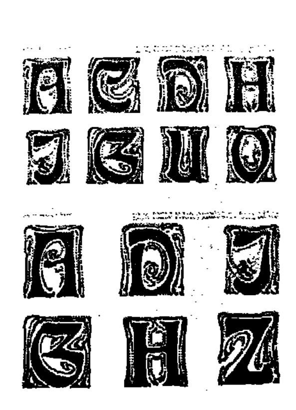
الفن الحديث Maison de L'Art Nouveau » ، وفيه عُرضت ذروة ما وصل إليه إبداع فنانى تلك المدرسة الجديدة فى التنسيق والتجميل الداخلى ، من أبسط الأشياء (كالوسائد ، وأدوات المكتب) إلى الأثاث ، والسجاد ، وورق الحوائط، وتوزيع الفتحات ، والمساحات ، والإضاءة .. وكلها فى تموجات وخطوط رشيقة ، بعيدة تماماً عن الصرامة والجمود ، تُدخل البهجة والنشوة إلى النفس والحس .

فى نهاية القرن ١٩ وبداية العشرين ، ساد هذا الفن وانتشر فى كل المستويات، وانعكس على الأزياء ، وحُلِىّ السيدات ، وأدوات الزينة .

تجميل الكتاب

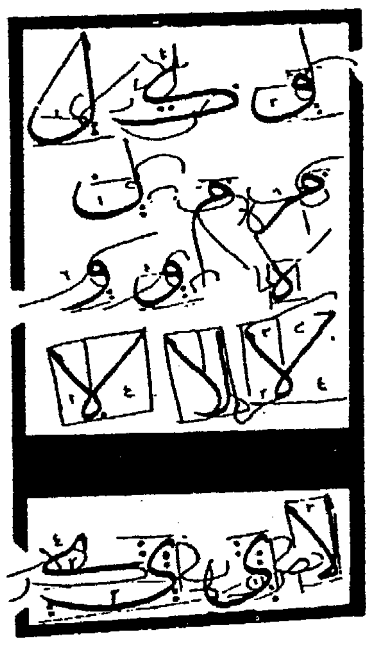
والكتاب أيضا.. تناولته الأيدى المبتكرة المبدعة ، أضافت إليه لمسات جمالية على نفس المستوى الرفيع والنسَق فى التجديد : فى غلافه من الخارج ، وفى رسومه وزخرفته بالداخل .. وحتى كتب الأطفال . وكان طبيعيًا أن تَصدر أعداد محدودة من تلك الكتب ، للمحافظة على قيمتها كتحفة فنية ، لا يقتنيها إلا الذى يحب الجمال ، ويقدره حق قدره . هذه مجموعة من الكتب المتنوعة شكلاً ، وموضوعاً، ولغة ..

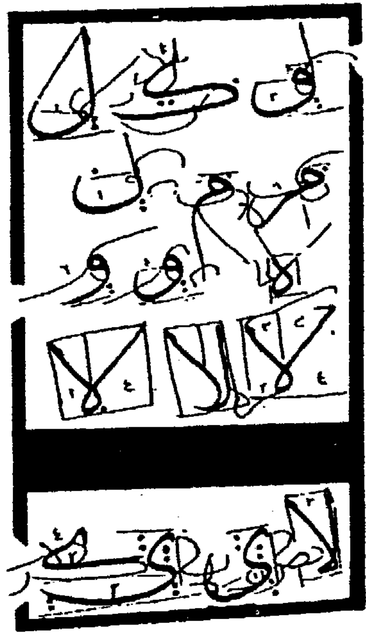
وانتقل التجديد والإبداع إلى حروف اللغة ذاتها :من الصرامة إلى الرشاقة.

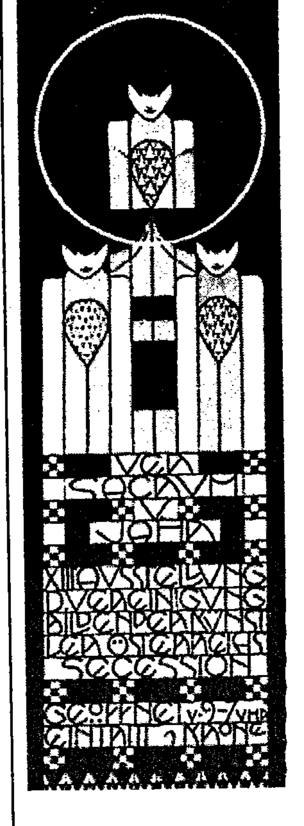


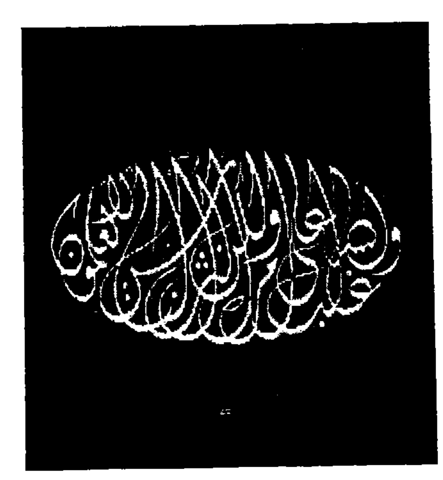


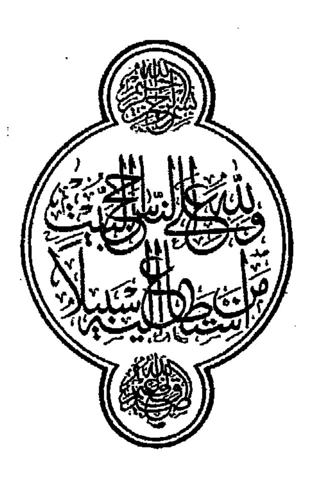
ومن السكون إلى الحركـة ، ومن العُبوس إلى البهجـة . هنا إبداع الفنان بيـده المتألقة المدققة ، قبل أن تتراجع وتتـوارى مع هجوم التصنيع الكبير والإنتاج النمطى بالجملة بعد بدايات القرن العشرين .







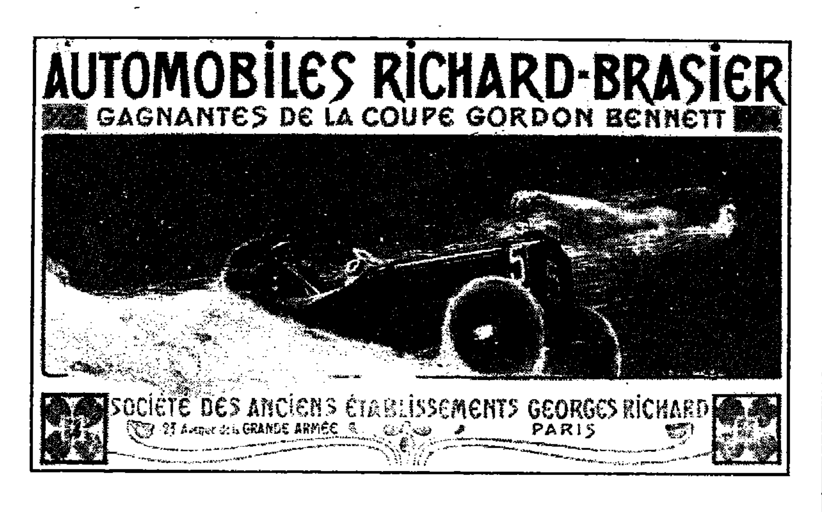




فــن الإعـــلان

وظهر فن جـديد ... تأثيره على كل الناس شديد .. سوقُـه رائجة ، وتَطْلب: هل من مـــزيد ؟..إنه فن الإعـلان ، فى كـل مكان ، بالصحف وعلى الجدران ، يخاطب ـ صامتاً ـ العين والوجدان ، بالكلمات والرسوم والألوان .

إنه أثر مباشر لازدهار الصناعـة ، ولترويج البضاعـة ، والإغراء بالشراء ، وإثارة شهية الأثرياء والبسطاء ، ولو بلا حـاجة أو اقتضاء ! . وانفتح مجال



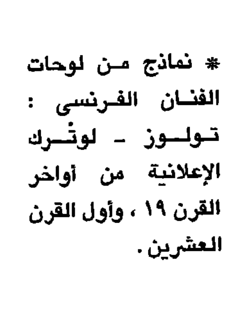
* كـان السبب الأول فى ابتكار سيارات السباق أوائل القـرن العشريـن ، هـو الترويـج للسيـارات ذاتها ، وتشجيع الجمهور على شرائها . وإعلان الفنان هنـا ـ أوجين فــرنو ـ يرتكـز على فكرة أن السيـارة سريعـة ، وهى فى سرعتهـا تسابق الريح ، منطلقة بحرية وبلا عائق .

الإعلان واتسع ، ودخله فنانون كبار ، وعلماء نفـس وموجِّهون وتربويون . وتحت سطوة إغـرائـه وانتشـاره ومكاسبـه، سمـح بعض أصحـاب المكانة والشهرة لأنفسهم بالظهور فى الإعلانات ومـواد الدعاية . وكانت باريس ـ فى أوائل القرن ـ مركـز الدعاية العالمية ، واتُخذت المرأة « سلعـة » للإعلان عن السلع ، و«بضاعة» لتسويق البضاعة .

وسرعان ما ظهر تأثير الإعـلان على كل المستويات والطبقات . وأصبح له فنانون متخصصون ، ذاعت شهـرة بعضهم محليا وعالميـا .. بل إن لوحات







* نماذج من لوحات الفنان الفرنسى : تولوز - لوتْرك الإعلانية من أواخر القرن ١٩ ، وأول القرن العشرين .



بعض فنانى الإعلان النادرة ، كانت تباع فى السوق السوداء . ولدرجة أن تجار اللوحات الفنية الثمينة القيمة كانوا أحياناً ينصحون زبائنهم الأثرياء ببيع لوحات لفنانين عظام ، مثل رمبرانت (تباع لوحة واحدة من رسومه الآن بعشرات الملايين من الدولارات) ، وشراء - بدلاً منها - لوحة إعلانية لفنان، مثل : الفونس موشا ، أو تولوز لوترك - (Toulouse Lautrec). وقد برع لوتْرك فى فن الإعلان (وفى مجالات أخرى فنية متميزة) ، وله متحف خاص فى مدينته آلبى بفرنسا ، يضم مجموعة من لوحاته الفنية الإعلانية التى اشتهر بها . (توفى عام ١٩٠١).

فـن الأوبــرا

مع انطواء صفحات القرن التاسع عشر ، وبداية العشرين ، زاد إقبال الطبقة المتوسطة ـ من التى أثْرتها الصناعة والتجارة ـ على ارتياد مسارح الأوبرا ، والاستمتاع بمشاهدة عروضها والحانها ومناظرها (ديكوراتها) وملابسها الفاخر، بعد أن كان هذا الفن الرفيع المستوى قاصراً على الطبقات العليا من المجتمعات . وقد دفع هذا الإقبال المتزايد المؤلفين والملحنين إلى تطوير أعمالهم وابتكاراتهم لتلائم ذوقى الجمهور الجديد والقديم معاً .. فإلى جانب الموضوعات الأوبرالية التقليدية المستوحاة من التاريخ ـ الجادة أو الفكاهية ـ سرى تيار جديد يلائم روح العصر ، ومشاعر كل بلد .

* أدلينا باتّى (١٨٤٣ ـ ١٩١٩) الإسبانية المولد وإحدى الشهيرات المتالقات فى عالم الأوبرا (سوبراند) تبدو هنا فى دور « مارجريت » فى أوبرا فاوست لجونود . أبهرت الملحنين (بقدرتها الفائقة على تلين صوتها الندىّ الشجى) ، وامتعت الجمهور ـ فى عديد من العواصم ـ وسعدت هى بالحفاوة والشهرة طوال خمسين سنة من عمرها الفنى .



* اوبرا « عايدة » ألفها فردى ، بناء على طلب خديوى مصر (إسماعيل) لمناسبة افتتاح قناة السويس . ولم تعرض فى افتتاح القناة ، لكنها لقيت نجاحًا ضخمًا فى عواصم العالم .





* لـولـو : من أبرز أوبرات القرن العشرين وأكثرها شعبية ، ألحان النمساوى البان بيرج (ت ١٩٣٥) الذى توفى قبل إتمامها ، فعُرضت فى فصلين فقط وهى تحكى قصة غانية لندنية، ضحية الفقر والقهر ومآسى الدهر .

دخلت على الأوبرا موضوعات تتناول جوانب وطنية وسياسية واجتماعية. ظهر ذلك بوضوح فى أعمال الإيطاليين : فردى (توفى ١٩٠١) ، وما سكانْىِ (ت١٩٤٥) ، وبـوتشينى (ت ١٩٢٤) ، وفـى روسيـا : تشايكـوفسكـى (ت ١٨٩٣) ، وفى فرنسا : كلود دبوسى (ت ١٩١٨) ، وفـى ألمانيـا : ريتشـارد شتراوس (ت ١٩٤٩) ، والتشيكـى: جانا شيك (ت ١٩٢٨) ، ثم يَبْرز فى التجديـد ويتفوق فى روسيا : سيرجى بروكوفيف (ت ١٩٥٣) .

التصوير الفوتوغرافى

فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ظهر فن جديد (كانت له مقدمات علمية وتجريبية منذ عام ١٨٢٧) ، يجمع بين العلم والتكنولوجيا والبراعة الفنية، والابتكار الدائم المتجدد : فن التصوير الفوتوغرافى (وسوف نتناوله بالتفصيل فيما بعد بإذن الله) ونستطيع أن نقول ـ بلا مبالغة ـ : إنه الفن (والتكنولوجيا معاً) ، الذى غيّر من نظرة الناس إلى العالم ، وتصورهم



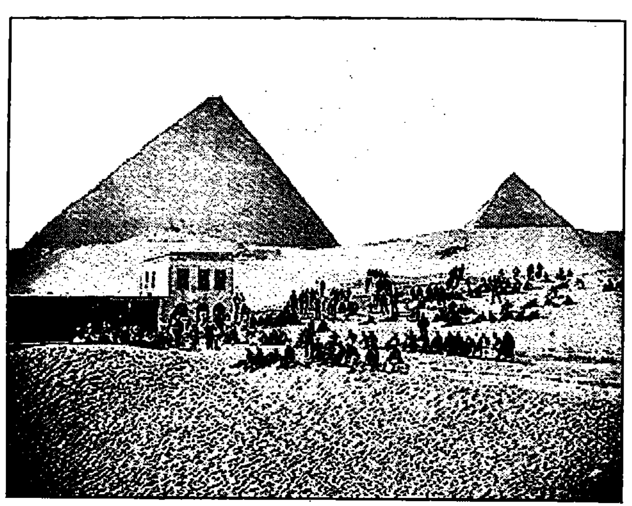
الممثلة الراقصة الشهيرة ماتا هارى ـ اتهمت بالخيانة ، وأعدمت عام ١٩١٧ .



* ظهور آلة التصوير الفوتوغرافى المتطورة كان سببا فى ظهور مدارس جديدة للرسم.

عن أنفسهم ، وعما حولهم من أشياء ، وكائنات وجمادات وأحياء ، فى أرض ، أو بحر ، أو سماء . ولا جدال فى أن « الكاميرا» ـ للصور الثابتة أو المتحركة ـ هى التى طبعت العصر ـ وما بعده ـ بطابع « النظرة البصرية المصوَّرة » .. فى كل شىء تقريباً ، وفى كل مجال أو ابتكار ..

* إمبراطور النمسا فرانسوا جوزيف يركب حصانًا وهميًا ، ليصنع له الفنان تمثالاً (١٩١٣) .



* صورة ضوئية (فوتوغرافية) نادرة لجنود الاحتلال البريطانى عند سفح الهرم بالجيزة عام ١٨٨٢ .

وقد سجلت الكاميرا مشاهد الحياة اليومية ـ الخاصة والعامة ـ بدقة كاملة (وكان هذا من أسباب ظهور مدارس الرسم الحديثة فى القرن



* الرئيس الأمريكى ماك كينلى قبيل اغتياله بلحظات (سبتمبر ١٩٠١)



* أطفال فى شارع باليابان (١٩٠٠) .

العشرين، بعد أن تفوقت الصور الفوتوغرافية على اللوحات الواقعية والطبيعية) . وأصبحت الصورة فى متناول الجميع ، ومعبِّرة عن الجميع ، محتبِسة للزمن ، للَحظة .. مثبِّتة للأحداث ، مؤرخة للوقائع : فى البيوت والقصور ، فى الأكواخ والكفور ، فى المباهج والأفرح ، فى السجون ومُطلق السراح .

وسرعان ما أصبحت الكاميرا « عين » التاريخ ، وصُورها مرجعاً للباحثين والدارسين .. ومادة ثرية جذابة للصحافة والصحافيين . وشغف الناس بهذا الفن ، حرفة أو هواية : من الملوك والأميرات والكبراء ، إلى الأدباء والعامة البسطاء .

فن السينما

كانت بداية هذا الفن فى فرنسا ، حيث نجح الأخَوان لوميير فى « إنتاج» مشاهد فيلمية من واقع الحياة اليومية ، عُرضت فى ديسمبر عام ١٨٩٥ لأول مرة، ودهش الناس بشدة وهُم يشاهدون لقطات تسجيلية لبضع دقائق لفيلم «وصول قطار إلى محطة كياتو » ، وبعضهم فزع وأسرع هارباً ! .

فى مارس ١٨٩٧ أنشأ جورج ميلْييس أول ستوديو فى العالم - بباريس - للتصوير السينمائى ، وأنتج خلال ١٥ سنة نحو ٣٠٠ فيلم سينمائى ، وابتكر عديداً من العمليات والمصطلحات السينمائية ، وبعضها يُستخدم إلى



* من فيلم « وصول قطار ... » لوميير



* « رحلة إلى القمر » المخرج ميلييس

الآن : منها استخدام الديكور المتحرك ، والماكيت (النموذج البنائى للمنشآت والبيوت والسفن ..) ، . وطبْع المناظر فوق بعضها البعض ، وتداخل اللقطات فى ذوبان ونعومة ، والحِيَل ، كالحَجْب أو الإخفاء باستخدام خلفية سوداء (كاشة) . وتنوعت الموضوعات بين واقعية وخيالية ، ومن الأحداث الجارية ، والخيال العلمى ، والفكاهة ...

فى عام ١٨٩٨ ظهرت أول مخرجة سينمائية فى العالم : الفرنسية أليس جُوىْ_Alice guy بفيلم « جنّيات الكرنب » .

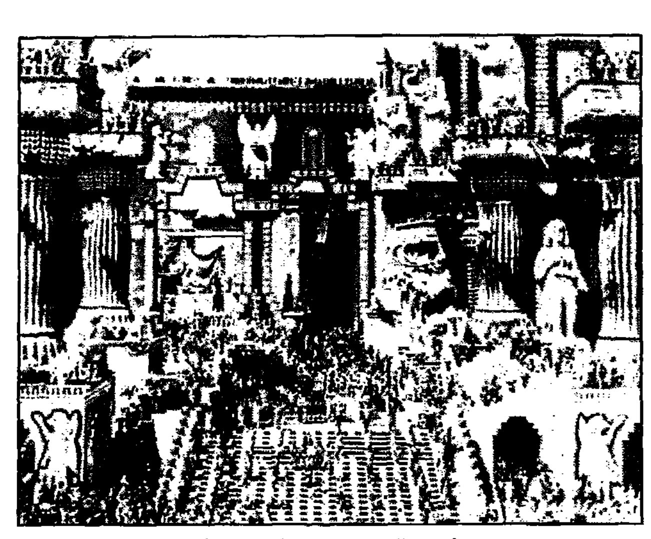
ثم بدأت المنافسة بين فرنسا والولايات المتحدة فى مجال هذا الفن ، الذى أدهش وجذب إليه كتلاً جماهيرية ضخمة .أنتج لورى ديكسون (مساعد



* « المدمرة بوتمكين » آيزنشتين .



تصوير الأسد شعار شركة مترو سنة ١٩٢٤ .



فيلم « التعصب » للمخرج جريفيث



« الشبح » للمخرج فوياد



شارلى شابلن

المخترع الشهير إديسون) أفلاماً قصيرة (كينيتوسكوب) ،تصور مشاهد لفرق موسيقية صامتة .

وفى عام ١٩٠٣ أخرج إدوين بورتر (مساعد أيضا لإديسون) أول فيلم أمريكى ، مستمد من قصة أدبية « كوخ العم توم » أول فيلم سينمائى يحتوى فى داخله على لوحات مكتوبة لشرح المواقف أو الفصول ، لأن الأفلام كانت صامتة (لم يظهر الصوت إلا فى أواخر العشرينيات) ، ثم أخرج فيلم «السرقة الكبرى للقطار » عن حادثة استيلاء عصابة مجرمين على كمية كبيرة من النقود والأشياء الثمينة بالهجوم على قطار . والبعض يعتبر هذا الفيلم أول أفلام الغرب الأمريكى الشهيرة (Western) ذات الطابع الخاص ، (رعاة البقر) .



« هجمة النزوح إلى الغرب » ـ انتونى مان



« جرح الوجه » هووارد هوك



« المواطن كين » المخرج : أورسون ولز



« عندما تنام المدينة » ـ جون هوستون



« الوهم الكبير » ـ ج . رنوار



* جمهور فى مكتبة عامة

وفى بريطانيا ، بدأ ويليام بول فى عام ١٨٩٦ إنتاج أفلام قصيرة من البيئة، على غرار ما فعل لوى لوميير فى فرنسا . وفى عام ١٨٩٩ أقام أول ستوديو سينمائى فى بريطانيا للتصوير والإنتاج . وكان من رواد السينما البريطانية الأوائل: جيمس ويليامصن ، ج.سميث ، سيسل هبْوورث .

ثم ظهرت الأفلام السينمائية المنتجة فى السويد عام ١٨٩٧ ، وفى الدانمارك ١٨٩٨ ، وأول فيلم إيطالى كان « آلام المسيح » ، وظهر عام ١٩٠٠ للمخرج لويجى توبى فى عشرة مشاهد . وذاع انتشار السينما فى كل أرجاء العالم .

وبدأ الإنتاج السينمائى فى ألمانيا عام ١٨٩٦ ، وفى العالم التالى بالمكسيك ، وفى البرازيل عام ١٩٠٣ . وفى عام ١٩٠٤ بُنى أول ستوديو سينمائى فى اليابان (طوكيو) ، وفى إسبانيا بدأت السينما بأفلام تسجيلية قصيرة عام ١٨٩٧ ، وحتى عام ١٩٠٠ .

وبعد أيام من عرض أول فيلم فرنسى « محطة القطار » فى باريس ، عُرض نفس الفيلم فى مصر : أولاً بالإسكندرية (أوائل يناير ١٨٩٦) ثم فى القاهرة.

فنـــون الأدب



* وجبات مجانية للعاملات المتدربات

أُنشئت المكتبات العامة المجانية . وتكونت جمعيات الرعاية الاجتماعية ، بعضها يقدم المأوى والطعام المجانى للفقراء ، وللمتدربين والمتدربات، لتشجيعهم على التعلم واكتساب خبرات جديدة تنفعهم وتفيد المجتمع ، وبعضها ينشىء مدارس وفصولاً مجانية ، أو ورشات لإتقان الحرف والصناعات البسيطة، أو المستحدثة .

وزاد الإقبال على الروايات والأعمال الأدبية ، خاصة مؤلفات الكتاب الكبار، الذين طبعوا العصر بأفكارهم ونظرياتهم ، وكان لهم تأثير على من جاء بعدهم على امتداد القرن العشرين .

فى لندن : شارلز ديكنز ، جورج إليوت ، جورج مرديث (ت ١٩٠٩) ،

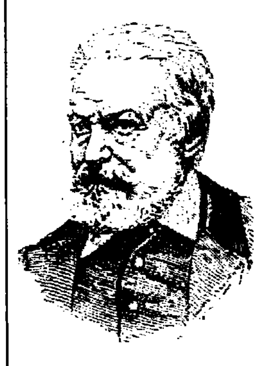


تولستوى



إميل زولا

جورج جيسينج (ت ١٩٠٣) ، صامويل بتلر (ت ١٩٠٢) ، توماس هاردى(ت ١٩٢٨)..



فيكتور هوجو

فى باريس : بلزاك ، فلوبير ، فيكتور هوجو ، إميل زولا (ت ١٩٠٢) رائد القصة الواقعية ، ألكسندر دوما (الابن - ت ١٨٩٥) ، الذى واصل مسار أبيه فى القصة التاريخية الرومانسية .

فى ألمانيا : تيودور شتورم ، فريتز رويتر .

وفى إيطاليا : الساندرو مانزونى روائى البطولات الوطنية ، جيوفانى فرجا (ت ١٩٢٢) المجدد فى القصة ، وأنطونيو فوجازارو (ت ١٩١١) .

أما النهضة الروائية الكبرى ، فكانت على الجانب الآخر : فى روسيا . بعد عصر تورجنف ، وفيودور دوستويْفسكى ، جاء ليو تولوستوىْ(ت ١٩٠٢) وتأثيره الكبير على الثقافة الأوروبية والعالمية ، وقد تُرجمت معظم أعماله الخالدة ورواياته إلى كل اللغات ، مثل : الحرب والسلام ، وأنَّا كارنينا ... وتلقفتها السينما ، وأنتجتها عدة مرات مع أجيال المخرجين العظام .



المنفلوطى

فى مصر والشرق العربى : ساعد ظهور وتزايد وانتشار الصحف والمجلات - منذ أواخر القرن ١٩ - على جذب أعداد كبيرة من الجماهير إلى فنون الأدب ، وخاصة الرواية والقصة .. فقد اهتمت - وتنافست - الصحافة بنشر القصص ، ومنها : الأهرام ، مصباح الشرق ، اللطائف ، الضياء ، فتاة الشرق ، المقتطف، الهلال ، مسامرات النديم ، مسامرات الشعب ، الفكاهة العصرية، الروايات الجديدة ، الراوى ، السمير ، الروايات الكبرى ، سلسلة الروايات العثمانية ...

كان الطابع الغالب هو الروايات . أما القصة القصيرة ، فكانت قليلة جدًا،

لم يتعود عليهـا الذوق العلم . وفى أوائل القرن العشرين ظهـر نوع جديد من الترجمة الممصرة . وعلى رأس هـذه الحركـــــة الجديـدة : مصطفى لطفـى المنفلوطـى (توفى ١٩٢٤)، الذى ارتقـى بأسلوب القصـــــة ، وعُنى بـاللفظ ومـوسيقى العبـارة ، فكان سـهلاً مسترسـلاً ، ولقى رواجـاً كبيراً فى عصره . وكـذلك الشاعـر حافظ إبراهيم فى قصـة «البـؤساء» عن مـؤلفها الفـرنسى (فيكتور هوجو) .

ثم راجت ترجمة النصـوص الأدبية : إنجليـزية ، وفـرنسية ، وإيطاليـة ، وغيرها، بأسلوب أدبى جيد سليـم . ومن أشهر الذين تفوقـوا فى هذا المجال :


جبران خليل جبران


حافظ ابراهم

إبراهيم عبـد القـادر المازنى ، ومحمـد السبـاعى ، وعبـاس حـافظ ، وخليل مطـــــــران، وجبران خليل جبران ، ومحمد عوض ، وزكى نجيب محمود ، وفخرى أبو السعود ، وعبد الرحمن صدقى ، ومحمد عبد الله عنان ، ودرينى خشبـة ... ثم تلاهم :.أحمد حسن الزيات، الذى أنشأ مجلة «الرواية»، وكـان لها اهتمام كبير بالقصة القصيرة المترجمة .

وبرز فى النقد القصصى ـ فى أوائل القرن العشرين ـ يحيى حقى .


يحيى حقى

« إن نشوء القصة القصيرة الفنية فى مصر ، واكب انتفاضة الأمة المصرية، وثورتها العـارمة سنـة ١٩١٩ . كُتب القليل منها قبل انفجـار الثـورة ، وهو يتمثل فى قصص محمـد تيمور ، ثم تبعـه بعد الانفجار ـ فى العشرينيـات من القـرن ـ الـرواد الآخـرون . وقـد انبثقت القصـــة من الثـورات الـوطنيـة ، والفكرية، والأدبيـة، والاجتماعية . ولهذا .. نراهـا لا تكاد تتخلى عن رسالتهـا الاجتماعية ، ودعوتها الحارة إلى مجتمع أمثل » .

الصحافـــة

شهـد الرُّبع الأخير من القــرن التـاسع عشر تجديدات كثيرة وابتكارات واختراعات متعددة ، تطورت وامتدت آثارهـا إلى القرن التالى ، وأضيف إليها مزيد . كانت الصحافـة من بين المجالات التى دخل عليها الابتكار والتجديد : فى مواد الطبـاعة ، والآلات ، وأجهـزة البرق والاتصال ، ووكـالات الأنباء ، وفى الفن الصحافى ذاته ..فى التبويب ، والتصوير ، والتنظيم ، والإخراج ، وأسلوب التناول والعــرض ، واللغـة... كل ذلك قفــز بالصحف والمجـلات ، قيمـة وانتشـاراً وصناعة ، ثم تأثيراً على الرأى العـام، وعلى السيـاسات الحكوميـة والعالمية

*** فى مصر :**

عرفت مصر فن الصحـافة مع قـدوم الحملة الفرنسيـة ، ثم احتكر محمد على باشا لنفسه هذا الفن ،مثلما احتكر كل شىء فى مصر ، فأنشـأ « ديــوان



محمد على باشا

LATEST INTELLIGENCE.

THE SIEGE OF SEBASTOPOL.

الإعلان عن إضرابات عمالية فى سباستبول

الجورنال» لنشر حسابات الأقاليم يوماً بيـوم ، وجعل له مطبعة بالقلعة ، ثم أضـاف إلى النشرة التى يصـدرها هذا الديوان مـوضـوعات أدبيـة ولغـوية وأشعاراً ، وقصصاً ، وموضوعـات تاريخية ، وطبية ، ورياضيات ، وبرقيات واردة من الخارج ... وزاد فى توزيع النشرة على الدواوين وعلى حكام الأقاليم؛

فكانت بداية لجريدة « الوقائع المصرية » ، وهى الجريدة الرسمية للدولة آنذاك .



جمال الدين الأفغانى

طلع فجر القرن العشرين ، وفى مصر - بالقاهرة والإسكندرية - عدد لا بأس به من الصحف متنوعة الأهداف والاتجاهات ، منها : وادى النيل (أول صدورها (١٨٦٩) ، ونزهة الأفكار (١٨٦٩) ، وروضة الأطيار (١٨٧٥)، والوطن (١٨٧٦) ، وجريدة مصر (١٨٧٦) ، والعصر الجديد (١٨٨٠) ، واللطائف (١٨٨٢) .. وفى عام (١٨٨٥) صدر قرار إنشاء « الأهرام » ، وجاء فيه : « رخصت الخارجية المصرية لحضرة سليم تقلا باشا بإنشاء مطبعة تسمى الأهرام ، كائنة بجهة المنشية بالإسكندرية ، تطبع فيها جريدة



الأهرام

* الصفحة الأولى من العدد الأول للأهرام

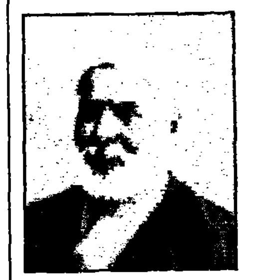


سعد زغلول باشا

الأهرام ، تشتمل على التلغرافات ، والمواد التجارية والعلمية والزراعية والمحلية، وكذا بعض كتب لمقامات الحريرى (أى الموضوعات الأدبية !) ، وبعض ما يتعلق بالصرف والنحو واللغة ، والطب ، والرياضيات ، والأشياء التاريخية ، والحكمة والنوادر ، وما يماثل ذلك . وقد أمرت الخارجية محافظ

الإسكندرية بعدم المعارضة للمذكور فى إنشاء المطبعة المحكى عنها » .

قضى جمال الدين الأفغانى ثمانى سنوات فى مصر (مارس ٧٩ ـ أغسطس ١٨٨٧)، شهد فيها نكبة مصر بالديون الأجنبية ، بسبب إسراف الخديوى إسماعيل (بلغت ٩٥ مليوناً من الجنيهات) رغم محاولاته التى لا تُنكر فى إدخال النهضة الصناعية والعمرانية الحديثة إلى البلاد (١) .كانت تلك الديون سبباً فى التدخل الأجنبى المباشر فى شئون مصر وشعبها ، انتهى بالاحتلال .


محمد عبده


مصطفى كامل

وفى مجال الصحافة ، كان للشيخ الأفغانى تأثير كبير ، مثلما كان تأثيره على القيادات وأُولى الرأى .. فقد التحق بالمحافل الماسونية (وأسس محفلاً أضيف إليها) ، فكان يلتقى فيها بالأمراء المصريين ، ومنهم الأمير توفيق (بن إسماعيل) الذى خلف أباه فى الحكم .

وعلى يد جمال الدين الأفغانى ظهر رجال حظوا بالشهرة ، وكانت لهم أدوارهم مع الصحافة ، مثل : الشيخ محمد عبده ، وسعد زغلول ، وإبراهيم اللقانى ، وإبراهيم الهلباوى ، وعبدالله النديم ، وأديب إسحق الذى أوحى


الخديو توفيق


عبدالله النديم

إليه الشيخ الأفغانى بإصدار جريدة مصر ، وكان هو (الأفغانى) يكتب بإمضاء : « مُظهر بن وضَّاح » . كما أنه أشار على أديب إسحق بإصدار جريدة التجارة ، وكان يكتب فيها الشيخ محمد عبده وإبراهيم اللقانى . كما أن الأفغانى هو الذى شجع يعقوب بن صنوع لإصدار جريدة « أبو نضارة» الأسبوعية السياسية الهزلية .(ويعقوب هذا رجل يهودى ، اتصل بالشيخ الأفغانى ؛ وتأثر به) .

---

(١) لبيان ضخامة الديون الأجنبية هذه ، وثقل وطأتها ، نشير إلى أن ميزانية مصر عام ١٨٧٩ كالآتى : ٩٩٤٩٠٠٠ جنيه إيرادات ، يقابلها ١٠٣٣٠٠٠٠ج مصروفات (بعجز ٣٨١٠٠٠ ج) . كانت مخصصات الخديوى السنوية ٣٠٠٠٠٠ ج ومخصصات العائلة الخديوية كلها ١١٠٧٣٥ ج بالنسبة، وميزانية وزارة الجهادية (الدفاع) والمدارس الحربية ٧٠٠٠٠٠ ج ، والخارجية ٩٠١٥ ج ، والداخلية مع أعضاء مجلس الوزراء ٢٦٨٠٠ ج سنويا ، والمعارف (التعليم) ٥٣٠٢٠ ج .



ميدان الأوبرا بالقاهرة سنة ١٩٢٠ وبه تجمعات طلابية وشعبية وبينهم باعة الصحف .

لما طُرد جمال الدين الأفغانى من مصر ، لحق به الشيخ محمد عبده فى فرنسا، وأصدرا معاً فى باريس جريدة « العُروة الوُثقَى » .

بعد الثورة العرابية وفشلها ، واحتلال الإنجليز لمصر ، وعزل إسماعيل ، انقسم الرأى العام بين مؤيد لإسماعيل ،ومعارض له ...بين مناصر لعرابى ، وساخط عليه . وانعكس ذلك على الصحف والمطبوعات ، وشجع على ظهور صحف جديدة ، لتعبر عن الآراء المتحالفة المتضاربة ، وتثير الرأى العام، مثل: « مصر الفتاة » ، و « المقطم » لسان حال الاحتلال (١٨٨٨) ، و«المؤيد» لمقاومة المقطم (١٨٨٩) ، وتفنيد مزاعمها .. وكان يحررها الشيخ على يوسف ، وأسهم الزعيم مصطفى كامل فى تحريرها .

فى يناير ١٩٠٠ صدر « اللواء » جريدة مصطفى كامل ، وأعلنت عن برنامجها من أول يوم : « خدمة الوطن والإسلام ، بأشرف السبل وأنفعها ،



الشيخ
على يوسف



صورة من مطلع القرن العشرين لجانب من جمهور المستمعين إلى الزعيم مصطفى كامل بدار اللواء بالقاهرة .

والسعى وراء الاتحاد والوفاق بين بعض المصريين وبعض من جهة ، وبين كافة المسلمين من جهة أخرى ، والعمل على تربية أبناء مصر أحسن تربية وطنية ، وترقية التجارة والصناعة ...» .

الـرأى العـام

تضافرت عوامل كثيرة ساعدت على تكوين رأى عام للأمة أو المجتمع ، له قوَّته وتأثيره فى اتخاذ القرارات ، واتجاه السياسات ، ومسار الأحداث . من هذه العوامل :

انتشار التعليم ، وزيادة أعداد الصحف والمجلات ، واتساع مناطق توزيعها ، وتقارب المسافات بين الناس ، سواء فى المدن ، أم الضواحى والأقاليم بسبب التجمعات السكانية المكثفة ، وأيضاً بسبب وسائل الانتقال والاتصالات السريعة ، وبسبب اختراع البرق ، ثم الهاتف (التليفون) .ومن هذه العوامل المكونة للرأى العام أيضا: إنشاء الأحزاب والنقابات المهنية والعمالية ، وتنامى الطبقة المتوسطة ، والإحساس المشترك بالظلم ، أو القهر، أو السيطرة ، أو الاحتلال والعدوان ...

وكان للنهضة الأدبية والفنية تأثير كبير على إيقاظ الأذهان والضمائر ، وتنبيه العقول والمشاعر ، يغذيها المفكرون والأدباء والشعراء والفنانون ، كلٌّ بأسلوبه ، وكفاءته ، ومنهاجه ، وقدرته ، وينفخ فيها ويوهِّجها ساسة



* مظاهرات أعضاء النقابات العمالية ، تعلن بجراة عن مطالبها بعد طول معاناة وظلم وقهر ، فى رسوم من بريطانيا وفرنسا والمانيا (بين ١٨٩٩-٨٣)



إسماعيل باشا

محنكون محترفون ، وقادة طامحون مُطاعون ، بعضهم يُضمر الانتفاع والاستئثار بمغنَم ، وبعضهم يضحى بنفسه ويتسامَى عن أى مطْمع . ومن هؤلاء الذين تألقوا فى تلك الفترة المواكبة لمطالع القرن العشرين :جفرسون ديفيز (الولايات المتحدة) بطل الدفاع عن حقوق الولايات ، وتوسيع مدى إلغاء الرقيق ، ليشمل المناطق الغربية الأمريكية . والكاتب السياسى الروسى ألكسندر هِرْزن ، وبطل الانتصار اليابانى على الأسطول الروسى سنة ١٩٠٥ الأدميرال توجو هيهاشيرو (ت ١٩٣٤) ، وشارل ستيوارت بارنل فى أيرلندا ، وكيرهاردى فى إسكتلندا (أبو الاشتراكية الاسكتلندية مع كاننجهام) ، وجون ستيورات ميل فى إنجلترا ... وغيرهم .

من الحق أن يقال إن الخديوى إسماعيل ـ فى مصر ـ ساعد بالمال والاحتمال ـ فى فترة من حكمه ـ على ظهور ونمو الصحافة الحرة الشعبية فى



*الثوار الاشتراكيون فى باريس يحطمون تمثال نابليون (١٨٧١)



* فى القاهرة أواخر القرن ١٩



توجو هيهاشيرو

مواجهـة الاحتلال، (كما فعل ذلك مع سليم النقاش ، وأديب إسحق ، وأحمد فـارس الشدياق ...) . وهذه الصحـافـة الشعبية بدورها أسهمت فى إيقـاظ وتكوين الرأى العام ، الذى بلغ ذروته وأكبر انتصاراته فى ثورة ١٩١٩ .

ومن بين الصحـافـة الحرة الجريئة التى كـانت تشـدد فى نقـد الوزيرين الأجنبيين بالوزارة المصريـة ـ وكـان تعيينهما حسب شروط الاحتـلال ـ جريدة (الوطـن) لميخائيل عبدالسيـد ، وجريدة مصر ، وجـريدة التجارة .



وفى عام ١٨٧٨ تألفت هيئة شعبية بـاسم « الجمعية الوطنية » أو الحزب الوطنى من أعضـائهـا شريف بـاشـا (وله دور سيـاسـى وجماهيرى وطنى كبير) ، وشاهين باشا ، ومحمد لطفى باشا ، وراغب باشا ، وسلطان باشا .



باخرة تدخل البوغار السكندرى سنة ١٨٩٨ .

وفى الإسكندرية تألف « اتحاد الشبيبة المصرية » برئاسة عمر لطفى باشا محافظ الإسكندريـة ، ومن أعضـائـه : إبـراهيم أبو هيف ، وإبـراهيم بك مسعود، ومحمـد بك شوبـاش ، وعبدالغفار الغـريانى ، وقد دعَـتْ لجنته إلى الاستقلال الاقتصادى ، وإنشاء بنك (مصرف) وطنى للمصريين (١٨٧٩).

وفى الإسكندرية أيضـا (١٨٧٨) أنشئت الجمعيـة الخيريـة الإسلاميـة



* الإسكندرية أوائل القرن العشرين

بدعــــوة من الكاتب الأديب الصحافى عبدالله النديم ، وبعض أثرياء المدينة ، لمقـاومـة الطغيـان الأجنبى بكل صـوره ، وفتْح المدارس الحرة لتعليم البنين والبنات ، وتهذيب الأخلاق ، ومسـاعدة الفقـراء (وهى غير الجمعية الخيرية الإسلامية الحالية التى تأسست عام ١٨٩٠) .

وفى القـاهرة ١٨٨٢ ، ظهـرت هيئة شعبيـة باسم « جمعيـة المقـاصـد الخيرية» ، ومن أعضـائها : الشيخ محمـد عبـده . والشيخ محمد عبـده ، هو امتـداد لعلماء وشيوخ سيـاسيين كبار ، سبقـوا بأداء دورهم فى الدفـاع عن الشعب وحقـوقه ضـد استبداد الحكام، وضـد جبروت الاحتلال ، بل وضـد مظالم الدولة العثمانيـة ذاتها. ومن أمثال هـؤلاء الذين لا ينساهم التـاريخ : الشيخ المنصـــورى ، والشيخ على الصعيـــدى ، والشيخ الـدردير ، والشيخ العروسى ، والشيخ عمر مكرم ، والسيد البكرى نقيب الأشراف .. وقد ذكرت صحيفـة البروجـريه الفرنسيـة المصرية (ظهـرت عـام ١٨٦٩ ، واتجاههـا معـارض للخديـوى إسماعـيل) فى ديسمبر ١٨٨٩ ، قالت : « إن المصريين بدأوا يهتمون بالسياسة ، ويترقبون الأخبار الواردة من الآستانة ، ويعلقون عليها : إن الرأى العام يتكون فى مصر».

وكان لظهور رجال ، مثل : عبـدالسلام المويلحى،صاحب الصوت الوطنى المجلجل فى مجلس شـــورى النواب (أو مجلس النواب المصرى) ، كـــان له تأثير كبير على الرأى العام . ورجل مثـل شريف باشا (رئيس وزارة ١٨٨٩)



عبد السلام المويلحى (باشا)



محمد شريف باشا

يستحق الإشادة بمآثره بالتفصيل مستقبلاً إن شاء الله ، حتى تعتز الأجيال اللاحقة بمن سبقهم من الرجال العظام .وقد كتب عنه الشيخ محمد عبده فى مذكراته : « كان شريف باشا ـ رحمه الله ـ من أقوى عوامل النهضة التى انقلبت إلى فتنة » .وشريف باشا هو واضع أول دستور فى مصر على أحدث المبادىء العصرية .

العالم الإسلامى

ذاق العالم الإسلامى مرارة الضَّعف والانكسار فى القرن التاسع عشر ، حتى منتصف القرن العشرين تقريباً ، فى الوقت الذى نهضت فيه دول العالم الغربى وروسيا واليابان ، سياسيًّا ، وعسكريًّا ، واقتصاديًّا ، وتكنولوجيًّا ، واجتماعيًّا ، فتعرضت الحضارة الإسلامية لهزات عنيفة متلاحقة ، ليس فى أطراف العالم الإسلامى وحسب ، بل فى قلب هذا العالم الذى أحاطت به مطامع القوى الكبرى الراصدة المترقبة ، وهى تعلم يقيناً أن حضارة الإسلام (وإن وهَن المسلمون) فريدة رشيدة ، مستعصية على الإبادة والزوال ، كما حدث مع حضارات الفراعنة أو الإغريق والرومان ، لأنها فى جوهرها خالدة آبدة ، لا تغفو ولا تنام ، لن تندثر ولن تموت ، بفضل الله .

كانت طلائع زحف تلك القوى الإمبريالية على العالم الإسلامى ممثلة فى

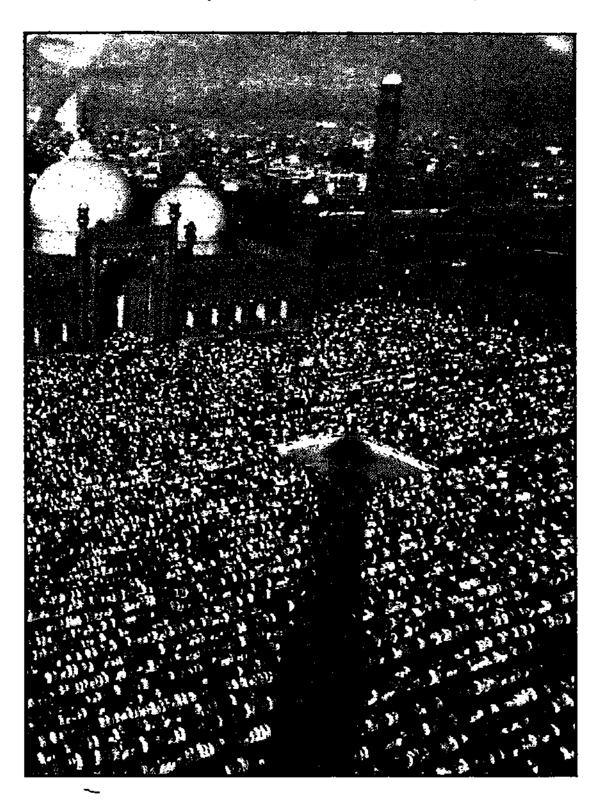


* السيطرة الأوروبية على العالم الإسلامى (حتى ١٩٢٠)

وفـود الخبراء والمستشـارين ، والعلماء المنقِّبين ، والمفكرين المتحـذلقين ، وطـوائـف المستشرقين ، وجماعات المبشرين .. كلها تبحث وتفتش ، وتجمع المعلومـات ، وتثير القـلاقل والفتن والمنـازعـات ، وتبهـر الشعـوب الغـافلة المتخلفة ، بما تحمل إليهـا من معارف جديدة،وتكنولوجيات حـديثة ، وأفكار مـزيَّنة . وجرت محاولات للإصـلاح والتجـديد هنا وهناك فى العالم العـربى والإسلامى ، لكنهـا كانت انتفاضـات وقتية باهتة ، سرعـان ما زالت آثارها ، وأخمدت أنفاسها ، فانطفأت أنوارها لأسباب كثيرة .

وفوق مـا حدث فى تاريـخ الحضارات الكبرى ، واجهت حضـارة الإسلام قـوى عنيـدة متجمعة ، انتهـزت فـرصـة ضَعف المسلمين وتخلفهم علميًّـا ومـاديًّا وصناعيًّا ، مع تفـرقهم وتنازعهم ، وشـدة الضغـائن والخصومـات بينهم ؛ فغالبتهـم تلك القوى بكل الوسـائـل ؛ وتغلبت . فلما سادت وتمادت ، حاولت ـ وكثيرا ما نـجحتْ ـ تشكيل العالم الإسلامى على نهجها وصورتها .

إن البداية فى غزو العالم الإسلامى فكريًا واقتصاديًا وعسكريًا ، كانت مع الحملة الفرنسية التى جاءت إلى مصر والشام بعد زمن طويل من الحروب



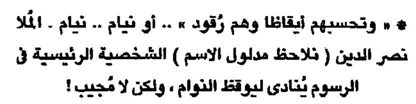
الصليبية الفاشلة ، ثم استمرت الضربات تتلاحق ، يتلقاها العالم الإسلامى من الإنجليز (فى الشرق الأوسط، وأفريقيا ، والهند) ،ومن الهولنديين (جنوب شرق آسيا) ، ومن روسيا القيصرية (التى احتلت مناطق القوقاز ، وجزءاً كبيراً من إيران ، وأذربيجان ، ووسط آسيا) . وتقدم الفرنسيون يقتطعون نصيبهم فى شمال أفريقيا : الجزائر وتونس والمغرب ، ثم زحفوا لاحتلال مناطق الصحراء الكبرى الأفريقية حتى السنغال ، وكلها ممالك إسلامية ، حتى وصلوا إلى حدود السودان ، الذى فرضت بريطانيا نفسها عليه فى الحكم مع مصر ، ثم فصلته عنها ، واستأثرت به احتلالاً واستعماراً .

ولم يَبْق فى أواخر القرن التاسع عشر إلا بقايا الدولة العثمانية المريضة التى توشك على الاحتضار ، فترصدت لها عيون القوى الأوروبية الكبرى آنذاك . ولحقت بها فى انتزاع ولو « شرائح » من الغنيمة ، دول صغيرة الحجم فى الميزان الدولى ، مثل إيطاليا (بسطت حمايتها على ليبيا) ، وإسبانيا

(محميات صغيرة شمال المغرب وجنوبه) .

وفى سنة ١٩٢٠ اختفى اسم « الدولة العثمانية » من العالم ، حيث تقلصت فى مساحة محدودة ، عُرفت ـ وما زالت ـ باسم : تركيا . ولم يبق «مستقلاً » من إمبراطورية العالم الإسلامى الفسيحة كلها إلا : أفغانستان ، واليمن (بدون عدن) ، ووسط وغرب وشمال الجزيرة العربية .. فقط !.





* « وتحسبهم أيقاظا وهم رُقود » .. أو نيام .. نيام . المُلا نصر الدين (نلاحظ مدلول الاسم) الشخصية الرئيسية فى الرسوم يُنادى ليوقظ النوام ، ولكن لا مُجيب !



* اسماعيل بك غسبرنسكى داعية الإنقاذ والإيقاظ يتلقى الإهانة من المتخلفين أدعياء العلم المستور .

ويوجد بين أيدينا بعض صحف ومطبوعات تلك الفترة الزمنية الغابرة . والصحافة ـ كوسيلة إعلامية بارزة ـ مرآة ووعاء : مرآة تعكس صورة المجتمع ، وما يدور فيه ويدخل عليه ، ووعاء يختزن الأحداث والوقائع والأفكار والآراء والأشخاص والأحوال، يوماً بيوم ، ليكون حكم التاريخ بعد ذلك لها أو عليها.

زادت وانتشرت أعداد الصحف والمجلات فى العالم الإسلامى شرقاً وغرباً فى النصف الثانى من القرن ١٩ وأوائل العشرين . فقد شهد مطلع القرن مثلا: نحو ١٥٠ صحيفة ومجلة منتشرة فى مصر ، و١٦٠ فى آسيا الوسطى ،

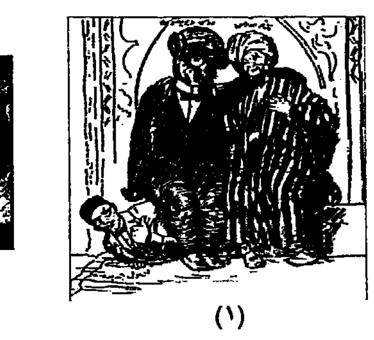


* ممثل الحكومة الروسية الراغبة فى التوسع يسحب البساط من تحت المسلمين القرغيز ، ويطردهم قائلا : « اخرجوا من هنا .. فالأوكرانيون يريدون هذه الغرفة» ! (نفس الذى فعله اليهود بعد ذلك بسنوات فى فلسطين !) .

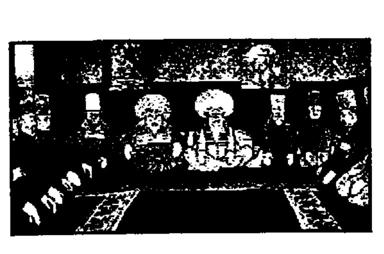
* الصراع بن التعليم الحديث والقديم فى عليكرة بالهند : الأول يمسك بطرف الهلال (شعار المسلمين) يرفع عاليًا ، ويحاول إنقاذهم ، والثانى إلى اليسار يضغط ليقتل.

و ٢٧٠ فى إيران ، وأكثر من ذلك فى تركيا العثمانية ، وأكثر من مائة فى مناطق المسلمين فى الصين (بين ١٩١٣ ـ ١٩٢٩) .

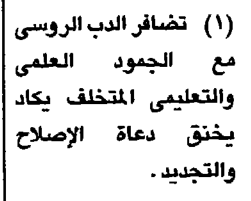
ولعل صحيفة تتار القرم الإصلاحيين ، واسمها « الترجمان » ، التى



(١)



(٢)



(١) تضافر الدب الروسى مع الجمود العلمى والتعليمى المتخلف يكاد يخنق دعاة الإصلاح والتجديد.

(٢) كانت شكوى العلماء المتحذلقين المستريبين أن الأولاد الذين يذهبون يوميًا إلى المدارس الحديثة فسدت عقولهم. وتراهم هم فى عزلتهم ومجلسهم غفاة غافلين ،وكثيرًا ما تصادموا مع إخوانهم العلماء المستنيرين.

أنشأها عام ١٨٨٣ إسماعيل بك غسبرنسكى ، لعلها تصلح مثالاً على أشهر الصحف فى النقد اللاذع ، وأكثرها جاذبية للجماهير . وعلى المستوى نفسه كانت «جريدة معهد عليكرة » بالهند ، أنشأها أيضاً أحد دعاة الإصلاح هناك عام ١٨٦٦ ، وجريدة « الجواب » العربية ، التى حظيت بمكانة كبيرة بين القراء فى بلاد كثيرة .

وهذه الرسوم كاريكاتورية من صحف تفليس بالقوقاز ، ومن شمال الهند ، فى الفترة بين ١٩٠٦ ـ ١٩١٣ ، تعكس أفكار وآراء ذلك العصر ، وهى تعبِّر بحرية كبيرة وسخرية ذكية ـ وموضوعية ـ فى النقد ، ربما لأنها كانت تصدر فى أطراف العالم الإسلامى فى منأًى عن قبضة السلطات الحاكمة الضاغطة الباطشة فى قلب العالم الإسلامى ومركزه . وهى تؤكد ـ من ناحية أخرى ـ الإحساس السائد الغالب حينذاك ، بأن العالم الإسلامى ، رغم الاستعمار ، والضَّعف ، والتخلف ، والمحَن ، وعلى اتساعه ، واحد فى الأحزان والأفراح ، فى المشاعر والرغائب ، فى إدراك المخاطر والمثالب ، فى الحرص على الإصلاح والنهوض ، وكسر العوائق والقيود .

الاكتشافات والاختراعات الكبرى (١٨٨٠-١٩١٥)

السنة	الاكتشاف أو الاختراع	المكتشف أو المخترع
١٨٧٩	المصباح الكهربائى	توماس إديسون
١٨٨٠	السيسموجراف (جهاز قياس الزلازل)	توماس جريئ
١٨٨١	الحصانة ضد مرض الماشية : الجمرة	باستير
١٨٨٢	المكواة الكهربائية	هارى سيلى
	- اكتشاف البكتيريا العصوية للدرن (السل)	كوخ
١٨٨٣	البندقية الآلية	سير هيرام ماكسيم
١٨٨٤	قلم الحبر	لويس وترمان
	- محرك الاحتراق الداخلى	جو تليب ديملر
١٨٨٥	آلة بمحرك بترولى	ويليام بوروف
		جو تليب ديملر
١٨٨٦	الدراجة النارية (الموتوسيكل)	جوتليب ديلمر
	- السيارة بمحرك بترولى	كارل بنز
١٨٨٧	الفيلم السلولوزى (للتصوير)	جودوين
	- اكتشاف الموجات الكهرومغناطيسية	هرتز
١٨٨٨	الإطار المطاطى للعجلة	جون دنلوب(وقال : إن العالم سيمشى على الهواء) !
	- محرك بالتيار الترددى	نيقولا تسلا
	- مسجل الجراموفون	إميل برلينر
١٨٨٩	الفيلم الفوتوغرافى مع أول كاميرا كوداك	جورج إيستمان
١٨٩٢	السلم المتحرك (صعودا وهبوطا)	جيش رينو
١٨٩٣	السينيما توجراف (آلة العرض السينمائى)	الأخوان : لوميير
١٨٩٤	النول الآلى (الأوتوماتيكى)	ج . نورثروب
١٨٩٥	أول سفينة توربينية تنزل البحر	شارل بارصونز
	- اكتشاف أشعة (X) السينية	ويليام رونتجن
	- التلغراف اللاسلكى	ماركونى
	- موس (شفرة) الحلاقة	كينج جيلت
١٨٩٧	اكتشاف الإلكترون	جوزيف طومسون
١٨٩٨	محرك الديزل	رودولف ديزل



* جون دنلوب يركب دراجة بعجلتين هوائيتين من اختراعه .

	ـ اكتشاف إشعاع الراديوم	كورى وزوجته ميرى
١٩٠٠	السيلوفان	ج . براندنبرجر
	ـ سفينة الفضاء (المنطاد الهوائى)	جراف فرديناند فون زبلين
	ـ نظرية الكم (quantum)	ماكس بلانك
	ـ صدور كتاب : تفسير الأحلام	فرويد
	ـ الجرار	بنيامين هولت
١٩٠١	اختراع الراديو (اللاسلكى)	ماركونى
	ـ ابتكار المكنسة الكهربائية (بالشفط)	هربرت سسيل بوث
	ـ مجموعات الدم	كارل لاند ستينر
	ـ الآلة الكاتبة الكهربائية	ثاديوس كاهيل
١٩٠٢	الهورمونات	ويليام مادوك، إرنست ستارلينج
	ـ اكتشاف طبقة الإيونوسفير (بالغلاف الجوى)	آرثر إدوين، أوليفر هيفيسايد
	ـ الراديوم	بييروماري كورى
	ـ أجهزة تكييف الهواء	ويليام كازير
	ـ أسطوانة الكبْح (الفرامل) للسيارة	فردريك لانشستر
١٩٠٣	أول طائرة تطير بنجاح	أورفيل، ويلبوررايت
	ـ جهاز رسم القلب الكهربائى	ويليام أينثوفن
١٩٠٤	الصمام الثنائى المفرَّغ	جون فلمنج
١٩٠٥	نظرية النسبية	ألبرت أينشتين
	ـ السيليكون	فردريك كيبنج
	ـ الرغوة الكيميائية لإطفاء الحريق	الكسندر لورنت
	ـ جهاز الطرد المركزى المائى	هرمان فوتينجر
١٩٠٦	التجفيف بالتجميد	آرسن د. ، جورج بوردا
	ـ أفلام الرسوم المتحركة	جيمس بلاكتون، والتربوث
	ـ إدخال الصوت (وليس النطق) على أفلام السينما	أوجين لوسْت
	ـ اختبار الكشف عن مرض الزهرى	أوجست فون واسرمان
١٩٠٧	الغسالة الكهربائية	شركة آلات هورلى



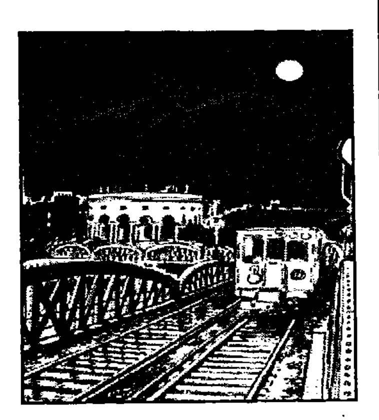
فرويـد

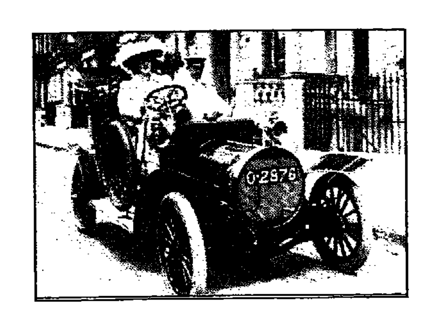


ماركونى واختراع الراديو

	ـ التصوير الفوتوغرافى الملون	لوى لوميير
	ـ جهاز الفاكس: إرسال الصور طِبْق الأصل	آرثر كورْن
١٩٠٨	البكْليت : مادة بلاستيكية تصنع منها أقلام الحبر والتليفونات ومقابض المظلات ...	ليو بيكلاند
١٩٠٩	النشادر الصناعى	فريتز هابر
	ـ السبب فى حُمى التيفوس	شارل نيكول
١٩١٠	فيروس الأورام	فرانسيس روس
	ـ نظرية الجينات الوراثية	توماس مورجان
	ـ أنوار النيون	جورج كلود
١٩١١	الأشعة الكونية	فيكتورهيس
	ـ نظرية تكوين الذرَّة	إرنست رثرفورد،بوهر
	ـ فكرة وجود الثقب الأسود الكونى	جون ويلر
	ـ فَرْط توصيلية (حالة من المقاومة الكهربائية الضئيلة فى بعض المواد، كالرصاص والزئبق عند تبريدها فى درجة حرارة قرب الصفر المطلق)	هيك أونس
	ـ اختبار بنيت للذكاء	ألفريد بنيت
	ـ الحاسبة الأوتوماتيكية (عمليات الجمع والقسمة آلية بالكامل)	جاى مونروى
	ـ الطائرة أحادية السطح (جناح غير مزدوج)	ليون لوفاسير
١٩١٢	فيتامين ب ١	كاز بمير فونك
	ـ قاطرة الديزل	شركة شمال بريطانيا للقاطرات
١٩١٣	الفولاذ (الصلب) الذى لا يصدأ	هارى بريرْلى
	ـ فيتامين ا (A)	توماس أوزبرن،لافاييت مندل
	ـ تصنيف النظائر المشعة	جورج فون هفْسى،فردريك بانت
	ـ خط التجميع للإنتاج بالجملة	هنرى فورد
١٩١٤	حمالة الصدر (للنساء)	مارى جاكوب
	ـ آلة التصوير ٣٥ مم (لايكا)	أوسكار بارناك
	ـ قاذفات اللهب	د . فون تابِن

١٩١٥	تعديل السعة (AM) فى الإذاعة اللاسلكية (تعديل حامل الموجات بتغيير سعته)	هندريك جوهانز







ميراث العلوم ، وأعاجيب الوراثة

بميراث كبير من المعارف والمكتشفات والعلوم ، هذا القرن بدأ . وكما استهلَّ فى عامه الأول بإعلان نبأ عن توصل بحوث ثلاثة علماء فى ثلاث دول مختلفة (فى هولندا، وألمانيا ، والنمسا) إلى تأكيد نظرية « جورج منْدل » عن الوراثة وآثارها (دون معرفة أى شىء عن أسلوب أو « ميكانيكية » عملها)، كذلك يأتى ختام القرن ـ قرن العلوم المبهرة ، والتكنولوجيا المتقدمة ـ بإثارة ضجة كبرى عن استنساخ حيوان كامل النمو سليم الحياة ، من حيوان أم ، مباشرةعن غير الطريق الطبيعى المعروف بالتلقيح. وثار جدل شديد صاخب فى العالم كله : هل سيتحقق ذلك قريباً مع الإنسان ؟ ، وهل هى قدرة بشرية جديدة تُعارض أو تُنافس قدرة الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ وتَفَرده بالإيجاد والإبداع ؟ .

قبل الإجابة عن السؤال الأول ، نتوقف قليلاً عند السؤال الثانى : هل حقا قفز الإنسان فى نهاية القرن العشرين قفزته الهائلة تلك بنجاحه فى عملية

1901, M. Mendel confirmé.

Trois naturalistes ont retrouvé indépendamment les uns des autres, et sur des exemples différents, les lois que Georg Mendel avait établies pour l'hérédité des caractères du Pois. Hugo de Vries, Hollandais, a travaillé sur les Onagracées et retrouve les variations discontinues (en nombres entiers), confirmées par l'Allemand Carl Correns et l'Autrichien Eric von Tschermak. Le mécanisme même de l'hérédité reste entièrement inconnu.

* الصحيح رياضيًا أن القرن العشرين يبدأ من عام ١٩٠١ ، لكن الناس تعارفوا ـ أو شاع بينهم ـ أنه يبدأ من عام ١٩٠٠ ، ولا ضير أن يؤخذ أحيانًا بالعُرف . وهذا ما نشر عام ١٩٠١ عن تأكيد صحة نظرية مندل عن الوراثة.

التكاثر الحيواني بالتكرار المتطابق مع الأصل (وليس بالتزاوج والإخصاب) ، متحديا ببراعته ما تؤكده الأديان السماوية من قدرة الله الخالق وحده دون سواه ؟؟ .

قيل عالميًّا كثير فى هذا الشأن ، واستَعَر الجدل والدجل ، واحتدم النقاش والهِراش .. ففرح بحُجته البعض واغتبط ، بما ظنه طعْن فى الدين بلا شطَط . وجنح آخرون إلى ما تيسر من تفسير وتأويل ، لعله يدفع الحُجة ويقيم الدليل . وتحير فريق من الناس ، من المسلمين صادقى الإحساس ، الذين سرعان ما يستثيرهم الوسواس الخنَّاس. والمسألة ـ بحمد الله ـ لا غموض فيها ولا التباس، إذا ما رجعنا إلى ثوابت الأصول فى الأساس .



صورة حقيقية للجنين حيا فى بطن الأم وعمره ١٤ أسبوعا .

نقول ـ مستعينين بالله ـ : إن الإسلام خاتم رسالة السماء إلى سكان الأرض ، وبكل الجلال والجمال والقوة والتبيان ، لا يقف أبداً موقف «دفاع» أو «تبرير»، خاصة مع أولئك الذين يصرخون ويصخبون عن هوى سقيم ، وقصد ذميم، ونية سيئة ... لأنه ـ ككل لا يتجزأ ـ أرسى القواعد العامة ، وأقام الأركان الثابتة ، لم يفرط فى شىء ، ولم يغفل عن بيان شىء . وفى هذا الموضوع بالذات ـ الذى نحن بصدده ـ لا نسرع باللجوء أولاً إلى قوله تعالى فى سورة المؤمنون : «.. فتبارك الله أحسن الخالقين » ، ثم نقول : انظروا ..! ها هو القرآن يحترز، ويصرِّح بأن الله يُجرى معجزات يصنعها بعض خلْقه ، مثلما أحيا أحدهم الموتى، أو نادى غيره الطيور المقطعة الأجزاء الملقاة فوق الجبال ، فجاءته عقب ندائه تطير وتحلِّق .لا . ليست هذه حُجتنا ، ولا برهاننا فى البداية من خلال تلك الآية الكريمة ، لأنها وردت فى معرض الحديث عن «معجزة » خلْق الإنسان ، و« إبداع » الخالق ـ جل وعلا ـ فى إحكام هذا الخَلْق مرحلة بعد مرحلة ، وصياغة بعد صياغة ، مما وضَّح جانباً كبيراً منه علم الطب ، وعلم التصوير فى القرن العشرين ؛ فجاء ختام الآيات : « ... فتبارك الله أحسنُ الخالقين » ، أى أحسن المبدعين فى ذروة الدقة والإحكام والعلم ، مهما تتابعت المراحل، وتطلب الأمر استمرار زمن وتطور نمو فى ظلام الأرحام . وهى بحق «معجزة » تتحدى ـ فى هدوء وصمت ـ كل قدرات البشر على امتداد العصور والقرون ، وتتكرر كل يوم ، بل كل ساعة .

وهنا تبرز أمامنا كلمة « المعجزة » ، وكلمة « التحدى » . وهما ـ من منظور الإسلام والإيمان ـ قائمتان إلى يوم القيامة . كيف ؟ .

لأن كلمة « خلْق » و« خَلَق » تعنى : إيجاد الشىء من عدم على غير مثال

سابق . وكل شيء حي ، وكل كائن حي في عالمنا المدرَك ـ من وحيد الخلية إلى الإنسان المكرَّم ـ خُلق ووُجد في هذا العالم (والله يعلم ما بالعوالم الأخرى) بقدرة الله تعالى من عدم ، وعلى غير مثال سبق . وقدكفانا علماء هذا القرن العشرين العالميين الكبار ـ وبعضهم حائز على جائزة نوبل ـ مشقة الرد ، الذي أصبح ممجوجاً مرذولاً على أدعياء الوجود بالصدفة ، والوجود بالتطور ، والوجود بالتناسخ ، مما ثار وفشَى واستشرى في القرن التاسع عشر ، وأوائل القرن العشرين .



النعجة دوللي والعالم البريطاني الذي أثار في منتصف التسعينيات ضجة عالمية حول الاستنساخ .

وماذا فعل علماء « الاستنساخ » مؤخراً ؟ . تعاملوا ـ كما سوف نرى ـ مع خلية « حية» ، « وبويضة » حية ..أي مع خليتين حيتين مخلوقتين ـ بقدرة الخالق عز وجل ـ وموجودتين بالفعل في واقع الحياة . هل يستطيع أحد ادِّعاء القدرة ـ في عصر التكنولوجيا الحديثة ، وتفتيت الذَّرة ، والصعود إلى القمر ـ على « خلْق » ، أو « إيجاد » خلية حية واحدة ـ فقط واحدة ـ وهو يعرف الآن مكوناتها وأوزان عناصرها حق المعرفة ؟؟ . هل يستطيع ؟!.. إذن لا خلق هنا في عملية الاستنساخ ولا خالق .

وهذا يردنا إلى « أصل » المسألة ، و« أساس » التفكير الإيماني الرشيد السديد ـ كما علمنا القرآن الحكيم ـ سواء في موضوع الاستنساخ الذي أثير في أواخر القرن العشرين ، أم في أي موضوع آخر يستجد إلى القرن العشرين بعد الألف ، إن شاء خالق الأرض والسماوات ومن فيهن أن يمتد عمر الأرض وأهلها إلى ذلك الحين ! .

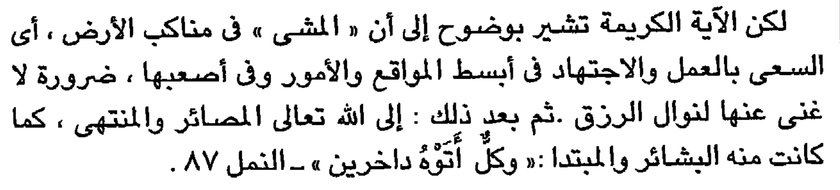
في القرآن الكريم آيتان خالدتان تُريحان المجادلين بالحسنى ،وتردَّان المعاندين ـ في عَنت ولجاجة ـ على أعقابهم ؛ فينقلبوا خاسرين ، أو لعلهم يتدبرون بالحُسْنى ؛ فيسلِّموا طائعين . يقول تعالى ـ منذ أربعة عشر قرناً ـ في محكم التنزيل ، في سورة المُلك : « هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً ، فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه ، وإليه النشور » .ولحكمة ما ، تأتي تلك الآية الكريمة في سورة « المُلك » . والعنوان يوحي بأن « الملك » لله ، مالك السموات والأرض وما بينهما ومن فيهن ، ومالك ـ أو مَلِك ـ يوم الدين ، يوم القيامة ، يوم « النشور » . والآية الثانية : « إن في خلْق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأُولي الألباب » ـ آل عمران / ١٩٠ .

وانظر ـ هداك الله ـ إلى كلمة « جعل » ، وكلمة « ذلولاً » : جعل هنا بمعنى: « قَضى ،وأَمَر ، وسخَّر بعد أن أوجد » .هكذا بالنسبة للأرض ، ثم ذلَّلها

«لكم» ، للناس جميعاً ، المؤمن والكافر ، العابد والعابث ، العالم والغافل .. جعلها طائعة منقادة لمن أراد أن ينتفع بها ـ وبما فيها وما عليها ـ إن شاء أن يزرع بها حدائق وحقولاً تُزهر وتُثمر ، استجابت ، إن أحسن التدبير والتعمير ، وإن شاء أن يفسدها ويُخربها ويزرع حقول ألغام لم تقاوم ولن تدفع الإتلاف والتدمير .. فإذا ما أصلح فى الأرض ـ بكل مكوناتها ومخلوقاتها ـ ومشى فى مسار عمله وإصلاحه واجتهاده ، عاد عليه ذلك بالنفع والكَسب ، فأكل ـ أى نعِم وأفاد واستفاد من رزق الله الناتج ، وإن هو أفسد فى الأرض ولوَّث ، ناله نصيب مما جنت يداه .. لأنه هكذا « جُعلت الأرض ذلولاً » . واختيار كلمة « الرزق » فى سياق الآية « وكلوا من رزقه » يلفت النظر إلى أن نتائج الأعمال الظنية فى هذه الحياة الدنيا مرهونة بإرادة الخالق عز وجل ، لأن «الرزق » غير « الكَسْب » .. فالرزق هو ما يأتيك من غير توقع ، أو من غير ما تؤكده معلوماتك ، وخبراتك ، وحساباتك ، وتقديراتك .. فهنا جانب متروك للظن والاحتمال والنجاح أو الفشل .أما «الكَسْب » ، فهو مقابل عمل معلوم مقطوع به لا ظن فيه ولا ترجيح . إن صائد الأسماك من البحر يعمل ويجتهد ويشقَى ، ولا يستطيع أن يقول : إننى سوف « أكسب » كذا من رحلة الصيد هذه ، لكنه حتما يقول : أرجو أن يكون « رزقى » منها طيباً واسعاً . أما عامل المصنع ، أو المتجر ، أو المكتب ، فهو مطمئن إلى أن « كسبه» فى آخر اليوم ، أو الأسبوع ، أو الشهر مقداره كذا، مقابل عمله ، إذا سارت الأمور على طبيعتها على النحو المقدور .



كرتنا الأرضية كما تبدو من الفضاء الخارجى .



لكن الآية الكريمة تشير بوضوح إلى أن « المشى » فى مناكب الأرض ، أى السعى بالعمل والاجتهاد فى أبسط المواقع والأمور وفى أصعبها ، ضرورة لا غنى عنها لنوال الرزق .ثم بعد ذلك : إلى الله تعالى المصائر والمنتهى ، كما كانت منه البشائر والمبتدا :« وكلٌّ أَتَوْهُ داخرين » ـ النمل ٨٧ .

ما معنى هذا كله فى مجال الحديث عن الاستنساخ ؟ . معناه فى منظور الإسلام : أن الله تعالى خلق الإنسان ، وأسكنه الأرض ، وجعلها ذلولاً له .. فكلما مشى فيها هذا الإنسان طريقاً يُفضى إلى علم ، أو كشف ، أو معرفة سرٍّ من أسرار مكوناتها (على سطحها ، أو فى محيطها الحيوى ، أو فى جوفها ، أو فى واحد من مخلوقات الله عليها..) ،وأراد الله له التيسير ، أفلح وتمكَّن ، ونال من رزق المنْعِم ، فاستفاد وأفاد، يستوى فى ذلك معرفة خلط الماء بالسكر بالبن لعمل قدح من القهوة ،أو تمهيد مساحة من الأرض ،وإلقاء بذور القطن فيها ، ثم ريِّها ورعايتها حتى تثمر محصولاً تصنع منه ملابس



انفجار ذرى

وأغطية وسُتُر ، وسواء أفلح فى إعداد وجبة من « الكُشرى » (زراعة ، وصناعة،وتجارة ، وتسويقاً ، وطهياً) ، أو فتت ذرة صنع منها نظائر مشعة نافعة ، أو استولد طاقة محركة ، أو اخترع قنبلة رهيبة مدمرة ، وسواء نجح فى زرع أعضاء بشرية سليمة فى جسم بعض أجزائه تالفة مريضة ، أم استخدم ما مُنح من عقل وخيال وذكاء وفُطنة فى استنساخ « دوللى ـ Dolly» النعجة التاريخية الشهيرة من خلية انتزعها من ضرع أمها ،ثم أسكنها موضع نواة بويضة ، على نحو ما أوضحته التجربة ..

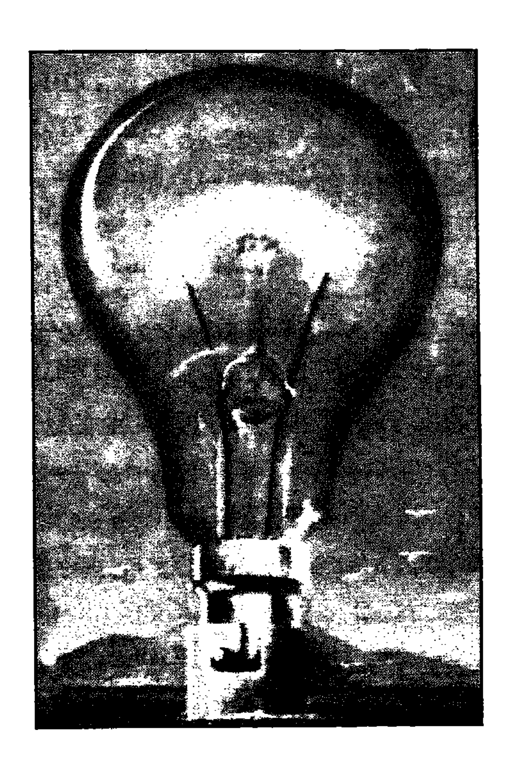
هذه جميعاً ـ وغيرها ، وما سوف يأتى ـ من مكونات الأرض ، ومن مخلوقات الأرض المذللة للإنسان .وقد أُمر أن ينظر ويتأمل ، ويفكر ويبحث، ويكتشف ويعمر ، وأن يصنع من خَلْق الله ما ينفع مخلوقات الله ، بشرط واحد: ألاّ يفعل ما يفسد ويضر، وألاّ يستخدم النعمة فى الإيذاء بِشرّ،ألاّ يطغى « بالرزق »؛ فيتكبر ويتجبر ؛ فتكون عاقبته وخيمة.. فقانون الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ لا يُحابى ، ولا يدارى ، ولا يحيد .. ففى سورة إبراهيم : «لئن شكرتم لأزيدنكم ، ولئن كفرتم إن عذابى لشديد » . والكفر هنا ليس الكفر بالله وحسب ، وإنما التنكر للنعمة وللعطاء الممنوح والرزق ، نتيجة لإفساده ، أو إنكاره ، والعبث أو الإضرار به ، لأن الشكر إعلان وإقرار ، يقابله الإخفاء والإنكار ، وهذا ما يوافق سياق الآية .. ولأن الزارع يسمًى فى اللغة كافراً، إذ هو يُخفى الحَب فى الأرض يزرعه ، والليل أيضاً كافر، لأنه يحجب ضوء النهار .. فيكون منطقيًا وقوع العذاب الشديد فى الدنيا قبل الآخرة . ويعزز ذلك قوله تعالى فى سورة طه :« فمن اتَّبع هُداى فلا يضل ولا يَشْقَى ، ومن أَعْرض عن ذِكْرى فإن له معيشةً ضَنْكا » ـ ١٢٣ ـ ١٢٤.

أما عن الاستنساخ فى النبات والحيوان ، وما انتهى إليه القرن العشرون فى هذا الشأن ـ وما زال يبحث ويجرب ـ فلسوف نتناوله بالتفصيل فى الجزء الخاص عن مسيرة العلم والتكنولوجيا فى هذا القرن .



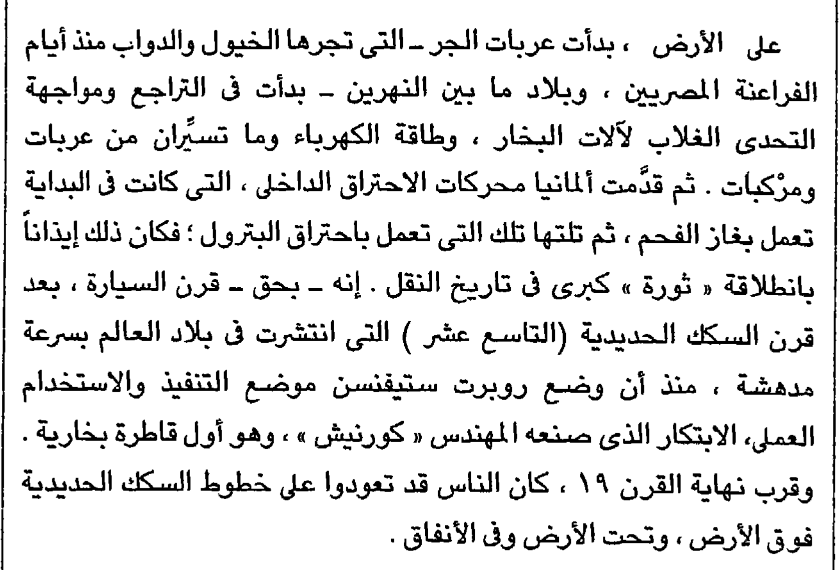
نجح الإنسان فى الوصول إلى القمر وفشل فى الوصول إلى قلوب جيرانه فى الإنسانية على الأرض!

كان ـ بحق ـ قرناً ثريًا بالاكتشافات والإنجازات العلمية وتطبيقاتها ، وبالمستحدثات التكنولوجية ، يفوق بكثير ما سبقه من كشف وإنجاز فى قرون مضت.. لكنه لم يبدأ من فراغ ، ولم تظهر إبداعاته فجأة .. فهو امتداد زمن متواصل، وسبقته أعمال وابتكارات، ومهَّدت له نظريات واختبارات .. فأكمل هو وأضاف ، وتزوَّد وزاد . وتلك سُنة الحياة ، وطبيعة التطور .. إذ كان مستحيلاً ـ ولا يطرأ على الخيال أو الفكر ـ أن يركب إخناتون دراجة بخارية (موتوسيكل) ، أو يحلِّق نابوليون فى مركبة فضائية من طراز أبوللو

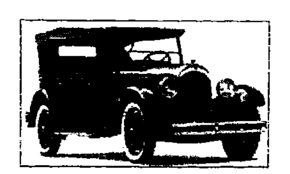


سبقت القرن العشرين أعوام مثيرة فى الكشف ، والاختراع ،والتصنيع ، والتجديد، والتطوير ، سريعة الإيقاع ، شديدة فى المنافسة.. فلما دخلت عناصرها تحت مظلة القرن العشرين ، أخذت تهدأ رويداً رويداً، وتنمو وتتكاثر على مهل .

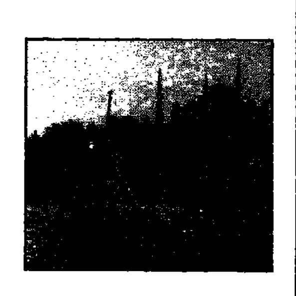
شهدت تلك السنوات الأولى من القرن العشرين إنجازات عملية وتكنولوجية كثيرة ومبهرة ، لم يستطع العقل الجمعى وقْتها أن يدرك أبعادها ، ولا مدى تأثيراتها ونتائجها .. لكنها ـ يقيناً ـ غيَّرت من شكل وشمائل وإيقاعات الحياة فى هذا القرن ، وما سوف يليه ، فى مجالات شتى . ويكفينا الآن أن نشير إلى مثال واحد ، إلى أن نتناول الموضوع ـ فيما بعد ـ بالقدر المناسب من التوسع والتفصيل : مجال النقل والمواصلات ..



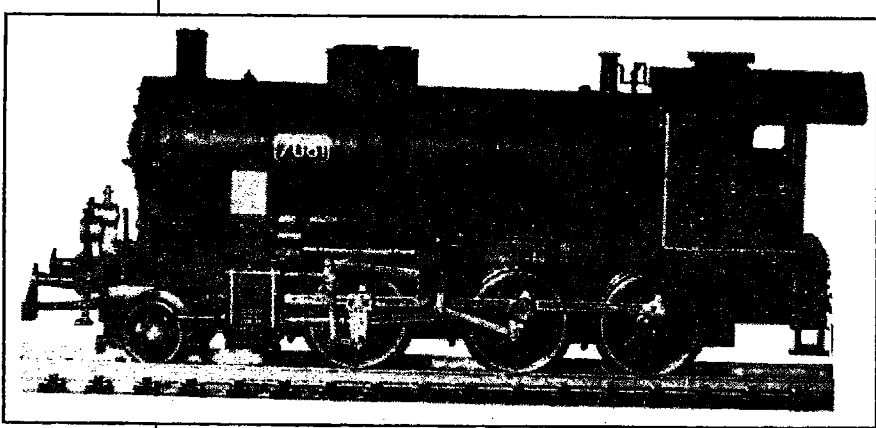
على الأرض ، بدأت عربات الجر ـ التى تجرها الخيول والدواب منذ أيام الفراعنة المصريين ، وبلاد ما بين النهرين ـ بدأت فى التراجع ومواجهة التحدى الغلاب لآلات البخار ، وطاقة الكهرباء وما تسيِّران من عربات ومرْكبات . ثم قدَّمت ألمانيا محركات الاحتراق الداخلى ، التى كانت فى البداية تعمل بغاز الفحم ، ثم تلتها تلك التى تعمل باحتراق البترول ؛ فكان ذلك إيذاناً بانطلاقة « ثورة » كبرى فى تاريخ النقل . إنه ـ بحق ـ قرن السيارة ، بعد قرن السكك الحديدية (التاسع عشر) التى انتشرت فى بلاد العالم بسرعة مدهشة ، منذ أن وضع روبرت ستيفنسن موضع التنفيذ والاستخدام العملى، الابتكار الذى صنعه المهندس « كورنيش » ، وهو أول قاطرة بخارية . وقرب نهاية القرن ١٩ ، كان الناس قد تعودوا على خطوط السكك الحديدية فوق الأرض ، وتحت الأرض وفى الأنفاق .



وفى الوقت نفسه ، ومع انتشار شبكات الطرق والسكك الحديدية ، أقيمت شبكات النقل عبر القنوات المائية . وبفضل التطور فى العلوم الهندسية والمائية ، شُقَّت القنوات العالمية الضخمة التى ربطت قارات العالم بحريًا ، مثل قناة السويس ، وقناة كورينث، وقناة كيل . وبدأ العمل فى قناة باناما ، لكنها لم تكتمل فى القرن ١٩ .

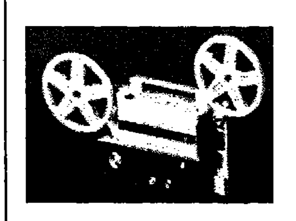


وامتد التطور بالضرورة إلى صناعة السفن ؛ فتطورت ، ونجح بناء السفن الحديدية الكبيرة . كما تطورت المحركات والآلات ، بعد ابتكار سير «شارل بارصونز » المحرك التوربينى البخارى البحرى ؛ فأصبح فى مقدور السفن ـ ذات المحركات قوة ٣٠ ألف حصان ـ أن تنقل الركاب والبضائع



بحمولة ١٢ ألف طن ، وبسرعة ٢٠ عقدة (٣٧ كم) في الساعة ، مما غيَّر تماماً مستويات السفر والنقل عبر القارات . ثم كان ميلاد السفن الضخمة والعملاقة التي تَعْبر المحيطات في سرعة وأمان ، وتتجاوز ٢٢ عقدة (٤١,٤ كم) في الساعة .

ثم اكتشف الإنسان أن سطح البحر لا يكفي . لماذا لا يغوص وينتقل في «مَرْكبات » تجتاز الأعماق ؟! فصنع الغواصات بفضل تقدم العلوم البحرية والهندسية ، التي واكبت اختراع الفونوغراف (الجراموفون) الذي يسجل الأصوات والموسيقى ، وابتكار آلة التصوير (الكاميرا) التي تسجل أشكال الوجوه ، ومشاهد الأحداث ، وبعد أن أضاءت الكهرباء الشوارع والمصانع والبيوت ، وتمكن الناس من التخاطب من مسافات بعيدة ، من خلال الهاتف (التليفون) ، ويسَّرت الآلة الكاتبة العمل والأداء داخل المكاتب ، وأراح الترام الكهربائي الناس من عناء الانتقال والتزاحم في طرقات المدينة ، وبعد أن أمْتَعت السينما جماهير المشاهدين في دور العرض ، وانتقلت الرسائل «بسرعة البرق » بين المدن والقارات بفضل التلغراف الكهربائي . وأخيراً ، في نهاية القرن (١٩) يقدم (ماركوني) للعالم نظام التلغراف اللاسلكي ، مع بداية ظهور السيارات [1].



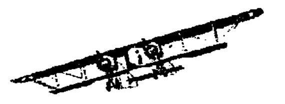
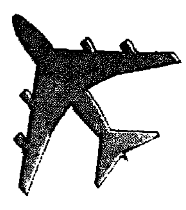
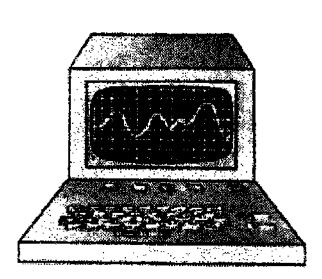
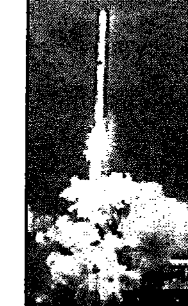
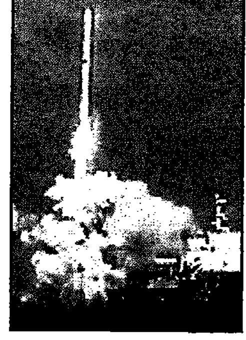
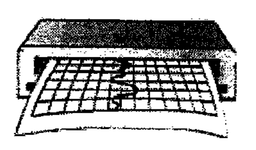
وبالرغم من هذه الإنجازات والتطورات العلمية والتكنولوجية المبهرة ، عظيمة النفع ، بقي مجال فسيح رحيب ، باءت كل محاولات اقتحامه المتكررة بالإحباط والفشل : أن يطير الإنسان ويحلِّق في الفضاء الجوي ،كما تفعل النسور والطيور .



لقد حاول بالفعل ، ونجح في الصعود إلى طبقات من الهواء غير بعيدة عن الأرض ، ولكن في غير مرْكبات ، وإنما في بالونات ترتفع بالغاز الساخن (كانت أول محاولة ناجحة للأخوين جاك وجوزيف مونجولفييه الفرنسيين، في ٢١ نوفمبر ١٨٧٣) ، لكنها لم تكن آمنة ، ولمسافات محدودة ، وتبعاً لتحسن الأحوال الجوية .

---

(١) القطار ، والسيارة ، والطائرة (مع التليفون والتلغراف والإذاعة اللاسلكية) هي التي أكسبت القرن العشرين طابع الدقة في حساب الوقت والوصف « بعصر السرعة » . وبينما كانت السيارات في أوائل القرن تجري بسرعة ١٠ و ٢٠ كم / ساعة (والناس معجبون بها) ، إذا بها في أواخر نفس القرن تتجاوز سرعة الصوت : ففي أكتوبر ١٩٩٧ نجح « آندي جرين » في قيادة سيارة صاروخية على أرض صحراء نيفادا الأمريكية (طول السيارة١٦,٥م) بسرعة ١٢٢٨ كم / ساعة أي أسرع من الصوت (سرعته عند سطح البحر ١٢٠٤ كم / ساعة) . والمشكلة هي : أين تستخدم تلك السيارة؟

مركبة المريخ تمشى على سطحه

ولم ييأس الرواد المبتكرون . واستفادوا من شكل البالونات الهوائية الأسطوانى، وفكروا فى اختراع « مركبة » هوائية تعمل بخزانات تُملأ بالغاز، وبنظام يتحكم فى القيادة والتوجيه .. فكانت أول محاولة ناجحة فى فرنسا بمركبة صنعها « شارل رنار ، وأ. س . كربْس » أطلقا عليها اسم « فرنسا » ، ذات مروحة واحدة كبيرة ، بمحرك قوته تسعة أحصنة (كهربائى) ، واستطاعا التحليق فى الجو يوم التاسع من أغسطس ١٨٨٤ لأول مرة ، فى جولة دائرية لمسافة ثمانية كيلو مترات ، وبسرعة أقصاها ٢٣,٣ كم / ساعة .

ثم تتابعت المحاولات .. ونجح فى فرنسا « ألبرتو سانتوس ريمو » البرازيلى الشاب، فى محاولته السادسة ، وحلّق بمركبته الهوائية(وكانوا يسمونها فى المحاولات الأولى : سفينة الهواء) ، بمحرك قوته عشرون حصاناً، يعمل بالبترول ، وبتبريد مائى، وأمضى فى الجو ثلاثين دقيقة ، محلقاً حول برج إيفل، وذلك فى عام ١٨٩٨ .

فى بريطانيا ، وفى الولايات المتحدة الأمريكية ، وفى ألمانيا ، كانت محاولات أخرى كُللت بالنجاح فى أوائل القرن العشرين . واستطاع الأخَوان الأمريكيان «أورفيل - وويلبورت رايت » الاستفادة من اختراع « ديملر » الألمانى للمحرك البترولى ، فنجحا عام ١٩٠٣ فى الطيران جوًّا . وهما أول من أطلق على المركبة أو « السفينة الهوائية » اسم « طيارة » أو طائرة ، التى انتهت فى أواخر القرن إلى تجاوز سرعة الصوت ، وإلى سفن الفضاء ، ورحلات أبوللو بالإنسان إلى القمر، ثم إلى مركبة متحركة على سطح المريخ! .

عالم القـرن العشرين
فجْر جديد.. وعصر فريد

من الأحداث والوقائع الكبرى (١٩٠٠ ـ ١٩١٤)

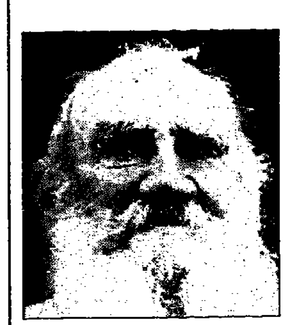
السنة	الوقائع
١٩٠٠	٢ يناير :صدور العدد الأول من جريدة (اللواء) صحيفة الزعيم المصرى الوطنى مصطفى كامل .
	ـ بريطانيا وألمانيا يشرعان فى سباق التسلح .
	ـ عثمان جلال يمصر باللغة العامية المسرحيات الفرنسية الكلاسيكية ، ويقدمها للجمهور
١٩٠١	تكوين الكومونولث الأسترالى
	ـ موافقة الدولة العثمانية على المركز المتميز لبريطانيا فى الكويت ، مقابل التعهد بعدم احتلالها .
١٩٠٢	ألمانيا تحصل من الدولة العثمانية على امتياز مد خط السكة الحديد الذى يربط بين البسفور والخليج العربى .
١٩٠٣	تأجير منطقة بناما للولايات المتحدة الأمريكية .
١٩٠٤	بداية الحرب اليابانية ـ الروسية (انتهت ١٩٠٥) . اليابان تطالب بكوريا ومنشوريا .
	ـ المعاهدة الإنجليزية ـ الفرنسية التى أطلقت يد بريطانيا فى مصر ، ويد فرنسا فى المغرب .
١٩٠٥	ـ وفاة الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية .
	ـ محكمة العدل الدولية تحكم بأن عُمان دولة مستقلة .
	ـ الثورة الروسية ضد القيصر (الثورة الأولى) .
١٩٠٦	١٣ يونيو : حادثة دنشواى (قرب منوف بمصر) ـ التفاصيل فى نهاية هذا الثَّبْت التاريخى .
	ـ أول أكتوبر : انتهاء الخلاف بين الدولة العثمانية وإنجلترا بالاتفاق على موقع طابا ، واعتبارها جزءاً من الأراضى المصرية ضمن الحدود الشرقية طبقا لمعاهدة لندن عام ١٨٤٠ ، واعتراف فرنسا وروسيا بذلك .
	ـ وفاة الكاتب المسرحى النرويجى هنريك إبسن .
	ـ مؤتمر دولى لبحث المسألة المراكشية (المغرب) ينتهى إلى الاعتراف بسيادة سلطان مراكش ، والاتفاق على إنشاء بوليس دولى للمرافىء بها ،ومصرف (بنك) للدولة ، رأس ماله أوروبى .
	ـ زلزال ضخم فى سان فرانسيسكو .
	تأسيس الحزب الوطنى فى مصر بزعامة مصطفى كامل .
١٩٠٧	ـ اضطراب مالى اقتصادى فى الولايات المتحدة ـ فرنسا تحتل الدا۔ البيضاء.



مواطنون كويتيون فى مطلع القرن يشربون القهوة فى سوق المدينة .



نهاية خط سكة حديد تركيا ـ الحجاز بالمدينة المنورة.

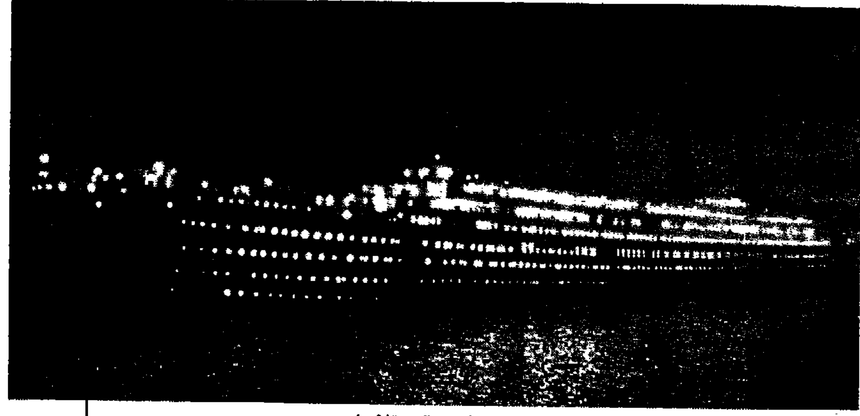


تولوستوىْ

السنة	الأحداث
١٩٠٨	ـ ١٠ فبراير : وفاة الزعيم الوطنى المصرى مصطفى كامل .
	ـ ثورة الشباب التركى .
	ـ اكتشاف البترول فى منطقة الخليج العربى .
	ـ بادن باول ينشىء حركة الكشافة .
	ـ إنتاج أول سيارة فورد طراز T.
	ـ سقوط نيازك ضخمة على سيبيريا .
١٩٠٩	روبرت بيرى ـ المستكشف الأمريكى ـ يكتشف القطب الشمالى .
	ـ الروس يحتلون تبريز (بفارس) .
١٩١٠	إنشاء اتحاد جنوب أفريقيا .
	ـ بداية الثورة المكسيكية (حتى ١٩١٧) .
	ـ ضم كوريا إلى اليابان .
	ـ أزمة دستورية فى بريطانيا .
	ـ وفاة الروائى الروسى : تولوستوىْ .
١٩١١	الثورة الصينية : سقوط أسرة المانشو الحاكمة ،وإعلان الجمهورية .
	ـ أول استخدام للطائرة كسلاح هجوم مقاتل فى الحرب التركية ـ الإيطالية .
	ـ هزيمة تركيا واحتلال إيطاليا لطرابلس وليبيا .
	ـ المستكشف النرويجى أمندسِن أول من يصل إلى القطب الجنوبى .
١٩١٢	مد خط لنقل البترول الإيرانى إلى ميناء عبدان (بمعرفة الإنجليز) .
	ـ حرب البلقان (حتى ١٩١٣) وهزيمة تركيا أمام تحالف : بلغاريا ـ الصرب ـ اليونان ـ مونتنجرو وتوزيع معظم أراضى الدولة العثمانية على المتحالفين البلقان .
	ـ غرق أحدث وأضخم سفينة ركاب فاخرة : تيتانيك فى أول رحلة لها (عبر المحيط الأطلنطى) ، وغرق ١٥١٣ من ركابها وطاقمها .
	ـ معاهدة الحماية الفرنسية على مراكش مع سلطانها عبدالحفيظ .
	ـ القائد الفارسى شجاع الدولة يحرر مدينة تبريز من الروس .
	ـ البحرية البريطانية تقرر استخدام البترول ـ بدل الفحم ـ كوقود للأسطول .
١٩١٣	اضطرابات عمالية كبيرة فى بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية .
	ـ بلغاريا تهاجم الصرب واليونان ، وتنهزم بعد تدخل رومانيا .
١٩١٤	ظهور أول أفلام شارلى شابلن .
	ـ افتتاح قناة بناما للملاحة الدولية .
	ـ نشوب الحرب العظمى (العالمية الأولى) ، واستمرارها حتى ١٩١٨ .

من رسالة بخط الزعيم مصطفى كامل .

مصر قبيل الحرب :	$\frac{٣}{٥}$ أرض مصر مملوك أو مرهون للأجانب ـ مجموع رأس مال الشركات المساهمة الأجنبية فى مصر ١١١٢٣٢٢٥٧ جنيها (عدا الشركات الأجنبية الخاصة). وبلغت ديون مصر لأوروبا ٦ مليار فرنك = ٢٤٠ مليون ج مصرى .



الباخـــرة تيتانيـك

مأساة دنشواى

نوجز أهم وقائعها على النحو التالى بالترتيب :

● كان من عادة ضباط وموظفى جيش الاحتلال البريطانى فى مصر التجول فى المدن والقرى للنزهة ، والسلب ، والصيد بالبنادق .

● يوم الاثنين ١١ يونيو ١٩٠٦ غادرت كتيبة بريطانية (حوالى ١٥٠ جندياً) القاهرة إلى الإسكندرية بالطريق البرى .

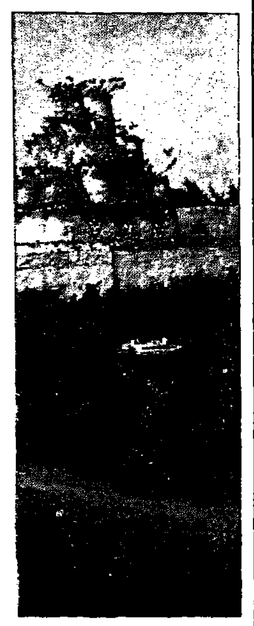
● بعد مسيرة يومين ، وصلت إلى منوف . أبلغ خمسة من ضباطها مأمور المركز برغبتهم فى الصيد ببلدة دنشواى (تابعة لنقطة بوليس الشهداء ، مركز شبين الكوم) .

● طلب المأمور من الثرى عبدالمجيد بك سلطان أن يعد لهم مركبات تنقلهم إلى دنشواى ؛ ففعل .

● عسكر الجند عند كمشوش ، وتوجه الضباط الخمسة بالمركبات إلى دنشواى ، يرافقهم أومباشى من البوليس المصرى ، وترجمان .. فذهب الأومباشى لإبلاغ العمدة لاتخاذ الاحتياطات التى تكفل عدم احتكاك الأهالى بالإنجليز .

● لم ينتظر الضباط الإنجليز حضور العمدة، ولا عودة الأومباشى ، فوقف بعضهم يصطاد الحمام من خلال الأشجار القائمة على الطريق الزراعى ، وذهب البعض الآخر يتجول عبر أجران القمح ، ويصيد الطيور (خاصة الحمام، وهى مملوكة بالطبع للأهالى) .

● صوَّب ضابط إنجليزى محتل بندقيته إلى حمامتين عند جُرن مؤذن القرية محمد عبدالنبى (وكان يشتغل به أخوه شحاته) ؛ فصاح بالضابط المحتل شيخ عجوز (فى الخامسة والسبعين) يدعى حسن على محفوظ ، محذِّراً من خطر اشتعال حريق يأتى على الجرن (هذا الشيخ المسن هو أول من صدر ضده حكم بالإعدام .. ونُفذ !!) . وكذلك صرخ شحاته محذِّراً .



* كان من عادة جنود الاحتلال البريطاني مباغتة القرى المصرية فى أى وقت وانتهاك ما يحلو لهم عنوة، وكذلك صيد حمام الفلاحين بالقرى بلامقابل!

● لم يعبأ الضابط الإنجليزى المحتل. أطلق النار. أخطأ الحمام وأصاب أم محمد، زوجة المؤذن، وأشعل ببندقيته النار فى الجرن.

● صاح شحاتة مستغيثاً، ونزع (فقط) البندقية من الضابط الإنجليزى المحتل المعتدى؛ فأقبل الرجال والنساء والأطفال سراعاً يصرخون ويُوَلوِلْن: الخواجة قتل الوليَّة وحرق الجرن!، الخواجة قتل الوليَّة وحرق الجرن».. أحاطوا بالضابط الإنجليزى المحتل الأحمق، وهم يصرخون ويندبون. (فقط مجرد إحاطة وصراخ. وكان من السهل تمزيقه إرباً إرباً).

● جاء بقية الضباط الإنجليز المحتلين غاضبين شاتمين. وفى الوقت نفسه وصل شيخ الخفراء ورجاله لتفريق الجموع الثائرة، وإنقاذ ضباط الاحتلال المعتدين..!، فظن هؤلاء أن شيخ الخفراء ورجاله يريدون بهم شرًّا؛ فأطلقوا عليهم العيارات النارية؛ فسقط شيخ الخفراء جريحاً، فصاح الجمهور الثائر (بحق): « شيخ الغَفر قتلوه! شيخ الغَفر قتلوه!».

●فانهال الطوب والضرب بالعصىّ على الضباط الآثمين؛ فأصيب قومونذان الكتيبة بكسر فى ذراعه، وجُرح ملازمان جروحاً خفيفة. جاء ملاحظ بوليس نقطة الشهداء، وأوصلهم ـ بحماية الخفراء ـ إلى معسكرهم.

● أثناء العراك مع الأهالى، هرب اثنان من ضباط الاحتلال من مكان الواقعة،أحدهما مصاب بجرح فى رأسه، وقطعا مسافة نحو ثمانية كيلو مترات جرياً فى الحر الشديد القائظ، فسقط المصاب متأثرا بضربة الشمس، ومات (ثبت فيما بعد أن سبب الوفاة ضربة الشمس) عند قرية سرسنا.

● عندما وصل الخبر إلى أفراد الكتيبة فى كمشوش؛ هَبُّوا للقتال.

● شاهدوا فى طريقهم زميلهم الهارب المصاب فى رأسه مُلقًى على الأرض يحتضر، وبجواره فلاح مصرى طيب إنسان، يحاول أن يسقيه بعض الماء، فانقضوا عليه ضربا بالبنادق والسونكى، حتى مزقوا جسمه، وهشموا رأسه؛ ومات سيد أحمد سعيد، الفلاح الطيب المسكين، شهيداً. ومن عجب أن قَتَلَته لم يحاكموا، ولم يُسأل عن قتله أحد!.

الأحكام قبل التحقيق..

ثارت ثائرة المحتلين البريطانيين المحتالين. وأقسموا ليُدَمِّرُنَّها مصبحين، بل إن مستشار وزارة الداخلية المصرية ـ ويدعى متشل (إنجليزى) ـ توجه

إلى مكان الحادث (فى دنشواى) فى نفس يوم وقوعه ، وأجرى تحقيقاً سريعاً ، وأمر السلطات (المصرية) بالقبض على أهالى دنشواى جزافاً . وفى اليوم التالى مباشرة، نشرت جريدة المقطم (لسان الاحتلال) ،وقبل أن يبدأ التحقيق الرسمى ، أن الأوامر صدرت بإعداد المشانق وإرسالها إلى موقع الحادثة. ودهش الناس ، حَنقوا فى التباس : أإعدام قبل أحكام ؟!، وتطبيق قبل تحقيق؟ ما هذا بالعدل يليق !. يا كاشف الغُمة .. رُحماك بالأُمة .وبات الشعب جَمْعاً مَغيظ، من ظلم شرذمة الإنجليز ...

مهزلة المحاكمة

٢٠ يونيو ١٩٠٦ ..

قبل انقضاء أسبوع على وقوع الحادثة ، أصدر بطرس غالى باشا وزير الحقّانِيَّة (العدل !!) بالنيابة قراراً بتشكيل محكمة مخصوصة لمحاكمة « المتهمين»، برئاسة بطرس غالى ذاته ، وعضوية كل من : الإنجليزى هبتر ، نائب المستشار القضائى ، والإنجليزى بوند ، وكيل محكمة الاستئناف ، والقائمقام لادلو ، الذى يتولى أعمال المحاماة والقضاء بجيش الاحتلال ؛ وأحمد فتحى زغلول بك (نال رتبة الباشوية بعد المحاكمة) رئيس محكمة مصر الابتدائية .



* رُب ضارة نافعة.. إذ كان من نتائج واقعة دنشواى التى أراد الإنجليز أن يجعلوها درسا مخيفا للمصريين ليلتزموا الخضوع لهم أن اشتعلت روح الوطنية المكافحة والغضب بين المصريين جميعا كمقدمة لثورة ١٩١٩ ، واضطرت بريطانيا عقب دنشواى إلى عزل رجلها الصارم الخبيث فى مصر (الحاكم الفعلى) اللورد كرومر . فى الصورة : مشنقة دنشواى.

● انعقدت المحكمة بسراى المديرية فى شبين الكوم فى العاشرة صباح ٢٤ يونيو .وشهد دكتور نولن الطبيب الشرعى الإنجليزى أن وفاة الضابط الإنجليزى المصاب فى رأسه ترجع مباشرة إلى ضربة الشمس ، وأن الإصابة التى فى رأسه لا تُفضى إلى الموت .

● قُدم للمحاكمة اثنان وخمسون « متهماً » ، مقيدين فى الأصفاد ، وسبعة من الغائبين .

● صباح يوم ٢٧ يونيو صدر الحكم ، الذى دوَّنه بيده أحمد فتحى زغلول (شقيق سعد باشا) :

- ٤ إعدام شنقاً بقرية دنشواى ، وأمام الأهالى .
- ٢ أشغال شاقة مؤبدة (أحدهما مؤذن القرية الذى قُتلت زوجته ، والثانى شقيق الشيخ العجوز الذى حكم عليه بالإعدام) .
- ١ الأشغال الشاقة خمسة عشر عاماً.
- ٦ السجن سبع سنوات .
- ٣ الحبس مع التشغيل لمدة سنة ، مع الجلْد ٥٠ جَلْدة .
- ٥ الجلد خمسون جلدة .

فيكون مجموع الأحكام واحداً وعشرين ، ووفاة سيدة ، وتهشيم رأس فلاح برىء وتمزيق جسده ، وإصابةشيخ الخفراء ، وأفراد كثيرين غيره ، واحتراق جُرن القمح ، وذعر الأهالى ، وإرهابهم ، وإهانتهم ، وتحملهم مصائب تلك الكارثة من بدايتها إلى ما بعد صدور الأحكام الجائرة القاهرة البشعة .. ولا ذنب لهم ولا جريرة .. فمن الجانى ومَن الضحية ؟ .. مَن المجرم وأين القضية؟.. وويل ـ كل الويل ـ لمن أعان ظالماً على ظلمه ! .

● تم تنفيذ الأحكام يوم ٢٨ يونيو . ونُفذت أحكام الشنق علنًا فى الساعة الثانية ظهراً ، على مرأى ومسمع من الأهالى ، والآباء ،والأبناء . وكذلك أحكام الجَلْد ، فيما وصف بأنه « مجزرة بشرية تغمرها القسوة والفظاعة » .

● فى ٢٠ أكتوبر ١٩٠٦ قابل الزعيم مصطفى كامل ـ مصادفة ـ أحمد فتحى زغلول، فرفض أن يصافحه ، وقال : « إن مشاركتك فى محكمة دنشواى ، وفى إصدار أحكامها ، تَحُول بيننا وبينك إلى آخر لحظة من الحياة».



فجر جديد فى مستهل قرن تتعاقب فيه الوقائع والحوادث ، على نحو غير مألوف فيما سبق من قرون وأحقاب ، وإطلالة عصر فريد فى إنجازاته ، ومظاهره ، وتقلبات أفراحه وأحزانه .

إن هذه الوقائع والإنجازات الجديدة الفريدة ، هى ذاتها التى تيسر لنا تتبع حصاد هذا القرن الولود كثير الإنجاب ، بتقسيمه إلى مراحل ، تبدأ من مطلعه إلى نهاية الحرب العالمية الأولى ، ثم مرحلة ما بين الحربين العالميتين (الأولى والثانية) ، ثم مرحلة ما بعد الحرب الثانية إلى الحرب الباردة ، ثم مرحلة ما بعد انهيار الاتحاد السوفيتى ، إلى نهاية القرن ، وضعا فى الاعتبار، أنها مراحل متصلة متشابكة ، ليس الفصل الكامل بينها مقبولاً ولا معقولاً ، فى الواقع أو المنطق ، بل إن وقائع وأحداث أواخر القرن التاسع عشر امتد مسارها وتأثيرها على بعض ما جرى فى القرن العشرين ، وربما يمضى مداه إلى مابعد القرن العشرين .

فى كلمة عامة جامعة شاملة ، نستطيع أن نقول : « إن القرن العشرين كان ـ بحق ـ (قرن أوروبا والغرب) ، بمعنى : أن معظم الأحداث الكبرى وترددداتها وأصداءها واتساع مداها ، وضع العالم كله ـ بطريق مباشر ، أو غير مباشر ـ داخل « إطار » من صُنع أوروبا (والغرب)، ووفق تصوراتها ،

وطموحاتها ، وهواهـا ، ومطامعها ، التى بلغت أحياناً درجة المغالاة والإجحاف ، أو الإفراط والصلف وقهر الشعوب ، ثم انكسر « الإطار » أو انبعج فى أواخر القرن .

والنظرة « البانورامية » الشاملة الجامعة لأحداث القرن العشرين ومتغيراته ، تثير فى النفس التساؤل والتعجب منذ البداية (بداية تناولنا لحصاد القرن) عند البحث عن إجابة شافية كافية لسؤال يظل صداه مضطرداً حائراً من أول القرن إلى منتهاه : لماذا يصر « إنسان » ما ، يملك القدرة أو القوة ـ أو بالأحرى الطاقة ـ القاهرة المروعة ، على أن يفرض إرادته على غيره ، وأن يُخضعه لسيطرته ، أو أن يطبعه بطابعه ـ وهذا هو الأدهى والأخطر ـ ويُلزمه بما يرى أو يهوى ، بما يؤْمن ويعتقد ، والدول فى هذا الإصرار كالأفراد سواء بسواء ؟! .



يلتسين

قد يقال : نزعة السيطرة ، أو إرادة التحكم ، أو الرغبة فى الاستغلال والاستنزاف ، أو إشباع شهوة التعالى والتسيد والكبرياء ، أو التحصن وحماية النفس ، أو الذات ، أو المكانة ، والثروة ...كلها تبريرات قد تُقبل أو ترفض، وقد يُضاف إليها ويُنقص منها .لكن السؤال ـ على امتداد القرن العشرين من بدايته إلى نهايته ـ يظل حائراً محيراً . لماذا ؟! .

لأن أوروبا (والغرب) ، تزعم ـ فى قرنها العشرين ـ أنها قادت وتقود العالم ـ المتخلف فى زعمها ـ نحو الاستنارة ، والحرية ، والتحضر ، والديمقراطية ، ومعيشة الهناء والرخاء ، واحترام كرامة وحقوق الإنسان .. ومع ذلك .. كانت هى أوروبا ذاتها (ومعها كل قوى الغرب ، ثم شاركتها لما قويت دول الاشتراكية والشيوعية فى الشرق) كانت هى التى تصارعت ـ بقسوة دموية وعنف ـ أولاً فيما بينها وعلى أرضها، ثم جرَّت العالم ـ أو معظمه ـ ليشارك فى حروبها ومعاركها . ولم تكتف بذلك .. بل هى التى أثارت صراعات وحروباً محلية أو إقليمية ، لم تهدأ نيرانها ، أو تخف حدتها ، حتى أوشك القرن على الانتهاء .



لاستعمار الأوروبى ممثل فى جيكا على شكل ثعبان ضخم ف حول أفريقيا ويفترسها .

ولما انهار النظام الشيوعى فى الاتحاد السوفيتى وتوابعه فى أواخر القرن، وانتهت الحرب الباردة وتسلمت أمريكا « راية الريادة » ، أو علم القيادة ، أو «عصا الشرطى » ـ كما قيل ـ لم تتخل عن « إصرار » قوى السيطرة والقهر السابقة على فرض الإرادة ، ومحاولتها إلزام الشعوب بما ترى وتهوى ، وتهدد من يخالف أو يعصى .. فى حين أن الحكمة ، والمنطق ، وطبائع

الأشياء، وحقائق الأمور، توضح كلها أن الفكر الأوروبى الغربى ـ الطامع فى السيادة والسيطرة ـ ليس هو الوحيد ، ولا الأفضل ، ولا المثالى فى بعض الجوانب ، كما أنه ليس هو المناسب لكل الأمم والقبائل والشعوب . ولقد أثبتت الأحداث فى النصف الثانى من القرن العشرين صحة ذلك ، وبضحايا مئات الآلاف من القتلى والمذبوحين فى أفريقيا ، وفى آسيا وأمريكا اللاتينية والجنوبية . وشهدت السنوات الأخيرة من القرن مواجهة ـ ما زالت هادئة ـ مع الصين ، التى لا تعرف فى لغتها ، ولا يعرف شعبها مدلولاً محدداً واضحاً لكلمة « ديموقراطية » التى تتمسك بها أمريكا والغرب (رغم عيوب النظام ومساوئه فى التطبيق العملى المشاهد) . والصين ـ كما هو معروف ـ لها تاريخ طويل عريق من الفكر والحضارة .


دخـول أمريكـا فـى سـوق الاستعمار كالحوت يلتهم الصغار الضعاف

إن « التحضر » فى المفهوم الأوروبى والغربى ، أنتج أزمات سياسية وصناعية،واقتصادية ،وكان سبباً فى تقسيم المجتمعات ، وتخاصم الشعوب. وبسببه أيضاً أصبحت « الدولة » مركزية أكثر وأكثر ، وتعاظمت بيروقراطيتها ، وتزايدت سلطتها وسيطرتها على حياة أتباعها .

وفى بداية القرن ، أضعفت الضغوط الاجتماعية من قوة روسيا الإمبراطورية القيصرية، حتى إنه فى العِقد الأول من القرن العشرين تجاسرت اليابان على غزوها وهزيمتها .

وبريطانيا « العظمى » كانت فى مأزق : تبحث فى قلق عن سنَد ومعين ، وبالمثل .. تبحث عن اتجاه تسلكه وطريق ، بعد نصف قرن من زهو الإمبراطورية ، وكبرياء العظمة والسيادة .. ففى عام ١٨٣٧ اعتلَت عرش الإمبراطورية فتاة فى الثامنة عشرة من عمرها ، تدعى فيكتوريا ، وظلت ملكة تحكم ثلاثة وستين عاماً ، هى أطول فترة حكم فى تاريخ بريطانيا .. فكانت عامرة بالثراء والرخاء والترف ، فى مملكة هى الأغنى والأعْتَى بين دول العالم، وهى أيضاً الأكثر والأوسع مستعمرات : كانت تحكم وتتحكم فى نحو ٢٥٪ من مساحة العالم وسكانه ، وتقود الثورة الصناعية ، وتنعم بالمواد الخام والثروات ، والخيرات تأتيها من كل مكان .. فكنوز المستعمرات لا تتوقف ولا تَنضب، وابتكارات التكنولوجيا ـ بما فيها المحرك البخارى ـ لا تهدأ ولا تكسْل ؛ فأنتجت بريطانيا فى الفترة بين ١٨٥١ ـ ١٩١١ من الصلب وقطارات السكك الحديدية والنسيج أكثر من أى دولة أخرى . وقفز اقتصادها إلى القمة والمقدمة .ولما كانت عملتها مرتبطة بالذهب، فقد أصبحت عالمية ، وفى الصدارة ، مما جعل إنجلترا مركزاً للبنوك العالمية . ثم

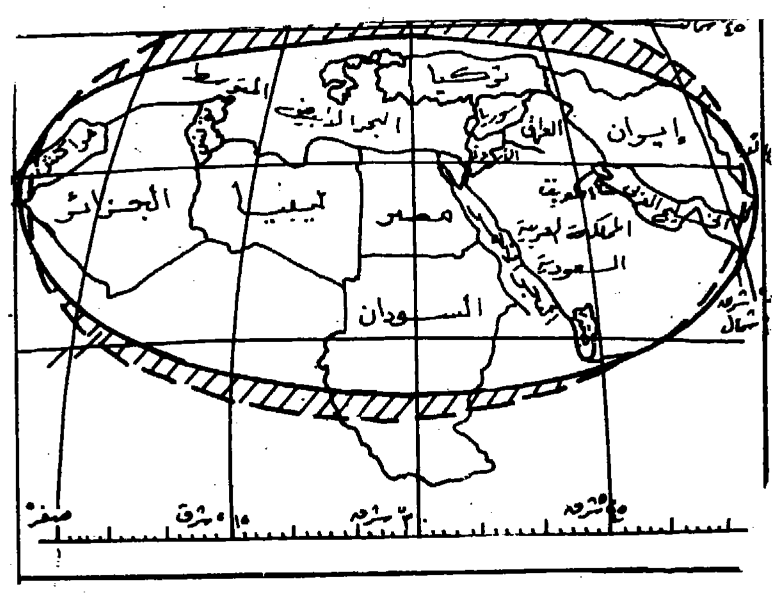

الملكة فيكتوريا (بريطانيا)

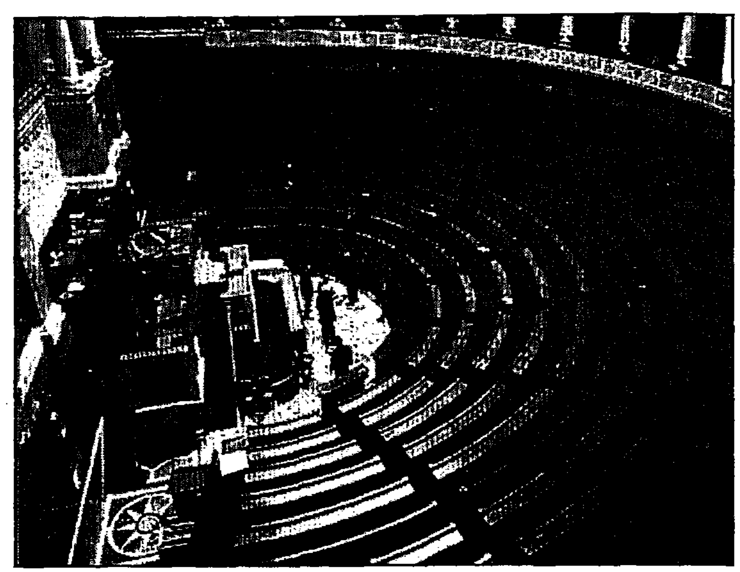
ها هى فجأة تشعر بالزلزال ، بشبح الانهيار ، تحت ضغوط الدفاع عن الإمبراطورية ضد قوتين مخيفتين : صحوة شعوب المستعمرات ، وإصرارها على التحرر والاستقلال ، ورغبة الإمبراطوريات المنافسة فى التفوق والاحتلال ، فلما وقعت الحرب العظمى (العالمية الأولى) ، كانت بريطانيا قد فقدت مركزها التكنولوجى المتقدم ، وتفوقها الاقتصادى الممتاز .

وفى أوائل القرن ، بدأ السباق على أشُده فى التسليح ، وبناء الأساطيل ، مع تصاعد حرارة النزعات القومية ، والمشاعر الوطنية . وسرت نغمة صدَحَت وانقدحت، وعَلَت دقات طبولها ، وما هدأت : نغمة البطولة الفردية والوطنية، وكأنها هى وحدها مظهر التحدى وإثبات الوجود ، حتى أصبحت طابع العصر .. فكان شائعاً أن يلعب الأطفال بلُعب على شكل أسلحة ، وجنود من المعدن ، وأن يزهو الكبار بارتداء ملابس شبيهة بملابس القادة والمحاربين . وفى ساحات التدريب وميادين القتال ، لوَّثت الفئران طين الخنادق ؛ فانتشر الطاعون ، كما حصدت بنادق المستعمرين مئات الآلاف من رءوس الوطنيين المناضلين . ومع ذلك ..وفى ظلال تلك المذابح والكوارث ، مع بدايات القرن العشرين ، لاحت أنوار عصر جديد ، وبشائر مستقبل أفضل للحياة الإنسانية.



فى تلك الفترة ، كان الشرق العربى فى مرحلة الاستيقاظ المتأخر ، ويتهيأ





البرلمان الفرنسي من الداخل

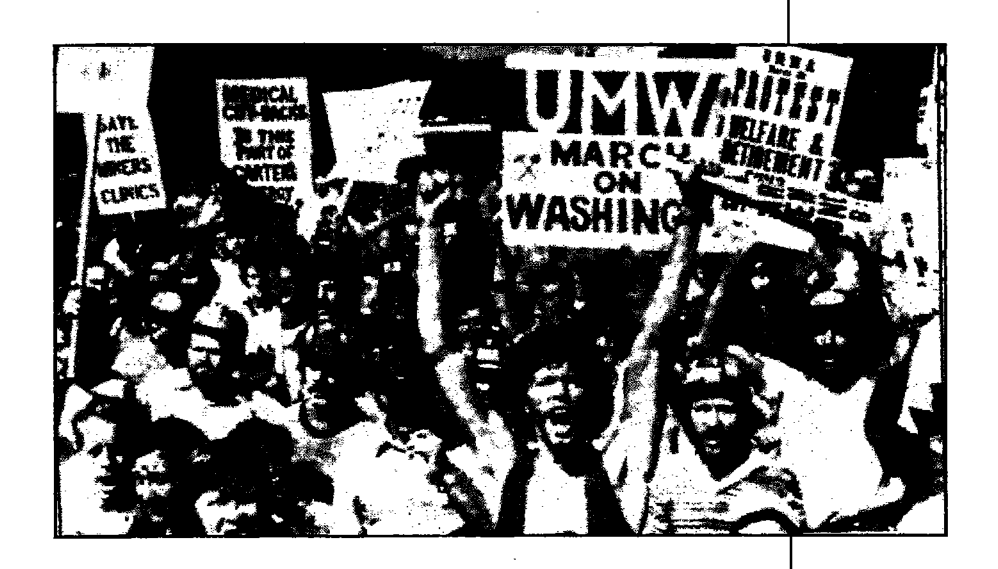
لصحوة الكفاح والمجاهدة : مجاهدة النفس ، ومجاهدة التخلف ، ومجاهدة الاستعمار ، وإثبات الشخصية ، وحق الوجود الثابت الراسخ فى موقعه من العالم ، وبتراثه ، وأخلاقياته ،وعقائده ، وحضارته التى حاول البعض طمسها، وادعاء ذبولها واحتضارهاإلى غير رجعة .. وقد وهموا .

وفى الغرب ، قبل عام ١٩١٤ ، كان الاعتقاد السائد أن الحضارة لا ترتكز فقط على الثقافة وموروثات الشعوب ، وإنما أيضاً على القيم والمبادىء الأخلاقية. ولم يكن عند المفكرين والقادة شك كبير فى أن التاريخ هو « قصة التقدم البشرى » ، لكن الغموض يأتى ـ وما زال ـ من تحديد معنى أو تصور مفهوم « التقدم » ومقاصده ومستواه ، بالنسبة للفرد ، والمجتمع ، والأمة .

فى أوروبا ، كانت هناك علاقة ثقافية وطيدة مألوفة بين الطبقة الأريستوقراطية ، والطبقة البورجوازية ، تشكّل سلوكها ، وزهوها ، واستعلاءها فى أى مكان تقيم فيه ، أو تنتقل إليه على امتداد القارة ، إذ يحكمها ـ أو معظمها ـ ملوك ، بينهم رابطة قرابة أو نَسب ، ويظنون كل الظن أن عروشهم مستقرة مستمرة إلى زمن طويل . والموسرون المترفون يعتقدون أنهم ينتمون إلى ثقافة متميزة ، أو نوع سامٍ من التحضر ، فى حياتهم ومعاشهم ، فى تنقلاتهم الباذخة المرحة بين الرِّفييرا ، وباريس ، ودرسدن ،وبحيرة ليمان (فى سويسرا) .. ويلحق بهؤلاء ويتبعهم من بعيد ـ حفاظاً على كبرياء الرجل الأبيض ـ أثرياء وأمراء من العالم « المتخلف » ،



(البرلمان) الكونجرس الأمركى



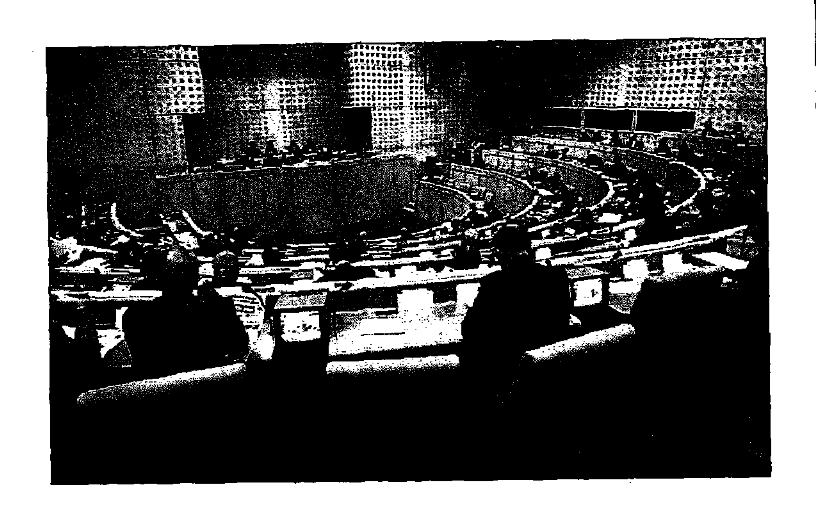
ودول المستعمرات ، الذين يطربهم المنتفِعون ، ويطربهم المتزلفون ، ويستهويهم التجديد والتقليد .

وعلى الجانب الآخر ، كان هناك نوع متزايد من الإصلاح الحقيقى ، استفادت منه جماهير كثيرة من طبقة الفقراءوالبسطاء : إما بدافع الرد العملى ، وسد الذرائع أمام المتحمسين المهيِّجين من دعاة الاشتراكية والانتفاضة أو الثورة، وإما بتحريض من النقابات العمالية والاتحادات المهنية والشعبية التى كان يعضدها بعض المفكرين والقادة والسياسيين .

وكانت ألمانيا ـ فى عهد بيسمارك (توفى ١٨٩٨) ـ أول دولة تبتكر وتطبق نظام التأمينات الاجتماعية والمعاشات للعمال ، الذى انتشر على مهل فى كل العالم الغربى وغيره .ودخلت مع الإصلاحات الاجتماعية أيضا الرعاية الصحية ، وتحددت ساعات العمل ، وتحسنت شروط تشغيل الأطفال ، وأصبح التعليم العام حقًّا عالميًا مكفولاً للجميع . وهكذا أثمرت الإصلاحات والتغيرات التى حدثت فى أواخر القرن التاسع عشر ، وزادت وامتدت بعد بداية القرن العشرين.

وبدأت تتغير نظرة الكثيرين ومفاهيمهم لنُظم وأساليب الحكم ؛ فاكتسبت « الديموقراطية » أراض جديدة ، فى غرب أوروبا وأمريكا .وكلما زادت استنارة الدول والشعوب ، زاد إدراكها بأن الحكومة الجيدة تحرص على إقامة وتوطيد علاقة من الثقة والرضا بين أولئك الذين يشترعون القوانين ،

وبين الكتل الجماهيرية التى تخضع لها . وزاد الاقتناع بأن أفضل وسيلة لتحقيق ذلك ، هى التعاون ، من خلال عملية الانتخاب الشعبى للبرلمانات ، أو المجالس الوطنية التشريعية ، كأسلوب يمنح الشعوب قسطاً من النفوذ والإرادة فى اختيار حكوماتها (التى تحصل على الأغلبية) ، ولو من الناحية الشكلية أو المظهرية . وقد روعى فى بناء تلك البرلمانات أو المجالس التشريعية ، أن تعكس ـ بضخامتها ، وطرزها ، وفخامتها ـ مسحة من المهابة والجلال ، فضلاً عن الجمال ، توحى بمنزلتها وأهميتها . وهكذا تقلصت رويداً رويداً نزعة الحكم الاستبدادى المطلق . واختلفت صيغ ومقاصد الدساتير ، ولكن بعضها آثر ـ بل صمم ـ أن يتضمن مبادىء السياسات الإصلاحية الجديدة، ومن أبرزها : استقلال القضاء ، الذى يتساوى فى ساحته الغنى والفقير ، القوى والضعيف. ولئن اختلفت النظريات والمُثل أحياناً بعض الشىء عند التطبيق ، إلا أن العدالة ظلت دائماً ذات قدسية وهيبة ، يُرجَى لها ألاّ تحابى ولا تداهِن .





وهو مبدأ عرفتْه وطبقتْه بدقةٍ مجتمعات إسلامية كثيرة فى عصور صلاحها .

ومبدأ المساواة فى الحقوق العامة والواجبات ، وتكافؤ الفرص أمام الأسوياء والقادرين ، وصيانة كرامة الفرد ـ كإنسان ـ وماله ، وعرضه ، ومسكنه ، وأسرته، كلها مبادىء ليست من اختراع أوروبا والغرب ، بل كفلتها الأديان السماوية ـ وهى رسالة موحَّدة موحِّدة فى جملتها ـ ثم خُتمت



بالإسلام ، الذى جعل هذه المبادىء تشريعات إلهية لازمة ملزمة [1].

وفى الدول الصناعية ، خطت القطاعات العمالية خطوات واسعة نحو اكتساب حقوق وتيسيرات فى العمل بعد طول تحمل ومعاناة . ساعدها فى ذلك مؤازرة المستنيرين من المفكرين ، والكتاب ، والصحافيين ، إلى جانب الاتحادات العمالية ، التى اكتسبت قوة الجماعة المتضامنة المتماسكة ، بدلاً من الفردية الضعيفة ، فتحسنت الأجور وظروف العمل والمعيشة .هذا.. على الرغم من أن العمال الذين كانوا ينتمون إلى اتحادات عمالية لم يحققوا آنذاك أغلبية عددية .. فمثلا : فى عام ١٩٠٠ ، كان عدد العمال الذين انضموا إلى اتحادات، لا يتجاوز المليون من بين ٢٧ مليوناً من القوة العمالية . وكانت ـ كما فى بريطانيا أيضاً ـ اتحادات قاصرة على الرجال .. فكان على النساء فيما بعد تكوين اتحادات عماليةنسائية خاصة بهن . وأمر آخر : استبعدت الاتحادات العمالية الأمريكية من عضويتها العمال المهاجرين ، والسود .



(١) نماذج من آيات قرآنية : ـ « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى . . » الحجرات ـ ١٣
ـ « ولهن مثل الذى عليهن با لمعروف » البقرة ـ ٢٢٨
ـ «ولقد كرمنا بنى آدم » الإسراء ـ ٧٠
ـ « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم » التين ـ ٤
ـ « لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها . . » النور ـ ٢٧
ـ « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » النساء ـ ٥٨
ـ « ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » البقرة ـ ١٩٠

وكان لبعض الأقليات العِرْقية (المتجانسة فى الثقافة والمنشأ والعلاقات الأسرية والاجتماعية والاقتصادية) امتيازات خاصة ، حتى فى النظم السياسية ، وبدون استثناء الولايات المتحدة الأمريكية ، التى كانت تفاخر بأن بها أفضل النظم الديموقراطية فى العالم . ولقد شعر السود الأمريكيون بسلسلة من الإحباطات وفقدان الأمل فى الحصول على حقوقهم كاملة كمواطنين . وظلت مطالبهم فى انتزاع تلك الحقوق قضية وطنية حادة معظم سنوات القرن العشرين.

وفى معظم بلاد العالم كانت المرأة محرومة من حقوق كثيرة ، وتُكلَّف بأعمال وأعباء ـ سواء داخل البيت ، أم خارجه ـ تفوق أحياناً قدرتها وتؤثر على رعايتها لأسرتها .



جاء فى كتاب الأمم المتحدة السنوى لعام ١٩٩٤ ما ترجمته (٢): « إن الأسرة ظاهرة إنسانية عالمية على مدى القرون وعبر العالم .. ويختلف مفهوم دور الأسرة بين المجتمعات والثقافات » .

« تاريخياً ، كانت الأسرة أبوية فى معظم الثقافات ، السيادة فيها للذكور . وقد أعطى « العهد القديم » مثالاً لرءوس عشيرة من الذكور ، أُبيح لهم عدد كبير من النساء، ومثلهن من المحظيات . وفى روما القديمة ، كانت الأسرة أيضا أبوية (أى السيادة فيها لسلطة الأب ، أو من فى منزلته من الذكور)، لكن تعدد الزوجات لم يكن شائعاً .. وكانت لرب الأسرة سلطة تبلغ حد قتل أبنائه » .

« فى العصور الوسطى الأوروبية ، كانت الأسرة واقعة تحت تأثير تعاليم الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ونظام الإقطاع ، وكانت فى العادة أسرة كبيرة ممتدة، يسودها سلطان الأب . وفى المقابل ، كانت النساء المسْلمات فى الفترة الزمنية نفسها يمتلكن قدراً كبيراً من مباشرة ورعاية ممتلكاتهن الخاصة .

« نتجت عن الثورة الصناعية تغيرات كبيرة فى بنية الأسرة .. فالتصنيع والتمدن (الإقبال على مجتمع المدينة) كانا من العوامل التى أحدثت تغييراً بارزاً فى الحياة وأساليب العمل عند الكثير من الناس ، خاصة الشباب ، فتركوا الريف للعمل فى المصانع .وأدَّى هذا إلى تلاشى عديد من الأسر كبيرة العدد .

« وفى الوقت نفسه ، تراجعت ببطء سيادة الأب فى الأسرة أو سلطانه ، لتفسح مكاناً متزايداً للمساواة بين الجنسين .. فانكسرت حدة الصلابة

(٢) UN. Chronicle - March 94, Vol . xxx1,



* المرأة العاملة ولو بالمنزل

التقليدية فى السلوك ، وفى دور كل من الرجل والمرأة داخل الأسرة . لم يعد واجب المرأة ـ كما كان محصوراً دائماً فى نطاقه التقليدى ـ مقتصراً على رعاية الأبناء وشئون البيت ، دون الاهتمام بالحياة العامة ، التى كانت من اختصاص الرجال وحدهم ، أو بالعمل واكتساب أجر . بدأ عدد كبير من الزوجات فى العمل خارج البيت ، كما أخذ كثير من الأزواج فى المشاركة بأداء أعمال داخل مسكن الأسرة ... » .

طالبت المرأة بحقها فى اختيار ممثلى الشعب فى المجالس التشريعية . وألحتْ طويلاً فى الحصول على هذا الحق أكثر من نصف قرن ؛ فلم تحصل المرأة الأمريكية على حق الانتخاب إلا فى عام ١٩٢٠ ، وطالبت به المرأة البريطانية بشدة (فى مظاهرات صاخبة وإضرابات) من عام ١٩٠٦ ، ولكنها لم تحصل عليه إلا فى عام ١٩١٨ ، بشرط أن يكون سنها فوق الثلاثين . وكان على اللاتى بين سن الواحدة والعشرين والثلاثين أن ينتظرن طويلاً لسنوات أُخر . أما أول دولة فى العالم منحت المرأة حق التصويت فى الانتخابات العامة ، فهى نيوزيلندا، وذلك عام ١٨٩٣ ، وتبعتها أستراليا عام ١٩٠٨ . ومع ذلك .. ورغم ما حصلت عليه المرأة ـ بدرجات متفاوتة بين الدول والشعوب ـ فإن مساواتها بالرجل ما زالت ـ حتى فى بعض الدول الديموقراطية ، وحتى نهاية القرن العشرين ـ غير كاملة فى الأجور والمِلْكية .

بلغت الإمبريالية الغربية ذروتها فى التوسع والاستعمار (فى أفريقيا وآسيا) مع أواخر القرن التاسع عشر . وادَّعى الغرب ـ وهو يستولى على أراضى وخيرات وكنوز المستعمرات ـ أنه يمنح شعوب تلك البلاد صورة جديدة للحياة والحكم، واستنارة فى المعرفة والثقافة . وهذا ادعاء باطل وزعْم كاذب ، وتبرير فيه تضليل ، لأنه استعمار اتَّسم بالشراسة ، والغطرسة ، والعنف ، والإذلال (لدرجة اختطاف وسرقة ملايين الرجال والنساء والشباب والأطفال فى صيغة رقيق أو عبيد) ؛ فأخَذَ أكثر مما أعطى ، وأضر أكثر مما نفع ، وأفسد بعاداته وأخلاقياته وأمراضه ومجونه ، شعوباً كانت آمنة مطمئنة ، يأتيها رزقها رَغَداً من كل مكان . وتلك فِرية أن تتساوى الحرية والكرامة الإنسانية وصيانة الأعراض والأموال والممتلكات وقدسية الأوطان وشرائع الأديان ، أن تتساوى بأى شكل من أشكال الاستعمار والقهر والاستغلال والاستنزاف والمهانة . ولقد أثبتت وقائع القرن العشرين وحتى نهايته ، أن نظم الحكم التى يزهو الغرب بتعليمها للشعوب ، هى نفسها ـ وبيده المحركة علناً أو فى الخفاء ـ التى فجَّرت مذابح وخصومات حادة عنيفة رهيبة بين أبناء الشعوب والدول

التى خضعت سنين طويلة لحكم المستعمر وأخلاقياته .

فى عام ١٩٠٠ ، فرح الأوروبيون وأيضاً سلالة المهاجرين الأوروبيين إلى الولايات المتحدة وأستراليا وجنوب أفريقيا بما نعموا به من استقرار وعيش رغيد ، وحسبوا أنهم سادة العالم . وقد ساعدهم على تنامى واتساع مدَى قوتهم الهائلة ونفوذهم المتعاظم عبر العالم ، حجم شعوبهم المتكاثفة المتزايدة ، والتغيرات التكنولوجية المستحدثة ، التى أُطلق عليها فى مجموعها تعبير « الثورة الصناعية».



كان حلم الاستعمار البريطانى السيطرة بالقوة والقهر على افريقيا كلها (وتحت قدميه) من القاهرة إلى رأس الرجاء الصالح ، كما فى هذا الرسم لفنان انجليزى عام ١٨٩٦.

فى عام ١٩٠٠ ، كان يعيش فى أوروبا شخص من كل أربعة أشخاص من سكان العالم ، أى ٤٠٠ مليون من مجموع البشر آنذاك ، وهو ١٦٠٠ مليون نسمة . وفى عام ١٩١٤ ، كان الأوروبيون يحكمون ويسيطرون بإمبراطورياتهم على أكثر من ٥٠٠ مليون نسمة فى القارة الأمريكية والأفريقية والآسيوية والمحيط الهادىء . معنى ذلك ..أنه قبل عام ١٩١٤ كان شخص واحد من بين ثلاثة أشخاص على سطح الأرض ، يعيش بعيداً عن تحكم وسلطان الأوروبيين ، وسلالتهم المستقرة فى مناطق الهجرة ..

وكانت أفريقيا أكثر القارات التى دَهمها هذا الغزو ؛ وأوقعها فى ارتباك وحيرة، بداية بغزو الثقافة واللغة .. فالمستعمرون الجُدد لايتكلمون بلسان واحد، وإن تقاربت ثقافتهم .. فمنهم من يتكلم بالألمانية ، وآخرون بالفرنسية، وغيرهم بالإنجليزية ، أو الإيطالية ، والبرتغالية ، والإسبانية ... واشتركوا جميعاً فى نزعة الكبرياء والاستعلاء ، أو تفوُّق وتميز الرجل الغربى الأبيض . ودعَّم هذا الإحساس المتغطرس ..ما بأيديهم من قوة السلاح ، ووفرة العتاد ، وتطور التكنولوجيا ؛ مما مكنهم من السيطرة ، وقهر شعوبٍ أعدادها كبيرة ، ومساحة أراضيها شاسعة ، ومقاومتها ضعيفة ، وسلاحها متخلف . وهذه أهم العوامل التى مكَّنتْ أوروبا من استعمار مناطق واسعة من أفريقيا وآسيا ، بعد أن تجنبتْ منذ منتصف القرن التاسع عشر أن يحارب الأوروبيون بعضهم بعضاً - إلى حين - فاتجهوا إلى التوسع الخارجى الاستعمارى ، لأن تكاليفه - المادية والبشرية - أقل ، ومخاطره أضعف ، ومكاسبه أوْفى وأعظم.



قدم الأفارقة للدخلاء «المستكشفين» البريطانيين وغيرهم خدمات ومساعدات جليلة ثم كان جزاؤهم الاحتلال والاستغلال والقهر واختطافهم فى قوافل العبيد للعمل فى أوروبا وأمريكا.

واستقر فى ذهن وضمير المستعمر الأوروبى القادم الغانم ، أنه ينتمى إلى حضارة « راقية » سامية مزدهرة .. وأن هؤلاء الذين غَالَبَهم وتفوَّق عليهم بالسلاح والدهاء ، أقل منه تحضراً ، وذكاء ، ومدنية . ومع ذلك .. لم يستطع



الأمريكيون فى نانكنج بالصين عام ١٩١١ يرفعون العلم الأمريكى قوة وقهرا .

أن يُنكر أو يُدارى ما كان لهذه الشعوب من تفوق ، وسبْق ، وماضٍ عريق ، وحضارة تركت آثارها المبهرة فى مصر ، والهند ، والصين ، وأيضاً فى أفريقيا، ويحتفظ هو ـ المستعمر ـ ببعض هذه الآثار والتحف الثمينة فى قصوره ، ومعارضه ، ومتاحفه .

حاول المستعمر الأوروبى « المتحضر » المتغطرس الشرس أن يفرض على تلك الشعوب ثقافته وعقيدته ـ اليهودية المسيحية ـ وأسلوب معيشته فى السلوك والعلاقات الأسرية . واستقر فى تفكيره وتخطيطه أنه (المستعمر الغربى) هو الأب المعنوى والروحى لشعوب المستعمرات ، وأن سعادته وهناءه هو ، وسعادة و « رقى » هؤلاء ، لا تكون إلا باتباع نظام معيشته ، ومفاهيم حضارته ماديًا وروحيًا، والقضاء على ما يعترض ذلك ، أو يعادى مبادىء الغرب [٣] .

منذ البداية ، كان المكسب والنفع من أهم الدوافع والأهداف لتقوية الممالك والدول والإمبراطوريات . وكان اعتماد أوروبا المتنافسة صناعيًا يرتكز على جلْب المواد الخام ، لتزويد المصانع والورشات باحتياجاتها اللازمة للإنتاج . وبعد أن كان اعتماد بريطانيا المتزايد ـ مثلا ـ على القطن

(٣) A History of the world - J. A. Grenville .



لصناعة الملابس ، وكذلك على النيكل والمطاط والنحاس ، أصبحت متلهفة على استجلاب مواد الطعام من الحبوب ، واللحوم ، والفاكهة ، والسكر ، والشاى، والبن ، لتغذية شعبها المتزايد عدداً ، فأمدتها مستعمراتها فى أفريقيا والهند وأستراليا وأمريكا بوفرة من تلك الاحتياجات . وبمرور سنوات القرن العشرين ، صار البترول (زيت النفط) ضرورة حيوية متزايدة ، لا غنى للصناعة وللحياة اليومية عنه . وعبْر بحار العالم ، حملت السفن البريطانية ـ وهى أكبر أساطيل العالم فى النصف الأول من القرن ـ حملت تلك المواد من بلاد المستعمرات .. فكانت تلك البلاد ذات فائدة مزدوجة : فهى مصدر رئيسى للمواد الخام ، وهى سوق تجارية رائجة لمنتجات المستعمِر المصنَّعة.

دولة واحدة فقط خارج أوروبا هى التى نافست فى الصناعة ، بل وتفوقت منذ العِقدين الأوَّلَيْن من القرن العشرين : الولايات المتحدة الأمريكية . وبين عامى ١٩٠٠ و ١٩١٣ ، كانت أوروبا والولايات المتحدة تحتكران الغالبية العظمى من التجارة العالمية التى تضاعفت فى تلك الفترة من السنين . ودخلت الولايات المتحدة فى منافسة من أجل الحصول على المواد الخام ومواد الطعام، رغم ثرواتها الطبيعية الهائلة .

وانفتحت أمام أوروبا مجالات واسعة للاستثمار النامى فى مناطق العالم المختلفة ، فى مشروعات مثل : السكك الحديدية ، وإقامة المصانع وتشغيلها بأيدٍ عاملة رخيصة ، وقُرب مصادر المواد الخام ، وفى المناجم ، وذلك فى أفريقيا، وآسيا ، وشمال وجنوب القارة الأمريكية ؛ فأضيرت دول المستعمرات لاستنزاف كنوزها وطاقات أبنائها بثمن بخس .

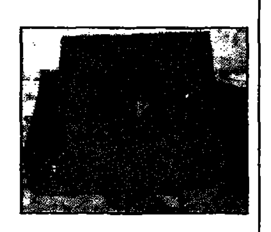
ثم تصاعد التنافس الحاد فى التجارة ، وفى الحصول على المواد الخام والاستثمار الخارجى ، ولم تسْلم الولايات المتحدة من حُمى هذا التنافس الساخن. تلفتت حولها تبحث عن « مساحة » خالية تصلح لبسط نفوذها وسيطرتها مثل الآخرين ، فلم تجد إلا .. الصين.. فقفزت الإمبريالية الأمريكية قفزة جريئة واسعة لها أهمية كبرى ، عبر المحيط الهادى ؛ فضمت إليها هاواى ، واحتلت الفلبين (عام ١٨٩٨) . وعارضت بشدة فى تقسيم الصين إلى مناطق نفوذ اقتصادية .

وبمرور السنين تطورت علاقة متنامية ذات طابع خاص بين الولايات المتحدة الأمريكية والصين ، لها صلة مباشرة بنشوب الحرب بين الولايات المتحدة الأمريكية واليابان عام ١٩٤١ ، وما ترتب عليها من نتائج فى مجرى التاريخ العالمى .

وفى بداية القرن العشرين - رغم كل ما ذكرنا - سرى تيار - وإن بدا ضعيفاً - فى أوروبا، وحتى فى بريطانيا ذاتها ، مناهضاً للإمبريالية الاستعمارية التوسعية، خاصة من الناحية الأخلاقية . ثم قوى هذا التيار ، وعلا صوته مع مرور سنوات القرن . ولم يكن ذلك بدافع الحرص على مصالح شعوب المستعمرات ، ورَدّ الحقوق المغتَصبة إليهم، وإنما بدافع الخوف من أن التمادى يثير الأعادى ، وقد تتشابك الأيدى ، فتنشب الحرب، ويَعْقبها دمار وكرب .

وحدث شىء ملفت للنظر فى أوائل القرن العشرين ...

فلقد حمل التوسع المتزايد فى مظاهر قوة الغرب ، حمل فى داخله بذور تدمير نفسه بنفسه . لم يكن مطلقاً تميزاً ، ولا تفوقاً فى الجنس أو العِرْق أن يُمنح الرجل الغربى قدرة على تنظيم المجتمع ، واختيار شكل معين لأسلوب الحكم ، وزيادة إنتاجية المصانع والمزارع . ولقد نقل الغرب معارفه إلى بقاع شتى من العالم ، وزاد أبناء المهاجرين الأوروبيين إلى الولايات المتحدة مستويات الإنتاج - كمًّا وكيفاً - تَفُوق أحياناً مستوياتها فى دول المنشأ الأوروبية .. لكن ذلك لم يكن حكراً على الرجل الأبيض .. الأوروبى . فقد أثبتت اليابان فيما بعد أنها تستطيع التفوق والسبق فى معدلات الإنتاج



طريقة بشعة استخدمها المستعمرون لعقاب وتعذيب المذنبين الصينيين فى أوائل القرن. وقد يستمر المذنب (مدنيا أو سياسيا) على هذا النحو لشهور أو أعوام ومن العسير جدا عليه تناول طعامه بيده أو قضاء حاجته.

ومستوياتـه ، فكانت أول مـن نـافس الغـرب وفـاز .

وفى الوقت نفسه ، استقر فى الأذهان ـ بعد حرب الاستقلال الأمريكية ـ أن شعباً مستعمراً فى بقعة ما ، لا يمكن أن يظل إلى الأبد خاضعاً لشعب آخر يحكمه من بعيد .ومنذ عام ١٩٠٠ ، تحققت انتصارات بالتراضى أو بالحرب للمطالبين بالحكم الذاتى، أو بالاستقلال الوطنى ، حتى بين أولئك المنحدرين من أصل أوروبى ، الذين أصبحوا أستراليين ، أو برازيليين ، أو أرجنتينيين ، وكنديين ، وجنوب أفريقيين . إنها انتفاضات وطنية تحررية ، قادها رجال بيض من أصل أوروبى . ومع ذلك .. ظل وهماً خادعاً ماكراً أن يسود الاعتقاد بأن الروح الاستقلالية ، أو النزعة التحررية يصعب أن تنمو وتتصاعد وتتطور بين الشعوب السوداء فى أفريقيا مثلاً فى المستقبل المنظور، أو بين الشعوب الأخرى ـ غير البيضاء ـ فى المستقبل القريب . وضربت مصر المثل ـ بثورة الاستقلال عام ١٩١٩ ـ على هشاشة هذا الوهم ، وسُخف هذا الخداع ، وعلى أن الحرية الفردية والوطنية غريزة وركيزة ، وأن الناس لآدم، وآدم من تراب ، فلا فضل لجنس على جنس ، ولا امتياز لشعب عن شعب ، ولا حق لتسيد أبيض على أسود ، أو أسمر ، أو أصفر . وظل الغرب من بداية القرن ـ وما زال ـ يحسب ألف حساب للجنس « الأصفر » ويخشى خطره : الصين واليابان .



كان لمحاولات « زرع » اللغة والثقافة الأوروبية وتقاليد السلوك الغربية هدف راسخ، هو : تثبيت دعائم الاستقرار والتبعية للمستعمر .. وكان على الأفارقة والهنود والصينيين واليابانيين أن يرضخوا للثقافة الوافدة واللغة ، وأن يُذْعن البعض منهم ـ المنتفعون ، والمتطلعون للمناصب والتميز ـ للعادات والسلوك ، ويورثونها لأبنائهم .وفى مجال الصناعة ، كان لابد للبضائع المنتَجة فى القاهرة ، ودلهى ، أو طوكيو ، وهونج كونج ، أن تكون على نمط المصنوعات المنتَجة فى الغرب وبشروطه ، ولو على حساب الصناعات المحلية ، والبيئية الوطنية ؛ فكان ذلك .. مدعاة لميلاد شعور بالمقاومة والتصدى ـ بدافع الوطنية ـ لمآرب السيطرة الغربية ، ومحاربتها بأسلحتها ـ نفسها ـ العلمية والتكنولوجية ، وأيضا الحربية .. فلما انتزعت تلك الشعوب استقلالها، حرصت ـ بقوة وعزم ـ على استرجاع وتثبيت تقاليدها وتراثها وثقافتها ، وإن امتزجت بالمعارف والمكتسبات الجديدة ، فتميزت شخصية كل منها بقدر ما أفلحت فى ذلك أو فشلت . وظل العالم مجزأ ، وعلى قدر كبير من الاتساع ، يحول تباينه دون تجمع عدد من الدول

فى منظمة واحدة ، تخضع لسيادة فرد واحد ، أو ثقافة واحدة ، فيما عدا مجموعة شعوب الدول العربية .

وفى عام ١٩٠٠ ، كانت الدولة (ويطلقون عليها أحياناً لضخامتها : الإمبراطورية) العثمانية تمتد من البلقان فى قلب أوروبا إلى المحيط الهندى ، مروراً بالشرق الأوسط . وكانت مطمع القوى الأوروبية جميعها . وكانت الدول المستقلة ـ أو شبه المستقلة ـ داخل تلك الإمبراطورية أضعف من أن تقاوم الغزو الأوروبى : السياسى والاقتصادى ، ولكن بعض حكام تلك الدول نجح ـ إلى حد ما ـ فى الحفاظ على استقلاليته بالمراوغة والمناورة بين القوى الأوروبية المتنافسة .واستغرق تقسيم دول الشرق الأوسط بين القوى الكبرى وقتاً طويلاً ، وجهداً متعاظماً ، نظراً إلى حساسية ظروفها ، وموقعها الاستراتيجى العالمى ، ولأنها فى الطريق المباشر بين أوروبا ومستعمراتها فى أفريقيا وآسيا، خاصة بالنسبة لبريطانيا ومصالحها فى الهند . وكانت الثقة مفقودة بين بريطانيا وروسيا الطامعتين فى التهام أكبر قدر من الإمبراطورية المريضة .ووضعت روسيا عينها على فارس (إيران) لاقتسامها مع بريطانيا ، طمعاً فى وصولها (أى روسيا) إلى البحار الدفيئة ، وخطوط التجارة العالمية . وامتد التنافس بين الروس والإنجليز إلى أكبر دولة سكانية فى العالم : الصين ، التى كان شعبها فى عام ١٩٠٠ يربو على أربعمائة مليون نَسمة .

تناست أوروبا أحقادها وتنافسها فيما بينها إزاء مطامع روسيا فى الصين ؛ فتضامَّت لمواجهة تلك المطامع ، وأمدت الصين بالأسلحة لمقاومة روسيا ، وهى ـ أى أوروبا ـ فى الواقع تحافظ على مصالحها ، إذ كان من العسير عليها ـ رغم الإمداد بالمال والسلاح ـ أن تحكم دولة (الصين) بهذا الاتساع والكثافة السكانية .. لكن النفوذ الأوروبى المتزايد أفلح فى استمالة القائمين بالسلطة المركزية فى بكين .واستحوذ الغرب على امتيازات ومواقع تجارية ، وحصل على قواعد استراتيجية فوق الأراضى الصينية ، وأجبر الصين على قبول ترتيبات شبه استعمارية دولية . وأصبحت شنغهاى مركزاً أوروبيًّا للتجارة . ووسعت بريطانيا مستعمرتها فى هونج كونج ، وفرضت على الصين أن تؤجر لها تلك المستعمرة ، ففكرت روسيا فى الاستيلاء على أجزاء من أراضى الصين الشمالية (وسوف يأتى تفصيل ذلك) .

بلغ الاستعمار الأوروبى ذروته فى أوائل القرن العشرين . ولم تجد الولايات المتحدة الأمريكية منفذاً للتوسع وبسط النفوذ مثل أوروبا ، سوى بعض الجزر فى المحيط الهادى . ولكن حتى ذلك الوقت .. لم تتنازل أوروبا

عن كبريائها وتدعو الولايات المتحدة إلى الدخول فى معترك المنافسة ، والمحافظة على توازن القوى فى شرق آسيا ، الذى تهدده روسيا بالفعل . وجاءت هذه المهمة من جانب دولة فى شرق آسيا ، هى : اليابان .

لم تتعرض اليابان ـ مثل الصين ـ فى عام ١٩٠٠ للغزو المباشر من أوروبا (ولكنها ستخضع للنفوذ الغربى ، عن طريق الولايات المتحدة فيما بعد ، مع منتصف القرن). ونجحت بريطانيا ـ أقوى دول الاستعمار الأوروبى آنذاك ـ فى عقد تحالف عام ١٩٠٢ مع السلطة الحاكمة باليابان .

وأصبحت المصالح الأوروبية عالمية ، متشابكة ومتضاربة . ولاح فى الأفق ، وخطر على أذهان القادة والسياسيين ، بوادر توقع أزمات واحتكاكات لا تُحمد عواقبها . إن هذه القوى الأوروبية ـ مجتمعة ، وعلى مستوى العالم ـ لها السيادة والسيطرة . أما على المستوى الأوروبى ، وفيما بينها ، فهى متفرقة متنافسة . ووجد القادة والزعماء السياسيون الأوروبيون أنفسهم قد وقعوا فى شِراك الخصومة والنزاع الحاد العنيد داخل قارتهم ، واستقر فى يقين كل دولة من دول هؤلاء ، أنها قادرة على مواصلة النمو ، والمحافظة على مكانتها وقدرتها ونفوذها كقوة عالمية .

كان طبيعيًّا إذن أن يزداد التسابق على امتلاك وتطوير وتصنيع الأسلحة . إنه سباق متسارع محموم ، يتسق مع اقتراب نُذُر الخطر ، وارتفاع حرارة المنافسة، وثقل الضغوط ..يضاف إلى ذلك .. تصاعد الأفكار الجديدة ، وما يحدث من تغيرات اجتماعية داخل الدول الأوروبية ـ خاصة فى ألمانيا القيصرية ـ وارتفاع صوت طبقة أو فئة ناشئة متنامية فى المجتمع ، تلح فى المطالبة بحقوق ، ومكاسب ، ورغبات ، ومشاركات فى السياسة ، واتخاذ القرارات ، فى فترة بالغة الحساسية والتعقيد محليًّا وعالميًّا .

وليس مُقنعاً ، ولا مبرراً كافياً ، ذلك الرأى القائل بأن نشوب الحرب العالمية الأولى (١٩١٤) كان دافعه وطنيًّا « هروبا من مواجهة فاشلة مع الأزمات الداخلية » ، حتى فى داخل ألمانيا ذاتها .ومن ناحية أخرى ... لا يحتاج التبرير إلى تأكيد بديهية أن الحروب قد تنشأ بين الدول ، لأن قادتها أو زعماءها ـ ببساطة ـ يفقدون الأمل ، أو الرغبة ، أو القدرة على التعايش معاً فى أمن وسلام. وليس من الصواب أيضاً الإقرار بتفسير دافع الحرب ـ ببساطة ـ من منطلق الضرورة التى تحتم التوسع ، وحيازة أراضٍ جديدة . ربما كان هذا جائزاً بالنسبة لليابان مع روسيا بين عامى ١٩٠٠ و ١٩٠٥ ، لكنه يستحيل أن يتطابق مع ما حدث فى الحرب العظمى (١٩١٤) . ولقد


اليابان

كان الاعتقاد السائد لدى الدول التى تُطلق على نفسها تعبير « القُوَى الكبرى، أو العظمى » أن تنامى الدول،أو انحطاطها يستدعى بالضرورة نشوب حرب فيما بينها ، والقوىُّ فيها يهزم الضعيف ، ليقتسم الأقوياء الآخرون ممتلكاته.



الإمبراطور الألمانى بين جزالاته .

وفى عام ١٩٠٠ ، كان الواضح المشاهَد أن بعض الإمبراطوريات تترنح ، موشكة على الاحتضار ، وأن الدول الأقوى تتنافس بشدة فى حماية أراضيها الوطنية ،أو ممتلكاتها خارج حدودها .. وفى مقدمة هذه الدول :« القوى العظمى » الأوروبية ، واليابان .ولكن ، فى السنوات السابقة مباشرة على الحرب العالمية الأولى ، تغيرت المفاهيم والمواقف : استدارت القوى العظمى ، ليُواجه بعضها البعض ، يسيطر عليها الاعتقاد الخاطىء المخاطر بأن البعض لابد أن يموت إذا أراد الآخرون أن يحتفظوا لأنفسهم بالحياة فى أمن وسلام(٤).حتى ألمانيا ـ وكانت آنذاك الأقوى بينهم ـ لم تكن فى مأمن . هكذا كان أيضاً اعتقاد جنرالات القيصر الألمانى إزاء تهديدات مجموعة الدول المناوئة لألمانيا . وربما كان هذا أحد الأسباب الخطرة الرئيسية ، التى أدت إلى تعقد العلاقات الدولية ، ودفعت بسحب متكاثفة مظلمة نحو ساحات القتال ؛ لتمطر « قذائفها » المدمرة على مدى أربع سنوات . وسوف نتناولها بالتفصيل فيما بعد بإذن الله.

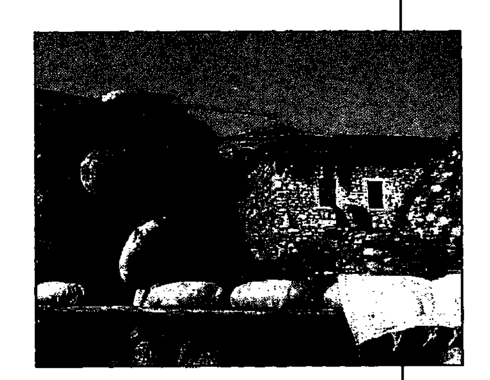
حروب البلقان

قبل طلوع فجر القرن العشرين ، كانت منطقة البلقان جميعها تُحكم من استانبول ، مقر الخلافة العثمانية ،ومركز الدولة متعددة الشعوب والجنسيات . القسم الغربى الأوروبى من تلك المنطقة كان كثيف السكان ، فقيراً ، ريفياً ، ويقع على الحدود المتاخمة للإمبراطوريات المسيحية ، خاصة النمساوية الكاثوليكية ، والروسية الأرثوذوكسية ؛ فادَّعت كل منهما لنفسها

(٤) إنه نفس الاعتقاد الخاطىء الآثم الذى « برَّرَ» به إخوة يوسف عليه السلام قتْله : « اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضًا يَخْلُ لكم وجْه أبيكم وتكونوا من بعده قومًا صالحين » سورة يوسف / ٩ . ومن عجب أنْ يكون قتل الأخ الصالح ـ بلا ذنب أو جرم ـ مدعاة لصلاح بقية الإخوة الأشرار !! . لا جديد إذن تحت الشمس . . فالإنسان هو الإنسان ، منذ أن خُلق وكان .

حق حماية الرعايا البلقانيين المسيحيين ، كذريعة لتقوية نفوذها داخل الدولة المريضة .. لكن المستفيد الأكبر من ضَعف العثمانيين ، كان دعاة القومية والاستقلال من سكان البلقان . وبالفعل ، تحقق لهم ذلك بالتتابع . استقلت صربيا ، ورومانيا ، ثم اليونان . وحصلت بلغاريا على الحكم الذاتى فى نطاق الدولة العثمانية ، وضَمت امبراطورية النمسا الهابسبورجية إليها البوسنة والهرسك ، وسنجق (مديرية) نوفيبازار ؛ فانحضر نطاق السلطة العثمانية فى ألبانيا، ومقدونيا (شمال اليونان) ، ثم ضُمت أجزاء صغيرة متفرقة (وسط هذا الخليط المتشابك) إلى اليونان ، وإلى بلغاريا .

أضاف استقلال تلك الدول إلى شعوبها مشكلات معقدة جديدة .. فهى فقيرة، متخلفة اقتصاديًا ، ريفية. وزادتها الكثافة السكانية التى انتقلت إليها (داخل حدودها الجديدة) ارتباكاً، وفقراً ، وتجزئة للأراضى .. فكان ما تملكه الأسرة الريفية من الأرض لا يكاد يكفى محصوله لسد حاجتها من الطعام؛ فكان المهرب من ذلك : الهجرة .. إلى الولايات المتحدة ، أو إلى المدن المجاورة، التى لا تملك استعداداً لاستقبال وافدين بأعداد كبيرة ، ولم تكن صناعاتها مزدهرة ؛ فتضخمت مشكلاتها .. فرومانيا ـ أكثر تلك الدول البلقانية تقدماً فى الصناعة ـ لم تزد فيها نسبة مساهمة الصناعة فى الاقتصاد القومى عن ١,٥٪ عام ١٩١٤ .



فى مقدونيا بقلب البلقان سنة ١٩٩٦ وكان الحياة لاتتطور .

كانت تكاليف إنشاء الدولة المستقلة فى منطقة البلقان باهظة ، وثقيلة على كاهل الشعب .. فكان على الدولةأن تقترض ، وأن تنفق على إنشاء الطرق ، والسكك الحديدية ، وتسليح الجيش . وكانت السلطة مركزة فى أيدى أُسر ملكية حاكمة ، مع قِلة من صفوة القادة العسكريين والسياسيين ، إلا أنه مع بدايات القرن العشرين ، تزايدت قوة الكتل الجماهيرية المتضامنة لحماية النظم الدستورية القائمة ، ولم تتوقف عن المطالبة بالإصلاح والتطوير ، خاصة بعد أن نجح زعماؤها فى شغْل مقاعد بالمجالس التشريعية (البرلمان). ووقعت مصادمات .. فى رومانيا ، عام ١٩٠٩ ، حيث تصدت السلطة الحاكمة بالسلاح للكتل الجماهيرية الريفية المطالبة بإصلاح أحوالها المتدهورة ، وراح ضحية ذلك نحو عشرة آلاف قتيل . وفى العام نفسه حدثت مصادمات

فى اليونان ، تدخّل فيها الجيش الذى اختار لتولى السلطة زعيماً وطنياً مستقلاً لتنفيذ برامج الإصلاح .

وجدت معظم تلك الدول الناشئة الضعيفة الفقيرة عوناً وتعاطفاً من جانب روسيا ، التى كانت تطمع وترتب للاقتراب من قلب الدولة العثمانية الموشكة على الانهيار ، حتى تنقض عليها فى الوقت المناسب ، وتفوز سريعاً بنصيب من تركتها .. فعقدت روسيا مع تلك الدول الصغيرة البلقانية معاهدات واتفاقيات حول عام ١٩١٢ . لم تكن روسيا فى الواقع تريد لهذه الدويلات أن تقوى وتزدهر ، حتى تظل فى حاجة إلى مساعدتها ، وحتى لا تتعرض بسوء لطموحات روسيا وسياساتها فى المنطقة مستقبلاً . لذلك .. حذّرت روسيا والنمسا تلك الدويلات من التخلى عن مساندة الدولة العثمانية إذا اقتضى الأمر .. لكن هذا التحذير ذهب هباء .

ففى أكتوبر عام ١٩١٢ أعلنت مونتنجرو الحرب على الجيش التركى ، وانضمت إليها صربيا واليونان وبلغاريا ، فتجمعت جيوشهم البالغ عددها سبعمائة ألف جندى إزاء نصف هذا العدد أو أقل من جنود العثمانيين الأضعف سلاحاً وغذاء ومالاً ، إذ إنهم لم يتسلموا رواتبهم منذ عدة شهور ؛ فكانت النتيجة متوقعة . وانحسر نطاق الحدود التركية الأوروبية فى إستانبول ، ومنطقة صغيرة حولها . ثم وقع الخلاف بين دويلات البلقان عندما تصادمت المصالح والأطماع : أعلنت بلغاريا الحرب على الصرب اليونان (١٩١٣) ، وسرعان ما لحقت بها الهزيمة . وقسِّمت مقدونيا بين



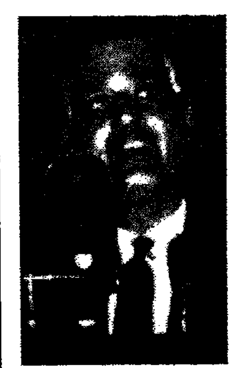
تغير زى وسلاح وتدريب جنود الدولة العثمانية أوائل القرن العشرين مع حروب البلقان .



جنود الدولة العثمانية فى أواخر القرن ١٩ .

صربيا واليونان . واستقلت ألبانيا تحت وصاية لجنة من القوَى العظمى . وارتفع صوت الوطنية والقومية المنتصر . واشتد غيظ روسيا والنمسا ، وضاق صدر كل منهما بسبب ضغوط دول القوى العظمى وإمبراطورياتها متعارضة المصالح ، مسعورة الأطماع .. فكان ذلك نذيراً بالانفجار .. والحرب .

ملحمة صينية


جمال عبد الناصر


أحمد سوكارنو


جوزيف تيتو

ليست هذه ملحمة يقطَّع فيها اللحم ويتَّجر به ، وإن كنا سنطَّلع على لحوم كثيرة تُمزق، وعظام تُهشم ، ورءوس تُفْصل ، ودماء بشرية تسيل ...

وإنما هى ملحمة ، أى مجموعة وقائع عظيمة فى الاضطراب والشدة والفتنة كما تقضى اللغة ، وكما أرادت الأقدار أن تُنسج مأساة أمة ضخمة ، اجتمع على نهشها وإذلالها قادة الاستعمار ، ودول القوى الكبرى فى مطلع القرن العشرين .

إنه درس ثمين للأجيال ، لا يجب أن يُنسى ... أن تتعرض الصين - وشعبها المكون من ٤٠٠ مليون نسمة فى عام ١٩٠٠ - لأبشع صور النهب والاستنزاف والمهانة والغبْن ، فكانت بحق مثالاً مفزعاً للأطماع الاستعمارية ، والمنافسات الإمبريالية ، لا يكاد يصدَّق . وهو يفسر شعور الصينيين المتسم بالنفور والمَقْت والحذر الشديد - طوال القرن العشرين - نحو الغرب وقياداته . ولعله هو الشعور نفسه الذى كان ملازما لغاندى فى الهند (نحو الإنجليز) ، وأحمد سوكارنو فى إندونيسيا (نحو الهولنديين) ، وتيتو فى يوغوسلافيا (نحو فرنسا) ، وعمر المختار فى ليبيا (نحو إيطاليا) ، وجمال عبدالناصر وكل الشعب فى مصر (نحو بريطانيا وكل أشكال الاستعمار)... ولا نريد أن نستبق الأحداث .

طلع فجر القرن العشرين على الصين ، وهى - لسوء حظها - تحت حكم امرأة ، قُدر لها أن تقبض على زمام السلطة نحو نصف قرن (١٨٦٠ - ١٩٠٨)، عبثت فيها ، واستبدت ، وخرَّبت ... كانوا يسمونها « بوذا العجوز» ، ويصفونها بأنها : « جاهلة ، فاسدة ، لا ضمير لها ، ولا أخلاق ، مسيطرة ، متغطرسة ، خُلقت لتآمر ..ذات قدرة عجيبة على القيام بمؤامرات البلاط ، لديها شعور دفين - مثل القط - بتوقع الخطر ، وقدرة فذة على الانقضاض على غِرة ، والقضاء على أعدائها ، مع فقدان ضميرها لكل وازع أخلاقى أو رادع ، لا تُلقى بالاً إلى الروابط العائلية ، أو العلاقات الإنسانية ، باستثناء

« جنج لو » العاشق الأثير ، فكانت أهواؤهـا ونزواتهـا مقدَّمـة عندهـا علـى مصالح الصين وأحوال شعبها » (١).

والعجيب أنها لم تكن أميرة ، ولا سليلة الأسرة الإمبراطورية الحاكمة ، بل كانت « أَمَة » من إماء الإمبراطور هيسان ـ فنج ، وضعت له غلاماً ، أصبح ولى العهد ، فرفعها الإمبراطور إلى مرتبة المحظية الأولى ، وقد تجاوزت سن العشرين بقليل ! . وسرعان ما استحوذت على قلب الامبراطور وفكره ؛ وأصبح لها نفوذ عظيم ، وتأثير على قراراته . هكذا كانت « تزو ـ هِى » ، ومعناها : الأم الحنون المباركة .

ولما توفى الإمبراطور ، قرَّبت إليها ـ علانية ـ قائد الحرس ـ جنج لو ـ صديق صباها ومحبوبها القديم ، وتمكنا معاً من الإطاحة بكبار الشخصيات المناوئة لها، والقضاء على مؤامرة دبرها رءوس أمراء المانشو الذين أرادوا استرجاع حقوق أسرتهم الحاكمة . ولما كانت الإمبراطورة الزوجة (زوجة الإمبراطور الراحل) سيدة ضعيفة الرأى والشخصية ، واهيـة الفكـر والإرادة ، فقـد استطـاعت تـزو ـ هـى أن تتصـدى للحكـم ،



* الإمبراطورة « تزو ـ هى » تحيط بها وصيفاتها، كما صورها فوتوغرافيًا أحد أمراء المانشو . وكانت تحرِّم على أى شخص من الرعية الاقتراب منها ، ولمسافة بعيدة ، علوًا واستكبارًا.

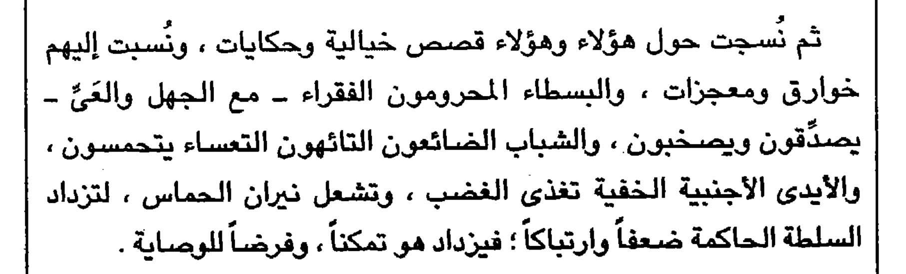
(١) Asia and Western Domination - K. Panikkar .

وتتصدر السلطة، وقد أصبحت أحد الأوصياء على العرش إلى أن يكبر ابنها الصغير .

كان أول اختبار لها وإظهار لمقدرتها ، مواجهة جماعة دينية تحركت فى عصيان عنيف ، يحركه فى الخفاء الاستعمار الأجنبى ، عُرف باسم «تمرد تيبنج»(٢). وخلاصة الأمر : أن جماعة من الشعب ساءها هوان وسوء أحوال البلاد ، وحماقة وابتذال القصر ، وضعف وفساد الحكومة ، وتمادى الأجانب فى فرض النفوذ واحتلال المواقع ؛ ففكرت ـ ولا غرابة فى ذلك ـ أن تثأر لكرامة الوطن ، ومقاومة إذلاله وقهره واغتصاب حقوقه ... لكن الخطر جاء من ناحية المبشرين .. فقد سبق أن أشرنا إلى استعانة الاستعمار بجماعات من المبشرين المسيحيين ـ على اختلاف مذاهبهم التى تسمح بذلك ـ واستخدامهم كطلائع وركائز لأهدافه وسياساته .. فنجح بهم فى بعض البلاد ، وأخفق فى أخرى ، ولكن فى الصين بالذات ، كان الأمر مختلفاً تماماً ، نظراً إلى طبيعة الشعب الصينى ذاته : ثقافة ، وحضارة ، وفلسفة ، وعقيدة ، وأسلوب حياة .. فاختلطت العقيدة بالخرافة ، والتعاليم بالأساطير ، والحقيقة بالزيف ، والإيمان بالخيال .. الجامح أحياناً، حتى إن بعض زعماء الجماعات الدينية السرية ـ التى زادت وانتشرت ـ توهم أنه مبعوث السماء لإزالة الشرور ، وإصلاح الفساد،وتخليص العالم .. بل إن بعضهم زعم أنه تجسيد للمسيح ـ عليه السلام ـ وأنه هو المسيح الجديد ، أو أنه روح الإله . من هنا ينفذ الخطل والخطر: قد تبدأ الدعوات بسيطة ، سلسة ، معقولة ، مقبولة ، ثم تميل كل الميل وتنحرف ، فتغوص فى متاهات ، وتتخبط ضاربة فى ظلمات ، فتسىء من حيث أرادت فى البداية النفع ، وتدمر من حيث ابتغت فى نشأتها البناء .



فى عام ١٩٠٣ حمل المبشرون الكاثوليك أسلحة للدفاع عن أنفسهم وممتلكاتهم ضد الثائرين الغاضبين من الوطنيين الصينيين.



ثم نُسجت حول هؤلاء وهؤلاء قصص خيالية وحكايات ، ونُسبت إليهم خوارق ومعجزات ، والبسطاء المحرومون الفقراء ـ مع الجهل والغَىِّ ـ يصدِّقون ويصخبون ، والشباب الضائعون التائهون التعساء يتحمسون ، والأيدى الأجنبية الخفية تغذى الغضب ، وتشعل نيران الحماس ، لتزداد السلطة الحاكمة ضعفاً وارتباكاً ؛ فيزداد هو تمكناً ، وفرضاً للوصاية .

---

(٢) The Taiping Rebellion .

تصاعدت خطورة الموقف عندما امتزج التعصب الدينى المتطرف المشوب بالغضب ، الناقم على أسرة المانشو ورموزها الحاكمة ؛ فأوشكت الثورة على الانفجار فى كل أرجاء الإمبراطورية . وكانت البداية مشجعة : استولى الثوار بسهولة على مدن كبيرة ومقاطعات ، واستمر هذا التمرد الثورى أربعة عشر عاماً ، أصابت البلاد بنكسة فادحة ، ودمَّرت ـ بدافع الهوس الدينى الغث ـ مكتبات إمبراطورية عامة ، كانت عامرة بكنوز المؤلفات والمخطوطات



مدينة كيفنج الصينية نظم حاكمها (عام ١٩٢٠) قوة فرسان مسلحة قوامها أكثر من ٢٠ الف جندى .

والموروثات ؛ فضاعت إلى الأبد ، وحطمت مدارس وجامعات ، باعتبارها رموزاً للوثنية والضلال تتلف عقول الشباب .

وفى غمرة هذه القلاقل والتخريب ، أعلنت مقاطعة سينكيانج ـ بالشمال الغربى ـ استقلالها كمقاطعة إسلامية ، بزعامة رجل تصفه المراجع « بالقوة والاقتدار » يُدعى يعقوب بك ، شرع بالفعل فى إقامة علاقات مع الدول الأجنبية . والغريب المدهش أن وزارة الخارجية البريطانية اقترحت على الحكومة الصينية آنذاك « أن مصلحة الصين تقتضى إقامة مملكة إسلامية بآسيا الوسطى تحت حكم يعقوب بك » !؛ فكان رد الحكومة الصينية : إذا شاءت بريطانيا قيام دولة إسلامية ، فعليها أن تعطيها أرضاً بالهند (درة التاج البريطانى) !.

واقتراح بريطانيا ينطوى على دهاء خبيث من عدة جوانب ، أبرزها : أن تمرد الجماعات الدينية الصينية كان يستهدف أولاً الإطاحة بالأسرة الإمبراطورية والسلطة الحاكمة وأتباعها الفاسدين المفسدين . أما عصيان



كان المتبع في تلك الفترة قطع رأس الثائرين ضد الفساد والاستعمار المتعدد الجنسيات، وذلك في ميدان عام ووضع رأس الذبيح بين قدميه لإرهاب الجمهور .



في مطلع القرن تأثر عدد قليل من ضعاف النفوس الصينيين الشباب بالمظاهر والأزياء الغربية الاستعمارية واستاء منهم الشعب .

المسلمين وإعلانهم الاستقلال ، فإنه يعنى التمرد على الصينيين أنفسهم ، والانشقاق عنهم ، فتشتعل جذوة البغضاء بين الفريقين . ومن ناحية أخرى ... لعل بريطانيا كانت ترمى ـ فى خططها البعيدة ـ إلى استمالة مسلمى وسط آسيا ، وتجميعهم لجذْبهم إليها ، أو استخلاصهم لنفسها من قبضة ومطامع الدب الروسى المتحفز للتوغل نحو الجنوب .

استعانت الإمبراطورة الوصية (تزو ـ هى) بثلاثة من أكبر وأشجع قوادها ، وتمكنت بهم من القضاء على التمرد والعصيان ، ثم ساد الصين لسنوات قدْر من الهدوء والاستقرار ، فانتعشت التجارة ، وتحسن الاقتصاد، وتدعمت السلطة الحاكمة فى العاصمة والمقاطعات بكفاءات من ذوى الخبرة العالية ، لكن القوى الأجنبية (خاصة بريطانيا ، وفرنسا ، والولايات المتحدة) لم تتوقف عن محاولات إضعاف سلطان الحكومة المركزية فى المقاطعات النائية ، وفى مدن السواحل ، واستخدمت فى تحقيق ذلك .. كل الوسائل ، ومنها الادعاء التقليدى المعهود : حماية الأقليات الدينية المسيحية ، وحرية العبادة والفكر .

فُرضت على الصين معاهدات مُجحفة ، وأحياناً مُخجلة : فهى تسمح ـ بلا شروط ولا تحفظات ـ بإقامة الأجانب بالموانىء المفتوحة للتجارة ، ومباشرة الأعمال المالية على طول سواحل الصين شمالاً وجنوبا (ومنها الموانىء الكبيرة،مثل : كانتون وشنغهاى) وأيضاً فى المدن الداخلية إلى بُعد ألف وخمسمائة كيلو متر من السواحل . وسُمِح لهم أيضاً بإقامة المؤسسات



الصين فى عام ١٩١٥: فقر ، وقهر، وسلطة حاكمة عابثة لاهية، واستعمار متعدد الجنسيات طاغٍ مستنزِف مذل .



* مظاهرة شعبية تصور ثورة الجماهير بالصين وتنظيماتها لإصلاح الفساد وتطهير الحُكم.



فرض المستعمرون الغربيون إقامة الأسوار الشائكة بطول الشوارع بالمدن الكبرى الصينية لعزل الأهالى فى ممرات ضيقة، ولإبعاد الثوار عن مصالح وممتلكات الأجانب الغاضبين.

والمبانى، والمجمعات السكنية، والأحياء، والمحاكم، والسجون الخاصة بهم وحدهم (بريطانية، وفرنسية، وألمانية، وإيطالية، وروسية، وفيما بعد يابانية ...) . وكانت شنغهاى أسوأ مثال على اختفاء سلطة الحكومة الوطنية، حيث يتمتع كل الأجانب والدخلاء بالنفوذ الأعلى فى كل مرافق الحياة اليومية: الإدارة والتجارة، والشرطة، والمدارس الخاصة، والشركات، والملاهى، والطرق ... وزوارق وسفن وأساطيل تلك الدول تروح وتغدو بمدافعها وأسلحتها المشْرَعة، فى دوريات منتظمة بالسواحل والأنهار الكبرى بلا حسيب ولا رقيب. ومُنح الأجانب حق حمل السلاح علانية بالمدن، كالمسدسات والسيوف.

كان رد فعل الشعب الصابر المسكين سيئاً، ثم ازداد سوءاً. فوقعت

مصادمات - دموية أحياناً - مع الأساقفة ، وجماعات المبشرين ، ومع بعض المتنصِّرين؛ فأسرع القناصلة (البريطانيون والفرنسيون خاصة) بالتدخل دبيلوماسيًّا وعسكريًّا ، وبزوارق المدفعية ، لإرهاب السكان الوطنيين ؛ فقُطعت رءوس « المشاغبين المتمردين»، ووقعت مذابح ... فلم يكن غريباً إزاء ذلك أن يتضاعف مَقْت الشعب وكراهيته للأجانب ، ولمن يدَّعون حمايتهم .



• قطع راس أحد اعضاء جماعة « البوكسرز » الوطنيين بالسيف على مشهد من الصنيين والاجانب.

زادت أحوال الحكومة ضعفاً وهواناً بعد الحرب السريعة التى فرضتْها اليابان على الصين ، واقتطعت منها كوريا ، وتنازلت الصين عن فرموزا (تايوان) وبيكادورس ، وشبه جزيرة لياوتنج فى منشوريا ، ودفعت تعويضات باهظة .. فكانت خسائر الصين فادحة ، ومستواها يهوى إلى الحضيض ، لم تنهض منه بعد ذلك إلا بمرور عشرات السنين .. فكانت نقطة تحول فى علاقات الصين بالغرب ، استمرت آثارها حتى نهاية القرن .

تدهورت أحوال الصين ، ودب الفساد والخراب فى كل المواقع ، وفقدت الإدارة الحكومية كفاءتها تماماً ، واستمر البلاط منغمساً فى ملاهيه وملذاته «يسيطر عليه خصيان جهله ، قد انحطت أخلاقهم ، ولم تبرز للإنقاذ أية قيادة قوية رشيدة ، وفقدت الطبقات الثرية القديمة كثيراً من كرامتها وسلطتها ، نتيجة للاقتصاد الأجنبى المسيطر على الموانىء .. فكانت الصين عاجزة تماماً إزاء أى عدوان خارجى . كانت أسوأ حالاً من أى بلد متوسط الحجم ، محدود الموارد ، ذابل الحضارة » .

أما الأسوأ من ذلك .. فهو تفكير دول الغرب - ومعها روسيا واليابان - عام ١٩٠٠ فى تقسيم الصين بأجمعها تقسيمًا رسميًّا فيما بينها .. فلما استولت الولايات المتحدة على جزر الفيليبين ، وصارت قوة عظمى بالمحيط الهادى ، تغير الموقف ، وارتبكت السياسات .. فقد طالب وزير الخارجية الأمريكى بأن يكون سداد الرسوم الجمركية فى كل أنحاء الصين وموانيها بمعرفة السلطات الصينية وموظفيها (وليس لممثلى القنصليات الأجنبية) ، كما طالب بأن تعامَل جميع الدول من الصين معاملة واحدة ، لا تفاضل بينها. معنى ذلك : حماية التجارة والمصالح الأمريكية فى كل مناطق الصين ومدنها وموانيها، وعلى قدم المساواة مع الدول الأخرى ، وفى الوقت نفسه ، وحدة أراضى الصين ، فلا يُنتزع منها شىء .

هنا أفاقت « الأرملة العجوز » - الإمبراطورة الوصية - من غَيِّها وغفلتها ، وانتبه البلاط مذعوراً ، وقد أدرك ما كان يُدَبَّر له ؛ فأصدرت الإمبراطورة أمراً

إلى نواب الإمبراطور بالأقاليم أن يستعدوا لرد أى عدوان مباغت ، ودبَّرت انقلاباً ، استردت به كل مظاهر السلطة ومفاتيح الحكم .



مجموعة من الشباب الصينيين الوطنيين ينضمون إلى تنظيم « الملاكمين » لمقاومة الاستعمار الأجنبى.

وفات دول الاستعمار أن تضع فى تقديراتها شيئاً على جانب كبير من الأهمية : وطنية الشعب الصينى وحيويته التى ظنوا أنها وهَنَت واندثرت من طول ما قاسَى، وما تعرَّض له ، وما نكب به .

هبَّت موجات من الحماس الثائر المتدفق قادمة من أرياف الصين تحت قيادة حركة ، ظهرت لأول مرة سرًّا عام ١٩٠٠ فى « شانتُنج » ، تسمى نفسها: البوكْسرز أو « الملاكمين » ويسميها البعض : حركة القبضات المتآلفة. وهى فى حقيقة أمرها تحرك وطنى تلقائى صرف . توخَّى : « طرد الأجانب المستغلين الدخلاء ، الذين أهانوا الصين وأذلوها ، واستنزفوا خيراتها ، ورد أشياعهم الصينيين إلى الصواب ، وإلى عقائد الصين ، وفكرها، وثقافتها » . كما أن هذه الحركة أرادت أن تعيد إلى الأسرة الإمبراطورية الحاكمة مجدها وهيبتها ، وإلى البلاط نزاهته وكرامته ونُبله ، (وهنا تبدو سمات مشتركة مع تعاليم طائفة الشنتو الإصلاحية فى اليابان) .

فى عام ١٩٠١ ، بدأ يعلو شأن « البوكسرز » ، فانضم إليهم فى المدن موظفون وطنيون مخلصون ، من الكبار والشباب ، وعضَّدهم حاكم شانتنج ، كما أمدهم بالعوْن والرعاية بعض أمراء المانشو . ثم ما لبثت الإمبراطورة ذاتها أن مالت إليهم وساعدتهم ..لكنهم فى نظر الدخلاء الأجانب كانوا : حمقى ، إرهابيين ، متعصبين ، ناقمين ، حاقدين ، يريدون السلب والنهب ، فى حين أن الذين لم يمدوا إليهم عوناً أو نُصرة (من الصينيين) كانوا يعترفون بأنهم «أصحاب حركة ، هى فى جوهرها قومية وطنية خالصة، تستحق التقدير ، باعتبارها انفجاراً وطنيًّا أصيلاً » .

طالبت الدول الأجنبية بقمع تلك الحركة ، والقضاء عليها ، واقترحت صدور مرسوم إمبراطورى ينص صراحة على « أن الانتماء إلى أى جماعة من تلك الجماعات ، أو إيواء فرد من أفرادها ، يُعد جناية يعاقب علها القانون الصينى». وبلغ التمادى بتلك الدول الأجنبية الاستعمارية الدخيلة أن طلبت من الحكومة الصينية الموافقة على اعتبار أى مقاومة من جانب الشعب الصينى لأعمال وتصرفات الأجانب والمبشرين - مهما كانت - جريمة تستحق الجزاء الرادع .. إلا أن هذه المطالب الخرقاء زادت أعضاء «البوكسرن» إيماناً بصدق وعدالة مقاصدهم ، وثباتاً وقوة فى الكفاح والمقاومة . وانكشف للصينيين جميعاً الوجه الحقيقى لأعداء الصين

ومخربيها ، والطامعين فى أراضيها ، ثم سلك الدخلاء الأجانب مسلكاً أكثر تجاوزاً ، وأكبر شططاً ، إذ رتبوا مظاهرات بحرية بسفنهم وزوارقهم المسلحة، إنذاراً وتهديداً وتخويفاً ، ولكنها أحدثت العكس فى نفوس الشعب الصينى العريق : زادته سخطاً وكراهية وتصميمًا على النضال . ووقعت مصادمات ومعارك ومواجهات ، سالت فيها دماء من هنا ، ودماء من هناك ، وانطلق جنود الدول المتضامنة ينهبون نهباً مطلقاً من كل قيد . وشهد سفير إيطالى سابق ـ عاصر تلك الأحداث ـ فقال: « إن ما قاساه سكان العاصمة بيكين من الأهوال وبشاعة الانتقام على أيدى الأجانب ، يفوق التصور والتوقع ». وفرضوا على الصين تعويضات ضخمة ، على أقساط تنتهى عام ١٩٤٠ ـ ! ـ واحتفظوا لأنفسهم بحى السفارات ، لا يسكنه غيرهم ، ووضعوا له شرطة حراسة خاصة من رجالهم ، مع حق نشر الجنود الأجانب فى مناطق أخرى بالعاصمة ، وحماية المبشرين ، وحظر استيراد الصين للأسلحة والذخائر لمدة عامين !.


أسرة صينية من مدينة شينجشو فى أوائل القرن العشرين.

ويوم أن أَحْدق الخطر بالعاصمة ـ بيكين ـ ارتكبت الإمبراطورة الوصية خطأً مشيناً ، إذ فرت هاربة ، متنكرة فى الخفاء ، ثم عادت بعد فترة للإقامة بالعاصمة ، هزيلة سقيمة ، مكتئبة مكروهة .. فقد أذعنت للأجانب ، وتوددت إلى نساء الدبلوماسيين، واحتفت ورحَّبت باستقبال المبشرات والمبشرين . لقد وهَنت وأُهينت، وخبا بريقها ، وتهرأت سلطتها ، وأراحتها الحروب والنزاعات اليابانية ـ الروسية قليلاً من ضغوط المشاكل والهموم ، إلى أن ماتت عام ١٩٠٨ ، قبل أن تَشهد زوال حكم أسرة المانشو على يد الثوار الوطنيين الصينيين ، بعد سنوات ثلاث فقط من وفاتها .

بدأ الظلام الكئيب الكثيف ينزاح عن سماء الصين ، ويُخلى مكانه لطلوع فجر جديد، يحمل معه بشائر روح جديدة ، وعزائم سديدة ، وعقول رشيدة، تمحِّص الماضى القريب ، وتتعلم من أخطائه ، وترنو إلى المستقبل الوليد ، وتتفهم مطالبه وغاياته . وكلها تلتقى عند تحقيق ما كان لابد أن يتحقق : وطن عزيز كريم لكل أبنائه ، وحرية شعب آن له أن يطرد كل أعدائه، والإطاحة بحكم إمبراطورى أدمن الفساد والاستغراق فى ملذاته .

إن مشكاة الضوء فى بصيرة الأمة الواعية العريقة لا تنطفىء ، وجَذْوة الحماس فى ضمير الشعب الأبىِّ الوفىِّ لا تزول . ولقد وجد الصينيون لديهم من الشجاعة والجرأة ما دفعهم إلى قطع التعامل مع الأمريكيين (١٩٠٥) ، احتجاجاً على سوء معاملة إخوانهم الصينيين داخل الولايات المتحدة ، ثم

فعلوا الشىء نفسه (١٩٠٨) مع اليابان ، تعبيراً عن الاستياء الوطنى والغضب . وفى خطوة عملية رشيدة سديدة ، بعثوا بأعداد كبيرة من الشباب الوطنى للدراسة بالخارج ، واكتساب الخبرات والمعارف،والتقاط طرائق التكنولوجيات الجديدة ، فرجعوا إلى وطنهم معلِّمين مدرَّبين ، ومطوِّرين مصلحين .. فلما انتصرت اليابان على روسيا انتصاراً حاسماً ، كان ذلك إيذاناً بغروب شمس الرجل الأبيض الأوروبى الثقيل الدخيل ، من الصين ، ثم من آسيا فيما سوف يأتى من سنين...

فهل تُلام الصين على كراهية الاستعمار ، ومَقْت أساليبه وسياساته ومؤامراته وكل أشكال خداعاته ؟، أم تلام على شكوكها فيه ، وحَذَرها منه ، وحيطتها تجاهه؟ .. هذا ما حدث فى أول القرن العشرين .. ولسوف يشهد ويسجل لها الكثير ، وسنرى من أمرها عجباً ! .

من روسيا القيصرية إلى نشأة البولشفية

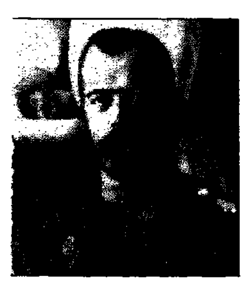
دخلت روسيا القرن العشرين وهى تحت حكم أسرة رومانوف ، ممثَّلة فى آخر قياصرتها :نيقولا الثانى ، الذى تولى منصبه عام ١٨٩٠ .فى السنوات الأولى من هذا القرن شهدت روسيا محاولات للإصلاح ، ولكن مع الضغط والإكراه والقهر . وأيقن القيصر أن بقاء النظام الحاكم مرهون ببناء وإظهار قوة الدولة .

كان الإقطاع ـ بنظامه ، وامتيازاته ، ومساوئه ـ قد تلاشى تقريباً منذ عام ١٨٦٠ ، وجرى تحديث للجيش ، وتسارعت خطوات التصنيع .. فلما حل عام ١٩١٣ ، كانت روسيا فى المرتبة الخامسة بين الدول الصناعية الكبرى .

هذه التغيرات السريعة أحدثت ـ بالضرورة ـ تحولات كبيرة فى المجتمع . مثلا: هَجَرت أعداد كبيرة من سكان الريف والقرى أراضيها ، واتجهت نحو المدن ، فطغت على حياة القوى العاملة المقيمة فيها ، وأشاعت تياراً من الاضطرابات والأزمات فى السكن ، وفى مواد الطعام ؛ فارتبكت القيادات السياسية والتنفيذية .

لقد أفرز التقدم والتحديث طبقة جديدة من الموظفين ، والأطباء والمعلمين

والمحامين ، والفنيين ، ظهر من بينهم دعـاة ومناصرون للإصلاح ، يتطلعون إلى جعل روسيـا دولة حديثـة متطورة .وهنا وقع التصادم وانشق الصدْع: بين السلطة القيصرية الحاكمـة التى اتسمت بالتراخى والمظهرية فى إصـلاح الفسـاد والتطوير ، وبين الـوطنيين المخلصين المتعجلين ، الذين يزدادون كل يوم عـدداً ، ويريدون إصـلاحـاً حقيقيًـا جـوهريًا ، وتطويراً يحفظ حقـوق وكرامة الفرد ، ويرفع مستوى ومكانة الدولة والمجتمع .



القيصر نيقولا الثانى

استمـرت الدولة مَلَكية الحكم ، فـردية السلطة المطْلقة ، يدْعمهـا ساسـة يخضعون للجيش وللبيروقـراطية . وكـان نيقولا الثانى يـؤمن إيماناً راسخاً بأن سلطانه مستمـد من الله الـذى يمنحـه الرعـايةوالحماية .. فهـو يمارس سلطته كاملة بلا حدود ولا قيود .

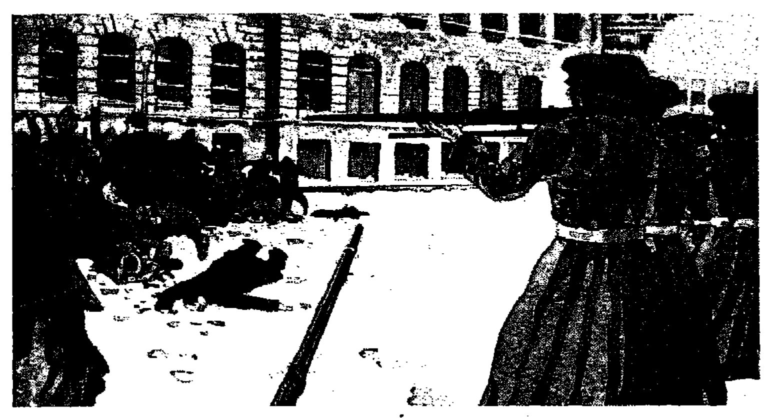
نتج عن هذا التناقض الصارخ بين النزعة القـديمة التى تتوهم أن سلطان الحاكم مقـــرون بالحق الإلهى ، وبين التغيرات الفكـرية والاجتماعيـــة والاقتصادية السريعة المتوالية ، أن تشجعت المعارضة السياسية ، وانطلقت، وانتشرت .. فلما انهزمت روسيـا فى حـربها مع اليـابان بالجبهـة الشرقيـة (١٩٠٤ ـ ١٩٠٥)؛ اهتز عرش القيصر ، وتفجر غضب الفـلاحيـن البائسين والعمال الكـــادحين فى شكل ثورة ، أو أزمة ثائرة ؛ فاضطر القيصر عام ١٩٠٥ إلى إعلان السمـاح بإطلاق بعض الحريـات المدنيـة ، والموافقـة على تكويـن مجلس تشريعى وطنى منتخب .. فلما هدأت ثائـرة الشعب ، تراجعت السلطة الحاكمة فى تنفيذ قراراتها المهدئة ، وأدخلتْ عليها تعديلات جوهرية : حـريـات محدودة مبتَسَرة ، ومجلس وطنى لا حـوْل له ولا قـــوة . وتلاشت حقـوق الشعب الأساسيـة ، مثل : حـرية التعبير ، والاجتماع ، وإبداء الرأى المعارض . وعـاد القيصر بين عامى ١٩٠٥ ـ ١٩١٤ سيرته الأولى ، يحكم بلا منازع ، ويستبـد بسلطته القـاهرة المطْلقة ، وتعـرض الوطنيون المخلصـون الغاضبون للاعتقال ، والسجن ، والنفى، والقتل .



بوادر الدعوة إلى الثورة أمام قصر القيصر

فى عـــام ١٩١٤ لاحت بوادر التصـــادم الكبير الحاد بين الفكر القـديم ، والواقع الملتهب الجديد ، حيث تجمعت قوى التيـارات المحافظة ، والتحررية والاشتراكيـة ، تطالب جميعها ـ وتتـوقع ـ تغييرات سياسيـة جذرية . وعـلا زئير المعـارضة ، وزادت قـوة وجرأة . وفى غمـرة اضطرابات شاملة داميـة ، وقَعـــت فى بطرسبورج عام ١٩١٤ ، اتخذ القيصر قراراً بإعلان الحرب على النمسا وألمانيا . وهنا تبدأ مرحلة ثورية جديدة حاسمة.

دخلت روسيا القيصرية الحرب العظمى (العالمية الأولى) متأففة مترددة.. فجيشها فى عام ١٩١٤ لم يكن أبداً فى حالة تسمح له بمواجهة جيش الإمبراطورية الألمانية . وحتى بعض الحماس الذى ساد الجيش الروسى فى بداية الحرب ، تبخر سريعاً بعد الهزائم المبكرة المتوالية . وفى الدوما (البرلمان الروسى) اجترأ النواب البلاشفة الخمسة على معارضة اشتراك بلادهم فى الحرب ، وإلى جانب الحلفاء ؛فكان مصيرهم النفى إلى سيبيريا . وهناك فكر زعيمهم (فلاديمير إليريش لنين) فى أن هزيمة الجيش الإمبراطورى الروسى هى مفتاح الطريق إلى تحقيق أهداف الثورة داخل



موسكو فى أوائل القرن ٢٠ وضحايا الثوار أمام القصر الامبراطورى

روسيا ، وأنه كلما زاد العداء بين الشعب (ومعظمه من الفلاحين) وبين السلطة الحاكمة ؛ ضعفت تلك السلطة ، وتضعضعت ، وتهيأ النجاح للثورة .

انتقلت السلطة إلى حكومة مؤقتة ، إلى أن ينعقد برلمان دستورى ، يضع دستوراً جديداً ، ويختار حكومة رسمية دائمة . فَشَلت تلك الحكومة المؤقتة ـ وكذلك ثلاث حكومات متتالية ـ فى إنهاء الحرب . وعَلا ضجيج الشعب الجائع، وصراخ الجنود الفقراء من المؤونة والسلاح ، وبدَا الذعر على الأريستوقراطية الواجفة . ووجدت السلطة الحاكمة نفسها فى مأزق وحيرة: فلو أن الحكومة وافقت على انسحاب روسيا من الحرب ، فإن الجنود العائدين (وغالبيتهم فلاحون فى ملابس عسكرية) سوف يطالبون بأرضٍ يتملكونها ، كما وُعدوا بها من قبل ، لإغرائهم بالاشتراك فى الجيش . ولو أن الحكومة أعلنت أنها تضمن لهم تنفيذ ذلك الوعد والحرب قائمة ، فإنهم سيتركون مواقعهم للحصول على نصيبهم من الأراضى . وكان على الحكومة أيضاً أن تدخل فى نزاع ـ وأحياناً فى صراع ـ مع المؤسسات الديموقراطية القائمة ، وهى السوفييت (ومعناها : المجالس) التى كان أشهرها وأقواها فى بتروجراد وموسكو . وبالرغم من مساندة الاشتراكيين المعتدلين (وهم



فلاديمير لنين

المانشفيك ، أى : أغلبية الشعب) والاشتراكيين الثوريين ، للحكومة المؤقتة ، إلا أنها واجهت معارضة شديدة عنيدة من جانب لنين ومَن معه من البلاشفة (أى الأقلية) .

فى يوليو ١٩١٤ حاول العمال والجنود الاستيلاء على مراكز السلطة فى بتروجراد . ولمّا اتُّهـم لنين بالحصول على أموال من ألمانيا ، فر هارباً إلى فنلندا ، خاصة بعد فشل موجات الإضرابات والعنف التى حرَّض على إشعالها . وفى ٢٢ يوليو تولى ألكسندر كيرْنسكى رئاسة الحكومة . وحاول إقرار النظام فى العاصمة ، لكن ليون تروتْسكى ـ أحد الشخصيات البارزة والقائدة فى سوفييت (مجلس) بتروجراد ـ نظَّم فرقاً مسلحة تحت ستار سلطة القيادة المحلية ، قاوم بها محاولات كيرنسكى الإصلاحية والتنظيمية .. فلما علم لنين بذلك وهو فى مختبئه بفنلندا ، عاد سرًّا إلى روسيا . وفى ٧ أكتوبر (٢٥ نوفمبر بتقويم روسيا القديم) استطـاع مع رفاقه البلاشفة أن يطيحوا بحكومة كيرنسكى .

كان الكثيرون من العمال الذين عضَّدوا الثورة يعتقدون أن روسيا سـوف تحكـم ديمقراطيـاً بواسطة السوفييت (أى المجالس) المحلية ، لكن



* ألكسندر كيرنسكى (توفى ١٩٧٠) . كان له دور كبير فى تشكيل سياسة الحكومة المؤقتة عام ١٩١٧ . استطاع بحكمة أن يحتوى ثورة الجيش ، لكنه فشل فى احتواء تمرد لنين .





* القيصر نيقولا الثانى مع أسرته الذى تنازل عن العرش فى ١٥ مارس ١٩١٧ ، فتكونت بعده أول حكومة مؤقتة تولت السلطة . فى عام ١٩١٨ أعدمت الثورة الشيوعية القيصر وأسرته كلها واحدًا واحدًا أمام بعضهم البعض ، بعد اعتقالهم المهين فترة طويلة .

* دفعت روسيا ثمنًا فادحًا فى حرب طويلة ، لـم تكـن مستعدة لها ، وذلك لتخلفها تكنولوجيًا عن ألمانيا . وحتى منتصف عام ١٩١٧ ، كانت روسيا قد حركت ١٥ مليونًا من جنودها ومواطنيها ، قتل منهم ١,٧ فى المعارك ، جرح منهم ٤,٩ مليون ، وفقد وأسر منهم ٢,٨ ، رغم أن روسيا كانت أقـوى مـن تركيـا وبلغاريا والنمسا .

الأمور سارت على غير ذلك .. ثم واجه لنين ، هو وأتباعه البلاشفة (كانوا أقل من ثلاثمائة ألف فى روسيا كلها) معارضة شديدة من الأحزاب ، ومن المنظمات الشعبية . كان تأثيره السياسى فى البداية ضعيفاً . وبعد توقيع معاهدة برسْت ـ ليتوفسك فى مارس ١٩١٨ ، التى أنهت الحرب الروسية مع ألمانيا ، اشتعلت فى صيف ذلك العام الحرب الأهلية داخل روسيا : بين البلاشفة « الحُمر » ، والمناوئين للشيوعية « البيض » . وفى الخريف ، تدخل الحلفاء إلى جانب «البيض» لمساعدتهم فى تكوين جبهة ضد الشيوعيين الحُمر فى المناطق الشرقية من ساحات القتال السابقة . استمر الصراع فى

روسيا حتى نهاية عام ١٩٢٠ بانتصار فرق المسلحين من الحزب الشيوعى . وفى غمرة هذا الصراع قتل الشيوعيون القيصر وأسرته رمياً بالرصاص فى بدروم البيت الذى اعتُقلوا فيه .

استطاع الشيوعيون استمالة الكثيرين من العمال والفلاحين بوعود براقة، حتى يقفوا إلى جانبهم . كما تمكن تروتْسكى بكفاءة عالية وذكاء من أن يفرض على البلاد السيطرة العسكرية السوفيتية . وابتدع لنين سلطة قوية جديدة لحكم البلاد : الحزب الشيوعى للاتحاد السوفيتى . وبينما حظى لنين بمساندة من «التشيكا » ، أى : البوليس السرى، وأيضاً من قيادات بالجيش طامعة فى نصيب من الغنائم ، إلا أن المجالس (السوفييت) المحلية أدركت بوادر خنق الديموقراطية ، فوقفت موقف المعارضة .. فكانت صدامات دموية مدمرة ، وإعدام بالجملة ؛ مما أثر على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية بشكل خطير - إلى جانب خسائر الحرب العظمى - فاضطر لنين فى عام ١٩٢١ إلى أن يستسلم لتطبيق نظام اقتصادى مؤقت ، يسمح بالمْلكية الفردية ، ويخفف من غلْواء الاشتراكية والضغوط الشيوعية . وإذ استفاد من هذا التيسير غالبية الفلاحين (وهم ٨٠٪ من السكان) ، فقد أخذ الاقتصاد الروسى ينتعش رويداً رويداً .. ولكن إلى حين .

كان فرح الشيوعيين بنجاح ثورتهم أقوى من جزعهم على ضياع أجزاء كبيرة وثرية من الإمبراطورية : فنلندا ، وإستونيا ، ولاتفيا ، وليتوانيا ، وبولندا ، وأجزاء من أوكرانيا وبيصاربيا .

ثم جاءت مشكلة « الخلافة » : مَن يخلف لنين بعد وفاته عام ١٩٢٤ ؟ .
إن لنين نفسه كان يتوقع أن يكون تروتْسكى - الأقرب إلى نفسه ، وأكثر



* كان تروتسكى ذكيًا منظمًا ، إلا انه غير حاذق سياسيا . كان ناقدًا ومتحدثًا لبقًا ، لكنه لم يفطن إلى تآمر ستالين ضده، حتى اضطره إلى الهرب منفيًا ، ثم دبر لقتله - بعد أن قتل ابنه - ونجح فى اغتياله بالمكسيك عام ١٩٤٠ .



* اجتاحت المجاعة مناطق الفولجا عامى ٢١ - ١٩٢٢ ، وراح ضحيتها نحو خمسة ملايين ، هلكوا جوعًا ، ودمرت اقتصاد روسيا ، مما أجبر لنين على تعديل نظامه ، والسماح بالملْكية الخاصة .



الرسم الشيوعى هنا يبين العم سام الأمريكى ، وهو يطلق كلابه من زعماء البيض المناهضين للشيوعيين.



* « الرفيق لنين يكنس العالم » رسم كاريكاتورى استخدمه الشيوعيون السوفيت فى بداية حملاتهم الدعائية ، وفيه وعد بتطهير العالم من الظلم والاستغلال والسيطرة .



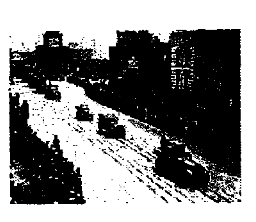
لنين يخطب فى الجموع ويستثيرها

الجميع نشاطاً ومرونة ـ هو خليفته فى القيادة والزعامة ، إلا أن رجلاً يدعى جوزيف ستالين ـ على قدْر ضئيل من الثقافة والتعليم ـ جاء من أعماق الريف ، لم يَدَع لتروتسكى الفرصة .. فيتولى هو زمام السلطة ، ثم يدخل بالاتحاد السوفيتى ـ وبالعالم معه ـ فى منعطف جديد مثير ، تساقطت فيه الضحايا ـ ومن بينهم تروتسكى ذاته ـ بالآلاف .. بالملايين .. بعشرات الملايين ، ولو أنه قفز ببلاده ـ بعد نحو ربع قرن ـ إلى مرتبة الدولة العظمى عسكريًّا ، فى المرتبة الثانية عالميًّا بعد الولايات المتحدة الأمريكية ، وفى مواجهتها المتحدية . (وسوف نتناول ذلك بالتفصيل فى موضعه من الحرب العالمية الأولى ، وما تلاها من أحداث على المستوى العالمى) .

الاقتصاد العالمى

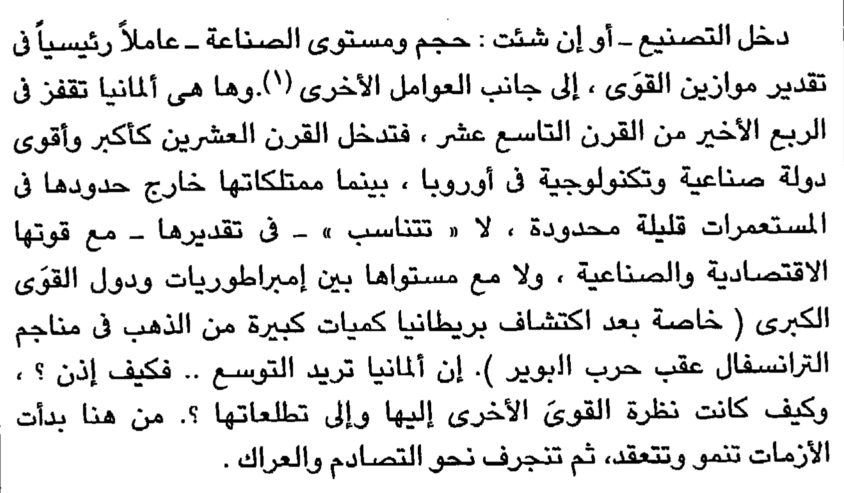
فى عام ١٩٠٠ كانت أفكار كارل ماركس ، ومن سلك سبيله من الاقتصاديين الاشتراكيين، تنتشر وتصطرع ، فتثير ثائرة الكتل العمالية ، فتُضرب عن العمل ، وتخرج إلى الشوارع فى مظاهرات صاخبة صارخة ، تتسم بالعنف، وتدعو إلى ثورة عالمية عمالية . ولاح فى الأفق ، وتطرَّق إلى الأذهان أن النظم القديمة على وشك الانهيار ، أو أنها ـ على الأقل ـ تهتز بقوة، ولابد من وقوع تغييرات جذرية طوْعاً أو كَرْهاً .

ومما لا شك فيه ، ولا كثير جدال حوله ، أن كارل ماركس وأضرابه كانوا مجرد « باعث » أو « مثير » أو « محرِّض » . أما الأصل أو الأساس الكامن وراء كل ما حدث، وما سوف يحدث ، فهو « التصنيع » ذاته ، الذى نما ، وكبر ، واتسع ، وتضخم ، فحمل بذور « أمراضه » أو مشكلاته معه ، دون أن يدرى .



تسابقت دول أوروبا (خاصة ألمانيا وبريطانيا) فى التكنولوجيا والتصنيع مع التركيز على الصناعات الحربية .

إن العاقل الحصيف بعيد النظر ـ وهكذا يجب أن يكون القادة والمفكرون والسياسيون والزعماء ـ يستبق الحاضر إلى مشارف المستقبل ، ويعيش اليوم والغد القريب والبعيد معاً ، ثم يقدِّر النتائج ، وما ترتب عليها ، وما سوف تؤدى إليه أو تتصادم به . وفوق ذلك .. يعرف جيداً الحدود والقيود : أين ، وكيف ، ومتى يقف ، ولماذا ؟ ، كما يدرك ـ قبل غيره ـ من أين تهب العواصف ، وتنبثق الكوارث .



دخل التصنيع ـ أو إن شئت : حجم ومستوى الصناعة ـ عاملاً رئيسياً فى تقدير موازين القوَى ، إلى جانب العوامل الأخرى [1].وها هى ألمانيا تقفز فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، فتدخل القرن العشرين كأكبر وأقوى دولة صناعية وتكنولوجية فى أوروبا ، بينما ممتلكاتها خارج حدودها فى المستعمرات قليلة محدودة ، لا « تتناسب » ـ فى تقديرها ـ مع قوتها الاقتصادية والصناعية ، ولا مع مستواها بين إمبراطوريات ودول القوَى الكبرى (خاصة بعد اكتشاف بريطانيا كميات كبيرة من الذهب فى مناجم الترانسفال عقب حرب البوير). إن ألمانيا تريد التوسع .. فكيف إذن ؟ ، وكيف كانت نظرة القوىَ الأخرى إليها وإلى تطلعاتها ؟. من هنا بدأت الأزمات تنمو وتتعقد، ثم تنجرف نحو التصادم والعراك .

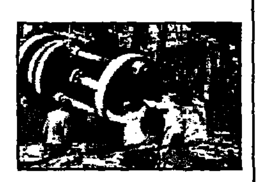
فى عام ١٩٠٠ كانت أوروبا تنتج ١٧ مليون طن من الصلب . ثلثا تلك الكمية تنتجه دولتان فقط : ألمانيا ، وبريطانيا . وكانت بريطانيا تستخرج من الفحم ، وتُنتج من النسيج كميات تفوق كل ما تستخرجه منه وتنتجه أوروبا جميعها .

كان معظم الدول الأوروبية ـ مثل غالبية دول العالم ـ يعتمد فى

(١) نقصد بالتصنيع ـ ليس الإنتاج والتسويق فقط ـ وإنما كل ما يرتبط بذلك ، ويؤثر فيه وعليه من قريب أو بعيد ، كالتعليم ، والبحث العلمى ، والابتكار ، والتدريب ، ونظم العمل ، والرعاية الاجتماعية ، واحتياطات الأمن ، والاستثمار والتمويل ، وكمية الإنتاج ومستواه وتنوعه مدنياً وحربياً ، وقطاعاته العامة والخاصة والمشتركة ، والتوزيع ، والنقل ، والإدارة ، وحماية الإنتاج ، والجمارك ، والضرائب . . . إلخ .

اقتصادياته على الزراعة وتوابعها . أما الصناعة ـ خارج أوروبا ـ فكانت محدودة ، ضعيفة المستوى ، فيما عدا الولايات المتحدة الأمريكية ، حيث الوفرة الهائلة من الأراضى والمواد الخام ، والأيدى العاملة المدرَّبة ، والتفتح العلمى والتكنولوجى، وحرية العمل والتنقل والاختيار ،، وإتاحة الفرص أمام الجميع، ولكل قادر على الكفاح والنجاح والارتقاء والثراء ، وبذلك صارت الولايات المتحدة ـ بعد أربعين سنة فقط من الحرب الأهلية ـ فى مركز الصدارة ، وريادة الدول الصناعية الإنتاجية الكبرى .

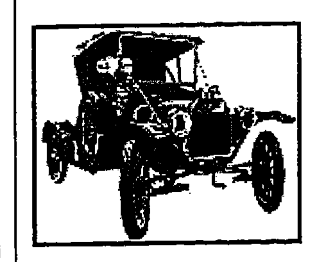
أسرعت دول كثيرة ـ عبر العالم ـ تحاول اللحاق بركب التقدم العلمى والتكنولوجى والصناعى ، وتجتهد فى تطوير اقتصادها ، ومواكبة التغيرات الاجتماعية والمدنية الجديدة .. لكنها كانت غالباً تعتمد على الاستثمارات الأوروبية ، وعلى التكنولوجيات الأوروبية والأمريكية .. فكانت فائدة مزدوجة بين الطرفين : انتفاع الدول الصناعية الكبرى بالمواد الخام والأيدى العاملة رخيصة الثمن ، وتسويق منتجاتها الصناعية ، وانتفاع الدول الأخرى بالتمويل وبالخبرات الصناعية والإنتاجية ، وأساليب العمل والتسويق (وإن كانت الدول الأضعف لم تسلم ـ كثيرا ـ من حيف واستغلال الدول الأقوى ، ومن دهاء وغلواء كبار المستثمرين الأجانب) ؛ فنشط تصدير الفاكهة واللحوم المعلَّبة من أمريكا اللاتينية ، والكاكاو من أفريقيا ، واستخرجت بريطانيا من مناجم الترانسفال وحدها عام ١٩٠٠ أكثر من مائة ألف طن ذهب !، ومئات الآلاف من أطنان الزنك من الملايو ، والنحاس من كندا ، وتلك مجرد أمثلة .. أما بقية دول وشعوب العالم ـ حتى الدول التعيسة التى استمرت خيراتها ومعادنها تُستنزف ـ فقد ظلت حبيسة النظم التقليدية فى الزراعة والصناعات المحلية البسيطة .



حاولت روسيا فى بدايات القرن ٢٠ اللحاق بالصناعات الثقيلة والحربية الألمانية .

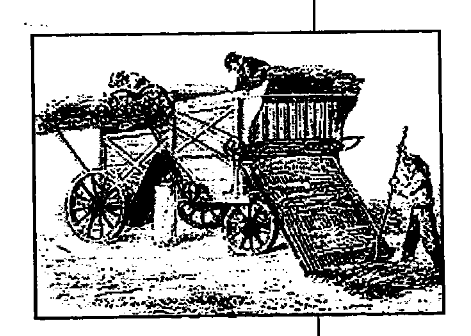
وفى عام ١٩٠٠ ، كان لابد من تطوير وسائل النقل ، وتسويق التجارة العالمية ، ونظم النقد والتعامل والتأمين ، بما يتسق مع التشابكات العالمية فى الحركة ، والتبادل ، والاتصال ، والمواصلات ، وحجم التجارة ، وطرقها البرية والبحرية . وهذه كلها بدورها فتحت باباً جديداً ـ بل أبواباً واسعة ـ لمجال العمل ، والإنتاج ، والاستثمار ، والربح، كان ضيقاً محدوداً ، وللخاصة : السياحة .

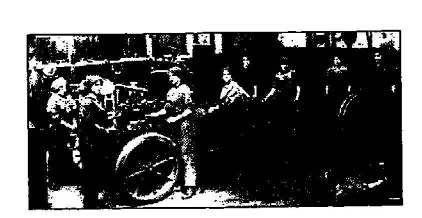
احتكرت بريطانيا وحدها نصف التجارة العالمية بأسطولها البحرى المتسيد فى البحار والمحيطات . كما أن مجموع استثماراتها الخارجية وحدها



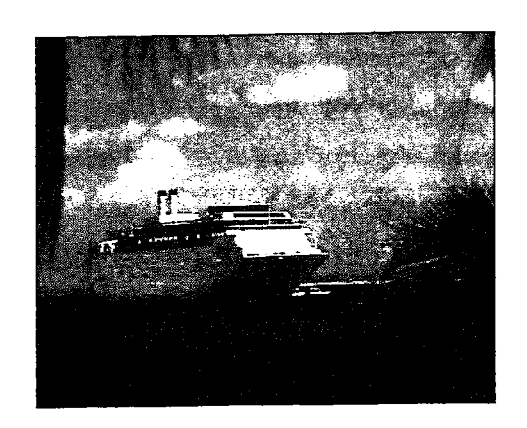
فاق مجموع استثمارات كل دول العالم مجتمعة . وفى عام ١٩٠٠ ، زاد حجم التجارة العالمية ثلاثة أضعاف ما كان عليه فى السنوات القليلة السابقة ، وبالتالى زاد العائد منها، وتضخمت أرباح المستثمرين (الدول ، والأفراد ، والشركات) ، ونالت كل من : الولايات المتحدة الأمريكية ، وبريطانيا النصيب الأكبر من ذلك ، ولم يتحسن كثيراً ـ أو بالقدر نفسه ـ مستوى الدخل والحياة الاجتماعية الشعبية داخل هاتين الدولتين الرابحتين ، لأن معظم الثروة كان مُرَكَّزًا فى أيدى أفراد ، أو أُسر قليلة محدودة العدد . وظل الملايين فى أمريكا وأوروبا ودول التخلف الصناعى يعانون مرارة الحرمان ، وبؤس الحاجة ، والفقر ، والمرض .

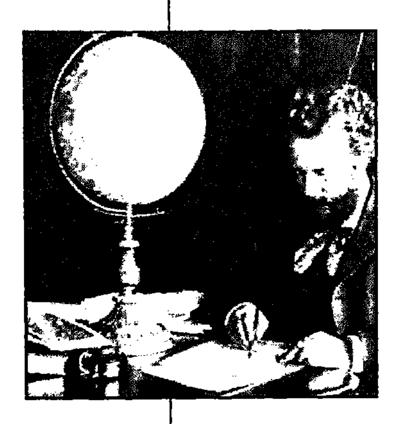
وحين نشير إلى التطور الاقتصادى وآثاره ، لا يجب أن نغفل عن الإشادة ـ المكثفة ـ بدور العلم والتكنولوجيا فى هذا المجال ، لأنهما الأساس والمقياس، وهما حقًا ركيزة الإنجاز .. ففى القرن التاسع عشر كانت دعائم الثورة الصناعية قائمة على الحديد ، والفحم ، والسكك الحديدية . وفى عام ١٩٠٠ ، أقبلت موجات إثر موجات من الابتكارات والاكتشافات : فى مقدمتها المستحدثات الكيميائية ، والكهربائية ، والمحركات التى تعمل بالاحتراق . وفى أوائل القرن العشرين ، ظهرت السيارات الجديدة (بمحركات احتراق داخلى) . وفى عام ١٩٠٣ طارت ـ بنجاح ـ أول طائرة ، وفى عام ١٩٠٢ عزل العالم الفيزيائى البريطانى جوزيف طومسون الإلكترون .وقبل ذلك بعامين، وضع العالم الألمانى ماكس بلانك أساس نظرية الكَم(quantum) . وفى





عام ١٩١٥ قدم ألبرت آينشتين التصور النهائى لنظريته النسبية (التى بدأها عام ١٩٠٥) ... هذه كلها ـ وغيرها ـ كانت المقدمات الأولى لطلائع ابتكارات واكتشافات وإنجازات هائلة متنوعة ، طبعت العالم كله ـ والقرن بعد ذلك ـ بطابعها ، فكان : قرن الذرَّة ، وقرن الفضاء ، وقرن الأقمار الصناعية وشبكات الاتصال والمعلومات ، وقرن الكمبيوتر ، والروبوط





(الإنسان الآلى) ، وقرن السرعة ، وقرن أطفال الأنابيب ، وقرن الاستنساخ ، وقرن قطع الغيار البشرية ، وقرن الإذاعة والسينما والتليفزيون ، وقرن الأسلحة والحروب الحاصدة لأرواح الملايين، عشرات الملايين ، والثروات المتنامية بآلاف الملايين ... وكل هذا صحيح حقاً .. ويكفى هنا ـ إلى أن نتناوله بالتفصيل ـ التنويه والتلميح ، وقد تُغنى الإشارة عن التصريح .

بين حربين عالميتين

كل الظروف والمقدمات والصور المتباينة التى ذكرناها ، وحاولنا أن نوضح بها مطالع فجر القرن العشرين من مواقع مختلفة ، لكنها حيوية وضرورية بالنسبة للأفراد وللأمم وللمؤسسات والدول ، هى نفسها ـ تلك الظروف والمقدمات والصور ـ التى سخَّرتها الأقدار لكى تشق وتمهد مسارات الوقائع والصنائع ، والإنجازات والتجهيزات ، التى صاغ بها الناس حياتهم ؛ فسعدوا وأسعدوا ، أو شَقُوا وأَشْقوا ، وهو ما سوف نعرض له تفصيلاً فى الأجزاء التالية بإذن الله ، ونحن نتأمل معاً حصاد قرن وفير نضير ، فيه الغث ، وفيه الثمين .

وحسبنا الآن ، فى إشارات موجزة ، أن نكوِّن فى الذهن ـ لا فى الخيال ـ المنظر العام الجامع الشامل (أى البانورامى) ، الذى يصلح أن يوضع على «غلاف» سجل هذا القرن .



ما إن طلع الفجر ، وأشرقت ساطعة شمس القرن الوليد ، حتى أحس الناس برياح ساخنة تهب من داخل أوروبا ، لم تلبث أن تحولت إلى عواصف ملتهبة وأعاصير، تُهلك الحرث والنسل ، وتَسْرى حمقاء على مهل . وعندما انتهت الحرب العظمى (العالمية الأولى) فى نوفمبر ١٩١٩ ، كانت خسائرها ونفقاتها قد تجاوزت كل التوقعات والتقديرات السابقة عليها قبل أربع سنوات . حصدت المعارك أرواح ثمانية ملايين ونصف المليون من الجنود ، وخلَّفت وراءها واحداً وعشرين مليوناً آخرين ، جرحى وذوى عاهات ومصابين ، من تفجير القنابل والألغام . واكتشفت الحكومات المتحاربة أن حماقاتها العسكرية كلفتها أكثر من ١٨٦ بليون (مليار) دولار ، فى ذلك الوقت الذى أمدت الولايات المتحدة فيه أوروبا (بريطانيا ، وفرنسا ، وإيطاليا ، وبلجيكا معاً) بمبلغ ١٠ (عشرة) بلايين دولار كقروض ومساعدات عقب الحرب مباشرة ، لكى تنهض تلك الدول صناعيًّا من جديد ، وتتغلب على المشكلات التى ترتبت على خسائر الحرب [١].

بلغَت اقتصاديات الدول التى اشتركت فى هذه الحرب درجة الإفلاس ، بعد أن عَمَدت حكوماتها إلى طبع أوراق نقدية بكميات ضخمة بلا رصيد ، لكى تلبى متطلبات الحرب . وتحمَّل المواطنون المدنيون قدراً كبيراً من أعباء الكارثة ماديًّا بانهيار قيمة العملة ، واجتماعيًّا بخلخلة الروابط والقيم ، وغذائيًّا بالمجاعة، وصحيًّا بالأمراض ، وكل النتائج المباشرة وغير المباشرة للحرب طويلة المدى ، فضلاً عن الملايين الذين راحو ضحية الحرب . ومن تلك النتائج المباشرة :خروج المرأة لساعات طويلة (أكثر من ١٠ ساعات فى اليوم) للعمل بالمصانع والورشات والإنتاج الحربى ، وفى المزارع ، بدلاً من الرجال الذين انخرطوا فى صفوف الجيوش .. فمثلا : فى بريطانيا ـ عام ١٩١٨ ـ كانت نسبة النسوة اللاتى يعملن فى مجال الصناعة ٤٠٪ من القوة العاملة ، وأجورهن نصف أجور الرجال عن العمل ذاته .

إنها نتائج مروعة ، لم يسبق لها مثيل ،حيث لم تكن لدى الدول خبرة سابقة بتحريك ونقل وتموين هذه الأعداد الضخمة من الجنود والفِرق ،

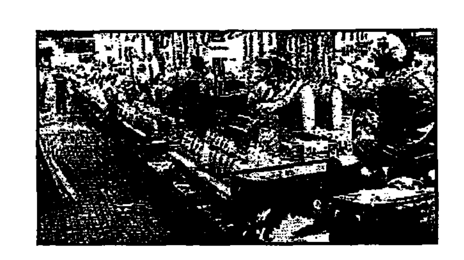
---

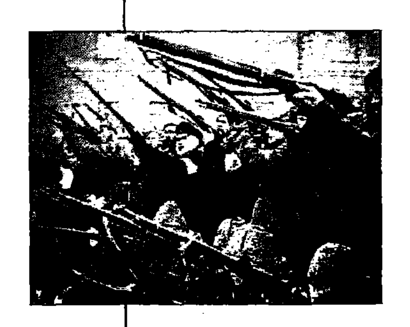
(١) إن خسائر الحرب التى قدرت ماديا بـ ١٨٦ مليار دولار أمريكى تعتبر ـ بقيمة العملة حينذاك ـ ضخمة وباهظة . وللمقارنة : فإن الولايات المتحدة الأمريكية سبق أن اشترت شبه جزيرة ألاسكا من روسيا بسبعة ملايين ومائتى ألف دولار فقط ، مع العلم بأن ألاسكا مساحتها ١٤٧٧٢٦٧ كم٢ ، وتعادل خُمْس مساحة الولايات المتحدة كلها ، وبها بترول ، وكنوز معدنية ، وثروات برية وبحرية لا تحصَى ! .



وتزويدها بالأسلحة والمعدات . ومع تقدم الحرب ، فَرَضَت المؤسسات العسكرية على حكوماتها أن تُخضع اقتصاديات الدولة كلها ـ كاملة ـ وإنتاجها الزراعى والصناعى لخدمة الجيوش . وُزِّعت الأطعمة والملابس والمواد الضرورية كالوقود بالبطاقات ، وبنِسب قليلة محدودة .. فلما وضعت الحرب أوزارها ، كان قد تم تحريك ٦٥ مليون شخص ، معظمهم من الفلاحين وصغار العمال والموظفين . ونتيجة لذلك .. هبط الإنتاج الزراعى .. ففى ألمانيا مثلا: بلغ إنتاج الحبوب عام ١٩١٣ نحو ثلاثين مليون طن ، بينما لم يتجاوز إنتاجها عام ١٩١٧ نصف هذه الكمية .

وصف البعض من العسكريين هذه الحرب بأنها « حرب شاملة » . إنها نوع جديد من الحروب بين تجمعات وطنية ، وليست فقط بين الجنود . كما أنها أخضعت كل الأنشطة العلمية والاقتصادية ومصادر الثروة ـ فى كل دولة ـ للأغراض الحربية واحتياجاتها . وهذه الاحتياجات ذاتها دفعت بالحكومات - حتى الديموقراطية منها ـ إلى تغيير نمط الحياة المدنية بها ، واتخاذ تدابير لم تكن معهودة من قبل ، ولا مستساغة فى أوقات السلم ،

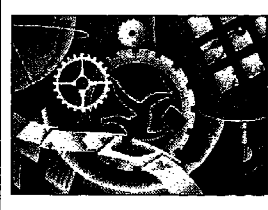




ولا تلائم إلا حكم القهر والاستبداد . واستُحدثت أساليب الدعاية، والدعاية المضادة ، والتوعية ، وإثارة الوعى والحماس الوطنى بشكل غير مسبوق ، لكى يتقبل المواطنون ظروف الحرب ، ولا يخبو حماسهم نحوها . وخضع العمال والموظفون لقوانين الأحكام العرفية الصارمة ، التى لا تقْبل المناقشة .

وعلى الجبهة الداخلية ، كانت المعيشة صعبة ، ومضْنية مُرّة : فساعات العمل أطول ، واحتياطات الأمان بالمصانع والورشات أقل ، والأجور والمكافآت والمرتبات انخفضت ، والحصول على الحصص الضئيلة من الأغذية والمواد الضرورية شاق وغير منتظم ، والإنتاج فى كل المواقع فى تناقص مستمر ... غير أن الحياة المعيشية فى بريطانيا كانت نسبيًّا أفضل من غيرها ، بينما كانت فى ألمانيا أسوأ كثيرا وأقسى ، تليها فى السوء والضنْك : النمسا ، وروسيا ، لانقطاعهما ـ بسبب الحرب ـ عن تجارة واقتصاديات العالم الخارجى . وزاد الطين بلَّة ـ كما فى المثل العربى ـ اجتماع الجوع والضعف والفقر مع انتشار نوع من وباء الأنفلونزا « الإسبانية » عام ١٩١٨ ، أودَى بحياة أكثر من ستة ملايين!.

كل هذه العوامل والظروف الضاغطة المهلكة ، أدت إلى انتشار القلق والاكتئاب والعراك والجرائم . وبعد فترة من الترقب فى بداية الحرب ، بدأت الأحزاب السياسية اليسارية فى إثارة الشكوك والنقد الصارخ ضد الحرب . وأخذ عمال وعاملات فى بعض المصانع يعبِّرون عن استيائهم بالإضراب المؤقت عن العمل . وسجِّلت الإحصائيات فى عام ١٩١٥ بالتحديد ٢٣٧٤حالة إضراب عن العمل داخل الدول المتحاربة ، اشترك فيها ١,١ ملايين من العمال [٢].وفى عام ١٩١٧ بلغ عدد الإضرابات ٢٣٦٩ ، اشترك فيها ٣,٤ ملايين . وفى عام ١٩١٨ طالب العمال المضْرِبون بشىء جديد ، إضافة إلى تحسين الظروف فى العمل والمعيشة :بالتغيير السياسى . لقد ساد شعور بالاستياء العام من السياسيين ورجال الأعمال وأصحاب المصانع ، بعد أن شاع أن هؤلاء جميعاً استفادوا من الحرب ، وعلى غرارهم جَمَع البعض ثروات كبيرة من تجارة السوق السوداء .



تطورت الصناعة وتنافست الدول فى الإنتاج ، وتسارع ذلك واستقر حتى نهاية القرن .. ولكن اين الإنسان الحائر اللاهث ، والإنسانية ، الضائعة ، بين ذلك كله ؟!.

وفى عام ١٩١٨ ، كان الذين لم يتأثروا بالحرب فئات ضئيلة : جيش النساء المتطوعات اللواتى تقدمْن للمساعدة والقيام بالخدمات الوطنية ، وجماعات الموظفين بالمكاتب الحكومية الذين تطوعوا لمساعدة الإدارات الرسمية فى الخدمة المدنية بالجبهةالداخلية ، وحتى فى جَمْع الخُردة

(٢) الدول التى اشتركت فى الحرب العالمية الأولى مباشرة هى :
دول القوى المركزية الأوربية : النمسا ـ المجر ، وألمانيا ، وبلغاريا ، وتركيا ضد الحلفاء ، وهم : بريطانيا ، وفرنسا ، وروسيا ، والصرب ، واليونان ، ورومانيا ، ومونتنجرو ، والبرتغال ، وإيطاليا ، واليابان ، والولايات المتحدة . وسوف نتناول تلك الحرب بالتفصيل فيما بعد .

للمصانع. وفى ألمانيا تحايلوا وابتكروا صناعات من مواد بديلة : أحذية من الكارتون (الورق) المقوَّى ، وورق من البطاطس ، وبُن من حشائش رخيصة ، وصابون من مواد كيميائية منظِّفة (ألمانيا أول من صنع مسحوق تنظيف) . وكان الحال سيئاً ومرتبكاً فى روسيا والنمسا ، حيث لم تستطيعا استحداث المواد البديلة (وهذا يشير إلى تفوق العقلية العلمية الألمانية المفكرة والمبتكرة) ، فارتبك توزيع المواد والأغذية الضرورية ، سواء فى داخل هاتين الدولتين ، أم على جبهات قتالهما ، مما كان له آثار مدمرة على الروح المعنوية فى الداخل وبين المقاتلين .



كانت الحرب العالمية الأولى تجربة لقياس مدى التحمل والصمود : فى التماسك الوطنى ، وفى الثبات الأخلاقى ، وفى المقدرة الاقتصادية . كما أنها أيضاً كانت اختباراً للنظام الأوروبى القديم وكفاءته ، ومدى الثقة بنفسه ، وقدرته على تدعيم السلام والتقدم ماديًا ومعنويًا . والنتيجة : أن صورة أوروبا تلطَّخت ـ وبلا عودة ـ من جراء أهوال الحرب وآثارها . وظهر للعالم أن « تقدم » أوروبا الحضارى المزعوم ، إنما كان قناعاً للبربرية ، وقشرة ذهبية هشة للوحشية. لقد أنْهت الحرب حلم « أَوْربة » العالم ، ومهدت الطريق لحرب جديدة ، شاركت فيها أوروبا نفسها بنصيب كبير (٣).

وسرعان ما أقبلت تلك الحرب .. أطلقوا عليها للترهيب والتبكيت والتهويل: العالمية الثانية ، وكأنما العالم ـ المتقدم المتحضر ـ لم يتعلم ، ولم يرتدع من حرب عالمية أولى سبقت ، ليعْقل ويرشد ، ويتجنب الوقوع فى مهوَى الهلاك والدمار ؛ فيحل مشكلاته بحكمة وهدوء ، ويجنح إلى السلامة والسلام ، فإذا به يشعلها حرباً ساحقة ماحقة ، بدأت بالأسلحة التقليدية ، ولكنها أشد فتكاً وتطوراً ، وانتهت بالصواريخ والقنابل الذرية ، التى ما زالت ـ وستظل ـ للبشرية جحيماً مسلَّطاً منذراً بالخطر ، لأنها ـ حقًّا ويقيناً ـ لا تُبقى ولا تَذَر .

إن كل الذين وُلدوا فى الأربعينيات من هذا القرن ، لم يدركوا عن قُرب أهوال الحرب العالمية الثانية . وربما سمعوا .. أو قرأوا .. أو شاهدوا بعض الأفلام السينمائية (المبهرة فنيًا) ،التى تناولت شذرات عن هذه الحرب .. لكن ليس من رأى كمن سمع ! ، وليست الحرب ـ الحديثة خاصة ، مهما

---

(٣) Richard Overy - The Costs of War - 1996 .



قوات الحلفاء في الحرب العالمية الثانية تعبر في طريقها إلى ألمانيا النازية.

حاولت السينما وجهابذة الإخراج الفنى أن يصوروها ـ مجرد حكاية تُرْوَى، أو سيناريو يُكتب، أو حَبْكَة تُصاغ. إن الحرب عذاب، وخراب، ودمار. وقد حذَّر الخالق سبحانه وتعالى منها (إلا للمضطر وعند الضرورة التى لا مَحيد عنها، وبشروطها. وليس هنا مجال تفصيلها)، فأشار ـ جلَّت قدرته ـ إلى أنها بعض عقابه وانتقامه بما كَسبت أيدى الناس، وعندما يزيد طغيانهم فى البلاد، ويُكثرون فيها الفساد:

﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾. سورة الأنعام / ٦٥

ولكن .. متى كان الغُلاة والعُتاة والمتطرفون والطامعون والمتعصبون والمستعمرون (بكل أشكال الاستعمار المادى والحربى والثقافى والفكرى والاقتصادى ...) والنهابون والحمقى .. متى كان هؤلاء يفقهون ويَحْذَرون ويرتدعون ؟!.

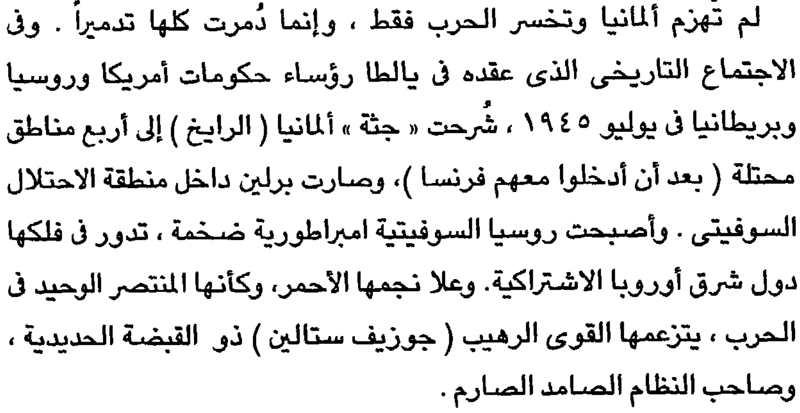


الجنود الروس كانوا أسبق فى دخول برلين عام ١٩٤٥ ورفعوا العلم السوفيتى فوق مقر الحكومة والبرلمان الألمانى إعلانا عن نهاية الحرب وتدمير ألمانيا .. وأوروبا!

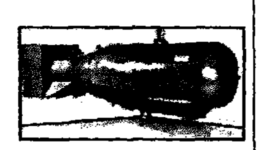
كان لابد للحرب العالمية الثانية أن تنشب، لأن تسوية الحرب الأولى لم تضْمن سلاماً، ولم تتضمن ترضية، لأنها لم « تعالج » أصل الداء، وبالتالى خاب «تشخيصها» للمرض، واختيارها للدواء .. فهى إذن امتداد للحرب العالمية الأولى، أو ـ على الأقل ـ بينهما قرابة ونَسَب .. وثأر، وهذا هو الأظهر والأخطر. وسوف يأتى الحديث عنها مفصلاً فى موضعه بتوفيق الله.

بدأت أول سبتمبر عام ١٩٣٩، وانتهت باستسلام ألمانيا النازية فى مايو ١٩٤٥ (٤) وفى تلك السنة، استسلمت اليابان (سبتمبر) بعد إلقاء قنبلتين ذريتين على مدينتيها الشهيرتين (هيروشيما، ثم ناجازاكى). وفى (٥ يونيو) من السنة نفسها ألقى الجنرال « مارشال » محاضرة فى جامعة هارفارد، أعلن فيها المشروع الأمريكى الذى حَمَل اسمه، والذى حصلت أوروبا بمقتضاه على مساعدات أمريكية لإعادة إعمارها، والوقوف على قدميها من جديد، بعد أن خلخلتها الحرب، وسَوَّتْها بالأرض.

(٤) اشترك فى الحرب طرفان متقاتلان: دول المحور، وتضم: ألمانيا، واليابان، والمجر، ورومانيا، وبلغاريا وهؤلاء ضد الحلفاء، وهم: الولايات المتحدة الأمريكية، وبريطانيا، وفرنسا، وروسيا، والنمسا، وبلجيكا، والبرازيل، وكندا، والصين، والدانمارك، واليونان، وهلندا، ونيوزيلندا، والنرويج، وبولندا، وجنوب أفريقيا، ويوغوسلافيا.



لم تُهزم ألمانيا وتخسر الحرب فقط ، وإنما دُمرت كلها تدميراً . وفى الاجتماع التاريخى الذى عقده فى يالطا رؤساء حكومات أمريكا وروسيا وبريطانيا فى يوليو ١٩٤٥ ، شُرحت « جثة » ألمانيا (الرايخ) إلى أربع مناطق محتلة (بعد أن أدخلوا معهم فرنسا)، وصارت برلين داخل منطقة الاحتلال السوفيتى . وأصبحت روسيا السوفيتية امبراطورية ضخمة ، تدور فى فلكها دول شرق أوروبا الاشتراكية. وعلا نجمها الأحمر، وكأنها المنتصر الوحيد فى الحرب ، يتزعمها القوى الرهيب (جوزيف ستالين) ذو القبضة الحديدية ، وصاحب النظام الصامد الصارم .



القنبلة الذرية الأمريكية (من اليورانيوم ٢٣٥) .

خرجت فرنسا من الحرب مقهورة مهلهلة بعد احتلال ألمانيا لها خلال سبعة أسابيع فقط ، وإقامة حكومة فيشى برئاسة الماريشال « بيتان » . ثم ظهرت خلال الحرب شخصية الجنرال « دوجول » التاريخية الفذة ، الذى أصرَّ ـ بشجاعة ، وثقة ، وصبر ، وعناء ـ على تحرير فرنسا ، ورَدِّ اعتبارها ، وإعادة بنائها من جديد ، بعد أن فقدت نحو نصف ثروتها القومية ، وملايين من أبنائها فى الحرب ، ونصف مليون آخرين عقب الحرب باسم « التطهير » ، أى التخلص من الرجال والنساء الذين تعاونوا مع الغزاة الألمان المحتلين .



ستالين الرهيب

ونفس الدمار والخراب حدث فى بلجيكا ، وهولندا ، ودول الشمال الأوروبى .. أما فى بريطانيا ، فقد أفاق المواطنون فى أعقاب الحرب ، وتساءلوا : وما الثمن ؟ ما النتيجة ؟.عَزلت بريطانيا قائد الحرب (ونستون تشرشل)، بعد أن اكتشفت أن «النصر » فى الحرب ما هو إلا خداع وزيف . إنها فقدت معظم أسطولها التجارى الذى رفعها إلى مرتبة سيدة بحار العالم لعشرات السنين . كما فقدتْ تفوقها التجارى العالمى، واحتياطيها الكبير من الذهب ، وتوازنها الاقتصادى ، ومستعمراتها الشاسعة التى تخلت عنها واحدة إثر أخرى ، وأُجبرت على الاعتراف باستقلال مصر ومحمياتها فى الشرق الأوسط ، ثم رضخت للاعتراف باستقلال الهند . إنها الآن « الأسد العجوز»،تستجدى الولايات المتحدة الأمريكية ، كى تأخذ بيدها ، وتُخرجها من مأزقها . لقد شعر المواطن البريطانى بوطأة الكارثة .



طوابير الروس تقف بالساعات أمام مجمعات بيع المواد الغذائية فى موسكو العاصمة .

واستسلمت اليابان بعد قنبلتى هيروشيما ، وناجازاكى الذريتين .

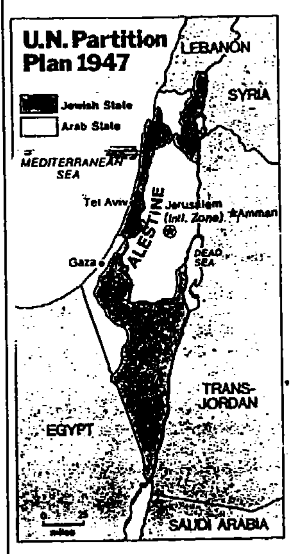
وانطوت فى واقع الأمر تحت حماية الولايات المتحدة. وتراجع الرجل الأوروبى الأبيض من كل أنحاء آسيا، ومن مناطق كثيرة بأفريقيا . وأجبرت الولايات المتحدة هولندا على التخلى عن إندونيسيا ، وأظهرت استياءها من نفوذ فرنسا بالهند الصينية .



الأخوة الأعداء : آخر صورة لشيانج كاى شك (إلى اليمين) وماوتسى تونج قبل انقسامهما وتقسيم الصين (عام ١٩٤٩) بينهما.

وانقسمت الصين على نفسها : بين الوطنيين بزعامة شيانج كاى شِك ، والشيوعيين بقيادة ماوتسى تونج .وحاولت الولايات المتحدة الوفاق بينهما ، وظهور « الصين القوية الديموقراطية » ،ولكن خاب ظنها ومسعاها . وتقسمت الهند درة المستعمرة البريطانية إلى باكستان ودولة الهند .

واشتعلت معارك وحروب محلية وإقليمية فى مناطق مختلفة من العالم ، نتيجة للسياسات الخاطئة للدول الكبرى والاستعمارية ، أو بتحريض منها ... فانجلترا تعِد اليهود بوطن فى فلسطين ، غَصْباً وقهراً . وفى عام ١٩٤٧ قررت لجنة من هيئة الأمم المتحدة إقامة دولة إسرائيل المستقلة على الأراضى الفلسطينية، رغم معارضة شديدة من الدول العربية والشعوب الإسلامية . واعترفت أمريكا على الفور بتلك الدولة الغربية المحشورة حشراً وعُنْوة داخل الدول العربية ، ثم أعقبتها روسيا السوفيتية ، فتعترف بها .



قرار الأمم المتحدة الجائر عام ١٩٤٧ بتقسيم فلسطين العربية وزرع دولة لليهود فى قلب العالم العربى.

وفى السنة نفسها - ١٩٤٧ - واجهت فرنسا مصاعب متوالية فى إمبراطوريتها وراء البحار : فالمعارك تحتدم فى فيتنام ، وفى مدغشقر تشتعل ثورة ، وفى المغرب يعلن السلطان محمد الخامس انتهاء الحماية .

وتشهد أوروبا صراعات وقلاقل واضطرابات بين الأحزاب السياسية - خاصة من جانب الشيوعيين والاشتراكيين - فى وقت إعادة بناء أوروبا ، وإصلاح ما أفسدتْه الحرب شرقاً وغرباً . وفى اليونان تندلع الحرب الأهلية . وفى يوغوسلافيا يتحرر تيتو من الاحتواء السوفيتى . وفى الهند يُغتال بطل المقاومة والتحرير : غاندى . وفى بروكسل (بلجيكا) تُعقد اتفاقية تعاون عسكرى بين: بريطانيا ، وفرنسا ، ولوكسمبورج ، وهولندا ، وبلجيكا . وفى ألمانيا الغربية (الفيدرالية) تُنفذ إصلاحات نقدية أساسية تدعم الاقتصاد القومى ، وتنهض بألمانيا الجديدة على يد إيرهارد ، ثم اديناور ...

وتبدأ « الحرب الباردة » بين قطبى السياسة العالمية : الولايات المتحدة الأمريكية ودول الرأسمالية الغربية ، والاتحاد السوفيتى وكتلة الدول الشيوعية ؛ فتُثمر الحرب الكورية (١٩٥٠ - ١٩٥٣) وأزمة الصواريخ



القوات المصرية الباسلة تكبّر الله وترفع العلم المصرى فى انتصار حرب رمضان - أكتوبر ١٩٧٣ على اسرائيل الغاصبة.

فى كوبا (١٩٦٢)، ويشهد الشرق الأوسط حرب السويس (١٩٥٦)، ومعها حرب أمريكا الفاشلة فى فيتنام (١٩٥٦ ـ ١٩٧٥) ، ثم حرب الانتصار المصرى العربى الكبير على إسرائيل (أكتوبر ١٩٧٣ ـ أو حرب رمضان المبارك) . وحروب أخرى : فى كمبوديا (٧٠ ـ ١٩٧٥) ، وإيران ـ العراق (٨٠ ـ ١٩٨٨) ، وفوكلاند بين الأرجنتين وبريطانيا (١٩٨٢) ، وحرب الخليج (بعد غزو العراق للكويت ١٩٩١) ، ومعارك رهيبة وحشية فى يوغوسلافيا (١٩٩١) و(١٩٩٩)، ثم فى رواندا وبوروندى، والكونغو ، وليبيريا ، وغانا وتتخلص جنوب أفريقيا من التمييز العنصرى .. وسلسلة لا تكاد تخبو ولا تنقطع بدأت بالحرب العظمى (العالمية الأولى) ولا أحد يدرى متى تنتهى .. فالإنسان هو الإنسان ، سرعان ما يبادر إلى الظلم والإيذاء والشر والمفسدة .

ومع ذلك .. ورغم كل ذلك .. كانت الحياة فى كل مكان عامرة بالإنجازات والإبداعات ، مزدهرة بالعلوم والفنون والآداب والابتكارات .وآمال الناس فى الإصلاح لا تنقطع ، وطموحات الشعوب فى المستقبل الأفضل لا تغيض . وتحررت من الاستعمار والسيطرة دول ، وانطلقت من التخلف والركود أمم، واكتُشفت من الأرض نطاقات ومجاهيل ، واستُخرجت على امتداد القرن كنوز من الخيرات والمحاصيل . مَدَد هائل كالسيل متدفق ، وفيض وافر كالغيث بشير . ومن خلال هذا وذاك ... برز رجال ، وحظيت بالشهرة نساء، كانت لهم ، ولهن مواقف وحكايات ، قد لا تخلو من طرائف ودُعابات.

بطولة منسية : الثورة المصرية (١٩١٩)

البطولة هنا يُقصد بها بطولة « شعب مصر »، قبل أن تكون بطولة أفراد ، أو حكام، أو قادة وزعماء ، لأن ثورة ١٩١٩ التى هبَّت تطالب بالتحرير والاستقلال ، وزوال الحماية البريطانية فى ظروف صعبة معقدة ، كانت فى جوهرها إرادة أمة ، وانتفاضة شعب ، وتحرك تلقائى لجماهير فلاحين وعمال وطلاب ومثقفين وعلماء ، مسلمين وأقباط ، صنعوا هم زعماءهم

،واختاروا هم قادتهم ، وصاغوا هم نهج ساستهم ، وظلوا حتى النهاية ـ طوال سنوات ـ جبهة واحدة صابرة صامدة ، منضبطة متماسكة ، لا تَملّ ولا تكلّ ، تعى جيداً هدفها، وتدرك تماماً مكر عدوها ، وتلتزم راشدة أسلوب كفاحها ، لا تَهاب ولا ترتاب ، لا تفرط ولا تساوِم ، لم تداهِن ولم تهادِن، إلى أن قضَى الله أمراً كان مفعولاً .

إن كل المؤلفات والحوليات والمراجع وكتابات الساسة والمؤرخين ،شرقاً وغرباً ، تناولت ـ بإسهاب وتفصيل ـ الثورة الروسية التى بدأت مع مطلع هذا القرن العشرين ، وعاصرت فى بعض مراحلها الثورة المصرية ، ولازالت حتى اليوم موضع شرح وتحليل وتعليق ونقد . وهى حقاً تستحق ، لأنها أسهمت بقدر كبير ـ إنْ خيراً أو شرًّا ـ فى صياغة أحداث معظم القرن ، حتى انتهت بالإفلاس والفشل والضياع مع أوائل الثمانينيات (كان انحدارها خافياً عن العالم فى السبعينيات)ولفظت أنفاسها الأخيرة مع سقوط حائط برلين (١٩٨٩) الشهير .



ولكن الثورة الشعبية المصرية (١٩١٩) لم تأخذ حظها الواجب من التبصرة والتذكرة، وتكاد تتوارى فى غياهب الغفلة والنسيان ، رغم تميزها بنبل المقصد ، وصدق الوعد ، وعدالة المطلب ، وثبوت الحق ، وسلامة المنهج والأسلوب ، وضْعاً فى الاعتبار قسوة الظروف والملابسات التى أحاطت بها من كل جانب محليًّا ، وإقليميًّا ، وعالميًّا . وهذه بعض دعائم حجتنا فى ذلك ، ولكم أن تضيفوا إليها المزيد .

١ ـ إن الثورة الروسية كانت تهدف إلى هدم سلطة نظام قائم ، على رأسه قيصر روسى ، يحكم البلاد وفق دستور ومؤسسات شرعية عاملة . أما الثورة المصرية ، فكان هدفها : استرداد حقها فى الحرية والاستقلال ، والتخلص من الحماية البريطانية المذلة الغاصبة ، التى فُرضت على مصر بغياً وقسراً ، ووعدها المحتل المخادع المراوغ أكثر من مرة بالجلاء ، ولا وفاء !.. فهذه فى روسيا ثورة فئة من الشعب ، تبغى تغيير نظام الحكم المحلى وفلسفته ، وتلك فى مصر ثورة شعب بأكمله ، يطلب حقه الطبيعى المغتصَب ، ويريد أن يدفع عن نفسه وعن أرضه عدوان محتل أجنبى ، يفرض وجوده غير المشروع ، وسيطرته الدخيلة بالقوة والقهر .

٢ ـ أيًّا كان مقدار الحُسن أو القُبح فى شكل نظام الحكم القيصرى ، أو البولشفى (الشيوعى) ـ ولسنا فى مجال التقييم والترجيح ـ فإن الثورة

الروسية حوَّلت البلاد إلى حرب أهلية لسنوات ، سالت فيها الدماء بوفرة وقسوة ، واستخدمت فيها الأسلحة ، وأساليب الدعاية والدعاية المضادة ، والمؤامرات والدسائس والغدر . أما الثورة المصرية، فكانت كفاحاً سلميًّا لشعب واحد متحد فى الهدف والوسيلة ، سلك فى المطالبة بحقه الشرعى أساليب واضحة مقررة مشروعة . ولئن سالت أثناء الثورة على أرض مصر دماء ، فهى من ضحايا العدو الغاصب المحتل ، الذى ادعى أنه جاء ليحمى بسلاحه شعب مصر، فإذا به « يقتل » بهذا السلاح أبناء مصر الذين لم يرفعوا فى وجهه سلاحاً ، أو يدخلوا معه فى معركة قتال ، بل إنهم دافعوا عنه ـ مرغمين ـ أثناء الحرب العظمى ، وقدموا له العون والمساعدة .

٣ ـ إن « الثوار » الروس البلاشفة ضحوا بأجزاء كبيرة من الأراضى التى كانت داخل حدود روسيا القيصرية ، وتنازلوا عنها بمجرد عقد اتفاقية إنهاء الحرب مع الألمان ، وذلك من أجل الحصول على السلطة والاستيلاء على مقاليد الحكم (فى كتابات المؤرخين المدققين : اتفق لنين نفسه ـ وهو بالمنفى ـ سرًّا مع الألمان على أن يساعدوه على إنجاح تسلله إلى روسيا ، عندما بدأت القلاقل بها، وأن يساندوه فى محاولته الانقلابية، مقابل عقد معاهدة سلام ، وإنهاء الحرب معهم ، والتنازل لهم ـ وفقاً لمطالبهم ـ عن مناطق من أراضى روسيا الشرقية) .أما الثوار المصريين ـ أى الشعب كله قبل الزعماء والقادة ـ فكانوا حريصين على استقلال البلاد ـ كل البلاد ـ شمالاً وجنوباً ، دون تفريط فى أى جزء من أراضيها .

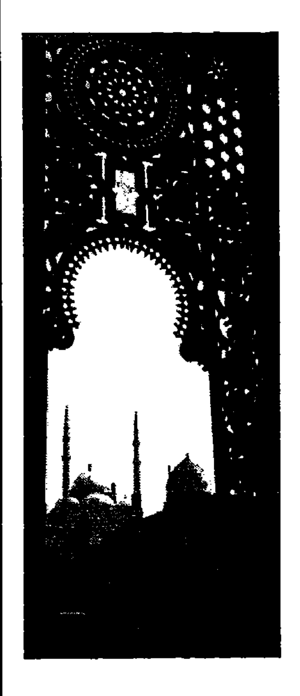
٤ ـ لم تكن الثورة الروسية مستندة إلى أغلبية شعبية تمنحها حق ممارسة السلطة على الجميع ، إذ كان البلاشفة قِلة ،بينما كان الشعب المصرى كله مساهماً فى الثورة ، ملتمساً سنداً ـ إلى جانب حقه الطبيعى ، واتفاقيات ووعود بريطانيا المتكررة السابقة ـ من مبادىء الرئيس الأمريكى ويلسون ، التى أقرتها الدول ، ومنها : حق تقرير المصير بحرية لكل الشعوب ، قوية أم ضعيفة ، وعدم فرض سياسة عليها من الخارج بالتهديد أو الإرهاب .

٥ ـ كان من بين أهداف الثورة الروسية ـ حتى فى أيامها الأولى ، وقبل أن تَثْبت وتستقر ـ أن تصدِّر مفاهيمها وأساليبها الدموية العنيفة إلى الخارج ، وإلى دول فى أوروبا ذاتها . أما الثورة المصرية ، فكانت تعرف جيداً إلى أين تمضى ، ومتى تقف .. فهى ثورة شعب ينادى فقط بكسر قيوده ، وطرد مستعمره ، ولا يبغى تصدير أفكار ، ولا مذاهب ، أو انقلابات .

٦ - إن أسلوب الثورة الروسية ومنهجها فى فرض نفسها على شعبها بالقوة والعنف ليس جديداً على الدول والشعوب . والثورة الفرنسية أظهر مثال على ذلك ..أما أسلوب الثورة المصرية الرصين السديد (الملائم للظروف المحيطة بها آنذاك) ، فكان نموذجاً متميزاً ممتازاً فى التاريخ الحديث ،قبل ثورة غاندى السلمية فى الهند .

٧ - استعانت الثورة الروسية بكل القوى المتاحة لديها، المشروعة وغير المشروعة، وبفرق شعبية جنّدتها وسلّحتها ، وبقيادات من الجيش ، استمالتها ووعدتْها . وكان « العدو » بالنسبة لتلك الثورة ، أولئك الذين خالفوها فى الرأى أو الفكر ، أو اختلفوا معها فى المنهج والأسلوب ، وهم فى النهاية أبناء الشعب، ومن الروس . أما الثورة المصرية ، فلم تجنّد ، ولم تسلّح ، ولم تزين لأحد ، أو تستميل ... فالكتل الجماهيرية كلها متحدة الرأى والهدف العام (وإن تنوعت آراء فى التفاصيل) ، و« عدوها » واضح معروف. ومَن هو ؟ . أقوى قوة - فى الظاهر - آنذاك : بريطانيا العظمى ، سيدة البحار ، والإمبراطورية التى لا تغرب عنها الشمس .

٨ - إن كل أمة كانت خاضعة للاستعمار وجبروته ، وأخذت بعد ذلك بأسلوب الثورة المصرية للحصول على استقلالها وحريتها ، نجحت وأفلحت (وهذا لا يعنى مطلقاً أننا ننكر على أصحاب الحقوق الوطنية المغتَصَبة أن يأخذوا بالقوة - وبكل قوة - حقوقهم ، إذا لم يكن من وسيلة أخرى ناجعة أو مناسبة غير ذلك) . وفى المقابل ..فإن معظم الشعوب التى لجأت إلى منهج الثورة الروسية فى التآمر والانقلابات الدموية والصراعات والحروب الأهلية - فى أوروبا الشرقية ، وآسيا ، وأفريقيا ، وأمريكا اللاتينية الجنوبية - ظهر فى النهاية أنها غالباً كانت تبغى مصالح شخصية ، وأدت إلى دمار تلك الدول فكريًا ، واقتصاديًا ، وحضاريًا ؛ ودفعت الشعوب الثمن غالياً .



٩ - إن سمو الثورة المصرية كان فى بساطتها ، وتلقائيتها ، ووضوحها ، وصدقها مع النفس ومع الناس . لم تحرك خيالاتها ، أو تحرض غرائزها مبادىء مبهمة ، ولا شعارات مزينة ، كما كان الأمر مع الثورة الروسية ، التى بدأت مثلاً بشعار تحرير الشعب من ظلم وقهر السلطة الحاكمة ، وإقامة دولة العمال التى فيها يحكمون وينعمون ، وإذا بالعمال وبالشعب كله يخضع لنظام أشد فتكاً وقسوة وقهراً - خاصة أيام ستالين - وانسحق فى ظله ملايين وملايين ، أو شعار إزالة الطبقات الاجتماعية ، وإذابة الفروق

اللا إنسانية .وإذا بالثورة ـ منذ البداية ـ تجعل أعضاء الحزب الوحيد الأحمر ـ وهم الأقلية ـ فوق الشعب كله ، وقادة الحزب ومَن فى مركز السلطة فوق الحزب وفوق الشعب ، لهم كل الامتيازات المادية والمعنوية إلى درجة النفوذ ـ المطلق أحياناً ـ والترف والرفاهية (كان بريجنيف مثلا من هواه جمع أحدث السيارات الفاخرة ... الغربية) .

حقا .. إن « مصر » لم تكن قوة عظمى ، ولا دولة عظمى بمقاييس الدول الكبرى آنذاك .. ولكنها ـ بشعبها ، وفى ثورتها ـ دولة عظيمة ، وشعب عظيم.

● بواعث الثورة :

لم تتفجر ثورة الشعب المصرى عام ١٩١٩ فجأة ، أو بين عشية وضحاها . وإنما كانت الثورة نهاية مرحلة أو مراحل ، أدت إلى ذروة الغضب العام ، والسخط الذى ضاق عنه التصبر والانتظار . والحق أن الشعب المصرى ـ بتاريخه وحضارته ، وما تقلب عليه من عصور وأحداث أكسبته الحكمة والوداعة ـ ينهض عند الاضطرار والحسم فى عزم وبسالة ، ويصمد فى عزة وكرامة ، ويضحى غالياً ولا يستكين .. ولو بعد حين . وقد ثار شعب مصر أكثر من مرة أيام الحملة الفرنسية ، وأيام الولاة الأتراك، وأيام محمد على ، واندثر كل هؤلاء ، وبقى الشعب بأصالته وسِماته ومواقفه وتاريخه.

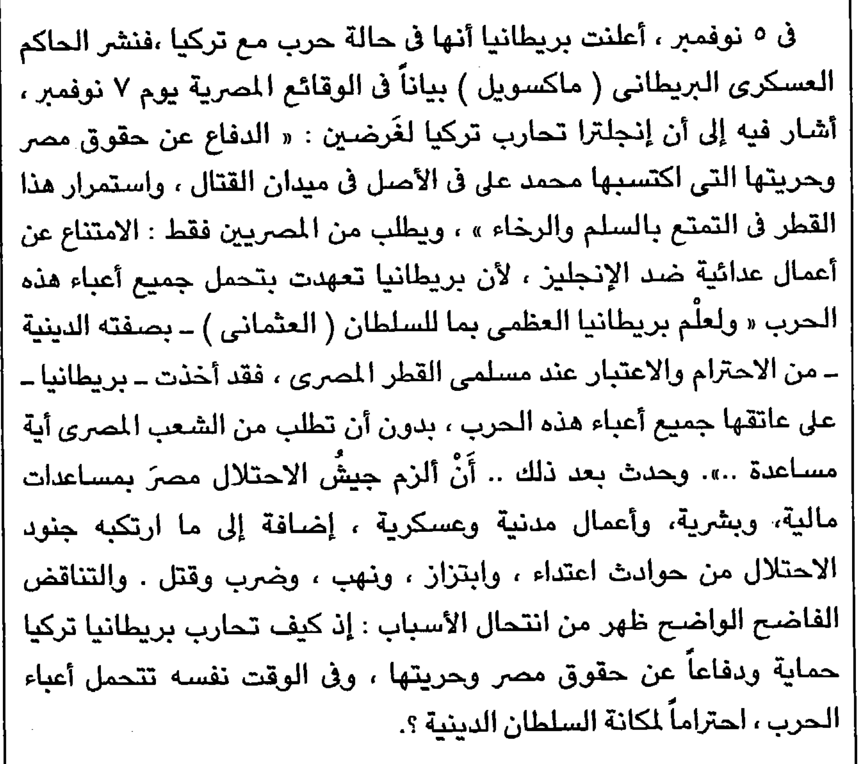


قبل الحرب العالمية الأولى (العظمى) كانت مصر ـ باعتراف معاهدة لندن عام ١٨٤٠ التى أقرتها كل الدول ـ دولة مستقلة فى نطاق السيادة العثمانية ، وهى سيادة صارت إسمية أو شكلية ، تمثلت فى الجزية التى تدفعها مصر كل عام لتركيا (٧٥٠ ألف جنيه عثمانى) ، ولا تمس الاستقلال . ثم دخل الإنجليز مصر عقب أحداث الثورة العرابية باحتلال عسكرى لا سند له ، ولا مبرر (عام ١٨٨٢) ، أخضع حكم البلاد لمشيئته ولمصالحه ، وألغى الدستور ، وحاول فصل السودان عن مصر ، وقد كانا دولة واحدة .. فكان «المعتمد البريطانى » هو الحاكم الآمر المطاع ، رغم وجود الخديوى ، والحكومة ممثلة فى رئيس الوزراء والوزراء .

لما أعلنت النمسا الحرب على الصرب فى ٢٨ يوليو ١٩١٤ ، (بعد مقتل الأرشيدوق ولى العهد) أسرعت روسيا بإعلان الحرب على النمسا لنجدة الصرب، فكان لابد أن تدخل المانياالحرب ، وقوفاً إلى جانب حليفتها روسيا . كل ذلك .. ومصر تلتزم موقف الحياد ... فلما أعلنت بريطانيا دخولها الحرب

إلى جانب فرنسا وروسيا ، فرضت على مصر اتّباع موقف المستعمرات البريطانية : وضْع البلاد ـ بموانيها ، ومدنها ، وطرقها فى حالة حرب (إلى جانب بريطانيا بالطبع) ، بحجة « أن وجود جيش الاحتلال فى القطر المصرى ، يجعل هذا القطر عرضة لهجوم أعداء صاحب الجلالة البريطانية ».
هكذا صدر قرار مجلس الوزراء المصرى فى ٥ أغسطس ١٩١٤ ، ثم توالت القرارات ، ومنها:مصادرة السفن الألمانية ، والنمساوية ، والمجرية الموجودة بالثغور المصرية ، وفرض الرقابة على البرقيات والخطابات المرسلة بين مصر والخارج ، أو السودان (رغم أن السودان كان جزءاً من الدولة المصرية !)، ومُنع التجمهر ، وفُرضت عقوبة عليه بالسجن والغرامة : « كل اجتماع من خمسة أشخاص على الأقل فى طريق ، أو محل عمومى ، ولو لم يكن له قصد جنائى .. متى رأى رجال السلطة أنه يجعل السلْم العام فى خطر » !. فلما دخلت تركيا الحرب ضد روسيا فى أول نوفمبر ١٩١٤ ، أصدر الجنرال ماكسويل ـ قائد الجيوش المحتلة فى مصر ـ قراراً فى اليوم التالى بإعلان الأحكام العرفية « لكى يتضمن حمايته .. وبناء على ذلك .. صار القطر المصرى تحت الحكم العسكرى »، ووُضعت الرقابة على الصحف .


السلطان التركى عبد الحميد



فى ٥ نوفمبر ، أعلنت بريطانيا أنها فى حالة حرب مع تركيا ،فنشر الحاكم العسكرى البريطانى (ماكسويل) بياناً فى الوقائع المصرية يوم ٧ نوفمبر ، أشار فيه إلى أن إنجلترا تحارب تركيا لغَرضين : « الدفاع عن حقوق مصر وحريتها التى اكتسبها محمد على فى الأصل فى ميدان القتال ، واستمرار هذا القطر فى التمتع بالسلم والرخاء » ، ويطلب من المصريين فقط : الامتناع عن أعمال عدائية ضد الإنجليز ، لأن بريطانيا تعهدت بتحمل جميع أعباء هذه الحرب « ولعلْم بريطانيا العظمى بما للسلطان (العثمانى) ـ بصفته الدينية ـ من الاحترام والاعتبار عند مسلمى القطر المصرى ، فقد أخذت ـ بريطانيا ـ على عاتقها جميع أعباء هذه الحرب ، بدون أن تطلب من الشعب المصرى أية مساعدة ..». وحدث بعد ذلك .. أنْ ألزم جيشُ الاحتلال مصرَ بمساعدات مالية، وبشرية، وأعمال مدنية وعسكرية ، إضافة إلى ما ارتكبه جنود الاحتلال من حوادث اعتداء ، وابتزاز ، ونهب ، وضرب وقتل . والتناقض الفاضح الواضح ظهر من انتحال الأسباب : إذ كيف تحارب بريطانيا تركيا حماية ودفاعاً عن حقوق مصر وحريتها ، وفى الوقت نفسه تتحمل أعباء الحرب ، احتراماً لمكانة السلطان الدينية ؟.

وفى ١٨ ديسمبر ١٩١٤ ، أعلنت بريطانيا حمايتها على مصر . وجاء فى بيان الإعلان بالوقائع المصرية :« ..وبذلك قد زالت سيادة تركيا على مصر ، وستتخذ حكومة جلالته (ملك بريطانيا) كل التدابير اللازمة للدفاع عن مصر، وحماية أهلها ومصالحها » .

فى ١٩ ديسمبر ، نشرت الوقائع المصرية :« يعلن ناظر (وزير) الخارجية لدى جلالة ملك بريطانيا العظمى ، أنه نظراً إلى إقدام سمو عباس حلمى باشا(1) خديوى مصر السابق على الانضمام لأعداء الملك ، فقد رأت حكومة جلالته خلعه من منصب الخديوية (المصرية) . وقد عُرض هذا المنْصب السامى ـ مع لقب « سلطان مصر » ـ على سمو الأمير حسين كامل باشا ، أكبر الأمراء الموجودين من سلالة محمد على ؛ فقَبِله » .


الخديــو عباس

الآن الخارجية البريطانية هى التى تخلع عن العرش ، وتنصِّب ، وتمنح الألقاب ، فى دولة تعترف فى بياناتها وقراراتها أنها « مستقلة » ، « زالت سيادة تركيا عليها » ، وأن مهمة بريطانيا هى : « الدفاع عن حقوق مصر وحريتها»!.. مَن منح بريطانيا « العظمى » هذا الحق ، ومَن خوَّلها تلك السلطة ؟ !، وماذا كان رد الفعل الرسمى داخل مصر ؟ .


السلطان حسين كامل

بناء على قرار فرض الحماية ، أُلغيت وزارة الخارجية المصرية ، فلم يعد هناك اتصال مصرى رسمى ودبلوماسى بالخارج . وفى الداخل ، تقبلت المؤسسات الرسمية هذا الأمر بلا معارضة أو احتجاج ، ولو شكلى (ولو على نمط «نَشجب »، أو « نُدين »، أو « نُندد »..) ، فلا الحكومة (القائمة وقتها) ، ولا الجمعية التشريعية (تشبه البرلمان) ـ التى هى نائبة عن الأمة ـ ارتفع لهما صوت ، سوى صوت وكيل الجمعية التشريعية المنتخَب ـ سعد زغلول باشا ـ الذى كان فى استقبال أول مندوب سامٍ بريطانى فى عهد الحماية ـ سير ماكماهون ـ بمحطة قطار العاصمة عند وصوله فى ٩يناير ١٩١٥ ، إذ قال عنه بصوت سمعه الحاضرون من المستقبلين :« إن دلائل الخير بادية

(١) كان الخديوى عباس وقت نشوب الحرب فى تركيا منذ أوائل الصيف ، وألح عليه رشدى باشا رئيس الوزراء بالعودة ،لكنه تردد .

على وجهه ، وآمل أن يجزل الله لمصر الخير على يديه » [٢].وقَبِلَ رشدى باشا رئاسة الوزارة الجديدة فى ظل الاحتلال ـ وكان رئيس الوزراء قبل الاحتلال ـ وقال فى خطابه إلى السلطان حسين كامل :« مولاى .. إننى كنت وكيلاً عن ولى الأمر السابق (الخديوى عباس حلمى) ، ولكننى مصرى قبل كل شيء ، وبصفتى مصريًا ، فقد رأيت من المفروض علىّ أن أجتهد تحت رعايتكم السلطانية فى أن أكون نافعاً لبلادى ....وإننى ـ بكل احترام وإجلال لعظمتكم السلطانية ـ العبد الخاضع المطيع المخلص » . ومؤسف أن يكون رئيس وزراء عبدًا خاضعاً مطيعاً مخلصاً لسلطان، عيّنه بالأمس حاكم عسكرى أجنبى ، دخيل ، غاصب ، محتل ! .



حسين رشدى باشا

خيم على الشعب الصمت والوجوم والدهشة من وقع الكارثة . كانت هذه أول مرة فى تاريخ البلاد تُفرض فيها الأحكام العرفية ، مع تدفق قوات الجيوش البريطانية المسلحة ، وأخبار المعارك الحربية بين الدول الأوروبية تتْرى ، وبما تحمل من بيانات مفزعَة عن الضحايا والتدمير والإهلاك .. بين مشاعر الغضب والضيق والألم ، إذا بالاحتلال الماكر يزيد الناس ـ البسطاء ـ حيرة وقلقًا ؛ فيحيط الوزراء ، ومن يرتمون تحت أقدامه من «الكبراء » بالأبهة والألقاب ومظاهر الترف والتبجيل المزيف ، وأوحى إلى السلطان بإضفاء لقب « دولة » على رئيس الوزراء ،و « صاحب المعالى » على الوزير ، ورئيس الجمعية التشريعية والسردار ورئيس الديوان السلطانى ورتبة «الباشا » ، ورتبة « البك »، ولقب « حضرة صاحب السعادة » ، أو لقب «صاحب السعادة » (فقط بدون حضرة !) على من يميلون كل الميْل ، أو بعض الميل إلى دار الحماية البريطانية والقصر السلطانى ، وابتُكرت للقلائل نياشين ، والوشاح الأكبر ... وكلها تبغى اجتذاب الكبراء والمثقفين والأعيان والطامعين والمتزلفين ، وأصحاب التأثير والنفوذ ، فى العاصمة والمدن والأقاليم ، لامتصاص بعض السخط العام ضد الحماية والاحتلال ، وتحويل الاهتمامات إلى التسابق فى الحصول على الرتب والألقاب ، فهى مظهر التفاضل والتفاخر بين الناس .. وما أرذله من تفاخر ، وأسوأه من تفاضل..لو علموا أن مخترع هذه الفكرة الخبيثة هو (نابوليون بونابرت) الذى قال يوما ليأوره: « هيا نفكر فى شيء نمنحه للشجعان ، ولكبار

(٢) صحيفة المقطم ، ١١ يناير ١٩١٥ .

الحمقى، والطامعين ، ولا يكلفنا أكثر من شريط على الصدر ، أو قطعة من المعدن » !.


نابليون

كان هناك احتجاج « سلبى » ، صادر من صفوف الشعب ،مثل ما فعلتْ جريدة كانت تسمى يومها « الشعب » . فكرة ذكية نفذها رئيس تحريرها ـ أمين الرافعى ، شقيق المؤرخ الكبير عبدالرحمن الرافعى ـ إذ أعلن فى عدد ٢٧ نوفمبر ١٩١٤ أن الجريدة ـ وكانت واسعة الانتشار ـ ستتوقف عن الصدور عقب هذا العدد ، ثم تعود إلى الظهور بمشيئة الله بعد ذلك . والغرض : لون من الاحتجاج على إعلان الحماية ، وعدم نشر قرار هذا الإعلان ، وما تبعه من قرارات ، وكان النشر مفروضاً على الصحف .

ثم استخدم الحاكم العسكرى سلطته فى اضطهاد واعتقال أصحاب الرأى الوطنى المسموع ـ كالعادة مع كل مستعمر مستبد ـ خاصة فى القاهرة والإسكندرية ، ونفى بعضهم إلى مالطة وأوروبا .. فاتخذ طلاب مدرسة الحقوق موقفاً ذكيًّا مشرفاً يعبر عن الرفض والسخط معاً .. فقد أراد السلطان حسين كامل أن يتودد إلى الشعب ، ويمتص بعض غضبه ، فقرر زيارة معاهد العلم .. فلما زار مدرسة الحقوق ،فوجىء بأن المدرسة تكاد تكون خالية من الطلاب . كان هؤلاء الشجعان قد اتفقوا على الغياب، أو التسرب من المدرسة قبيل وصول السلطان إليها ، احتجاجاً على الحماية والأحكام العرفية ، وعلى سلطان أجلسه على العرش مستعمر بغيض .. فاستشاط السلطان غضباً ، واهتزت الوزارة وقررت فصل أربعة وخمسين طالباً (بعضهم كان فى السنة النهائية من الدراسة) ، وحرمان عشرات آخرين من امتحان نهاية العام . ومن هؤلاء وهؤلاء من صار فيما بعد من كبار رجال السياسة والوزارة والفكر والقانون ، مثل: محمد صبرى أبو علم وفكرى أباظة ، وحسين الهضيبى ، ومحمد عبدالله عنان ، وسليمان نجيب ..


فكرى أباظة


محمد عبدالله عنان

وتجاوز الاحتجاج السلبى حدوده إلى الاعتداء على السلطان ذاته .هذه المرة من جانب أفراد عاديين من الشعب ، وليس من الطلاب ، أو المثقفين ، إذ أطلق عليه شاب تاجر خردوات من المنصورة عياراً ناريًّا أثناء مرور موكبه بشارع عابدين بالقاهرة ـ يوم ٨ إبريل ١٩١٥ ـ فأخطأه ، وقُبض على هذا الشاب ـ محمد خليل ـ حُكم عليه بالإعدام شنقاً ، ونفذ الحكم فى ٢٤ إبريل ،



أبناء مصر الذين جنّدهم الإنجليز قسرا للدفاع عن الامبراطورية البريطانية فى الحرب العالمية الأولى.

السلطان قنبلة وهو فى طريقه بالإسكندرية ، سقطت على ظهر جواد المركبة السلطانية ، لكنها لم تنفجر . وكان الحادث غامضاً ، استغرق التحقيق فيه وقتاً طويلاً ، لصعوبة الكشف عن الفاعلين . وفى النهاية ، قُدم تسعة شبان إلى المحاكمة أمام مجلس عسكرى بريطانى - ! - حيث حكم على اثنين منهم بالإعدام شنقاً ، وصدَّق القائد العام للقوات البريطانية على الحكم ، لكن السلطان طلب منه تخفيفه ؛ فاستبدله بالأشغال الشاقة المؤبدة . وحادث ثالث وقع فى سبتمبر من العام نفسه ، إذ اعتدى شاب من موظفى وزارة المالية على وزير الأوقاف بمحطة قطار العاصمة ، طعنه بخنجر ثلاث طعنات فى كتفه ، شفى منها ، وحوكم الشاب - صالح عبداللطيف - أمام مجلس عسكرى بريطانى ، وحُكم عليه بالإعدام شنقاً ، ونفذ الحكم فوراً .

ومع تدفق الجيوش البريطانية على مصر ، أصدر السلطان أمراً بتأجيل اجتماعات الجمعية التشريعية (شبه النيابية) إلى أجل غير مسمى ، استمر نحو عشر سنوات (وحتى بعد صدور دستور عام ١٩٢٣) . وعمدت السلطة العسكرية البريطانية إلى تجميع العمال والفلاحين المصريين بالإكراه والقهر لتشغيلهم بالسخرة - بلا أجر - فى مصالحها بسيناء ، والعراق ، وفلسطين ، والدردنيل ، وفى خدمة الجيوش فى فرنسا ، وألزمت تلك السلطة رجال الإدارة المصريين والعُمد ومديرى الأقاليم بحشد هؤلاء المساكين قسراً وكانت - للأسف - فرصة لأصحاب النفوس الضعيفة والخبيثة من الإداريين والعمد للزج بخصومهم ومن يكرهون فى هذه الجموع ،أو الحصول على الرشوة لإعفاء آخرين. واعترف اللورد ملنر فى تقريره بأن « الشعب المصرى تحمل التكاليف والقيود التى اقتضتها تلك الحرب بالصبر والرضا ، وأن الخدمات التى أداها الفَيْلق المصرى للعمال لا تقوَّم بثَمن ، ولم يكن عنها غنى للحملة على فلسطين » .. وكم كان عدد هذا « الفيلق » العمالى المصرى ؟ ١١٧٠٠٠ !! .

واستولت السلطات العسكرية البريطانية على معظم الدواب الموجودة فى مصر (الخيول ، والجمال ، والحمير ، والبغال) ، وما تحتاجه من حبوب ، وعلف ، ومؤن ، وحاصلات زراعية ، ومنتجات صناعية بالمجان غالباً ، ونادراً - إذا دفعت - بأبخس الأسعار ، ووُضعت الموانىء والسكك الحديدية والمركبات والطرق تحت تصرفها ؛ فأرهقتها وأتلفتها ، وخصصت إدارات ومصالح حكومية بأكملها لخدمة الجيوش البريطانية . وفى عام ١٩١٦ جندت - للخدمة العسكرية المباشرة - نحو ١٢ ألفا من الشباب المصريين ،

أطلقت عليهم اسم « الرديف »، بحجة الدفاع عن قناة السويس ... فلما تركت هؤلاء الجنود أوقاتاً كثيرة بلا طعام ، وكاد أن يهلكهم الجوع ، نظم بعضهم مظاهرة أمام قصر عابدين ، يشكو إلى السلطان ، ويطلب الطعام .وفرَّقتهم السلطة بالقوة ، وأصابت بعضهم بجراح بالغة . وتكررت المظاهرة ، وتكرر الضرب والإصابة والاعتقال ؛ فزاد سخط الناس ومقتهم للإنجليز ،وللسلطة الحاكمة، وللذل المفروض على البلاد والعباد .


الأمير (الملك) أحمد فؤاد

فى ٩ أكتوبر ١٩١٧ توفى السلطان حسين كامل . واعتذر ابنه الوحيد ، الأمير كمال الدين حسين ، عن قبول العرش (قبل وفاة أبيه المريض بيوم واحد) فى خطاب وجهه إليه ؛ فعرض المندوب السامى البريطانى عرش مصر على الأمير أحمد فؤاد ؛ فقبله . وتم تنصيبه بقصر عابدين فى ١٠ أكتوبر ١٩١٧ .

مرة أخرى .. بريطانيا هى التى تختار وتَعرض ، وتنصّب السلاطين ، بلا حق أو شرعية تتيح لها ذلك ؛ فتضاعف سخط الناس ومقتهم .

وفى ٩ مارس ١٩١٨ ، قرر مجلس الوزراء من تلقاء نفسه ـ برئاسة السلطان أحمد فؤاد (الذى سيصبح ملكاً فيما بعد) ـ أن تتحمل الخزانة المصرية (التى هى من أموال الشعب) ثلاثة ملايين جنيه ونصف مليون أنفقتها الحكومة المصرية على خدمات للجيوش البريطانية « اعترافاً بجميل ـ !! ـ بريطانيا العظمى ، التى حَمَت البلاد من خطر الغارات » . هذه المنحَة ، أو الهبة ، أو المكافأة ـ من أموال الشعب ، وليست من ثروات الكبار ـ تقدم عن طيب خاطر للمحتل الغاصب وجيوشه (فضلاً عن خدمات وأرواح أكثر من مليون شاب مصرى) ، فى الوقت الذى تدهورت فيه أحوال البلاد زراعيا وصناعيا وصحيا وتعليميا واجتماعيا ... وكرامة ! ، فلما انتهت الحرب بعقد الهدنة بين المتحاربين فى ١١ نوفمبر ١٩١٨ ، وأُعلن عن عقد مؤتمر الصلح والسلام فى فرساى [٣]،وكذلك عن مبادىء الرئيس الأمريكى ويلسون . كان لابد أن يعلن شعب مصر رأيه ، وقد نفد صبره ، فكانت الثورة .

وقبل أن ندخل فى التفاصيل ، يجب أن نلتفت إلى تغيرات كبيرة سوف تحدث فى تفكير وسلوك كثير من القادة المصريين والزعماء ، أو الذين فرضت

---

(٣) بدأ هذا المؤتمر بجلسة افتتاحية فى ١٨ يناير ١٩١٩ ، واستمر بضعة أشهر .

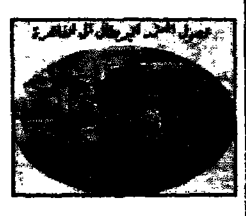
الظروف أن يتولوا قيادة الأمة وزعامتها ، فصاروا أوسع إدراكاً ، وأظهر وطنية ، وأشد عزماً وميلاً إلى رغائب الشعب ومطالب الأمة من ذى قبل ، وهذا يؤكد ما ذكرناه آنفاً .. من أن الشعب بكل طوائفه وفئاته هو الصانع لقادته وزعمائه ، وهو الذى اختارهم وصاغهم على نهجه ، وليس العكس . وهذا فى تاريخ الثورات نادر ، وفى ميزان التقدير رائع وعظيم ، لأن الشعب ـ لا السلطة الحاكمة آنذاك أو الأسرة العلوية ، ولا « الكبار » المترفين المشمولين بحماية ورضا ورعاية المحتل الإنجليزى ـ هو وحده الذى تحمل وقاسى وذاق المرارة والهوان . ويكفى أن نشير إلى مقتطفات من مقالين نشرا فى الصحف اللندنية (أى صحف الاحتلال ذاته) ، وإن كان الواقع الحقيقى أكثر بشاعة، وأشد عذاباً ونُكْرا .



مصريـون تعسـاء فـى «الفيلق المصرى للعمال » الذى استخدمه الانجليز بالإكراه والقهر لخدمة جيوشهم المحاربة .

فى ٣ إبريل ١٩١٩ ، نشرت جريدة (رائد العمال) البريطانية موضوعاً عن الثورة فى مصر . ومن بين مآخذها على حكومتها المحتلة : نظام التطوع الإجبارى للخدمة العسكرية الذى فُرض على المصريين أثناء الحرب . وقالت : « وُضع نظام للتطوع ، ظهر عدم كفايته . صَدَرت الأوامر بانتزاع العمال من الحقول بالإكراه . وطريقة ذلك .. أن يدخل رجال السلطة إلى القرية ، وينتظروا عودة الفلاحين إلى منازلهم عند الغروب ، فيحيطون بهم ويحاصرونهم ، كأنهم أنعام سائمة ، فينتقون أفضلهم وأقدرهم على الخدمة .. فإذا رفض أحدهم هذا « التطوع الإجبارى »؛ جُلد أمام الجميع ، حتى يرضخ ويقْبل التطوع .وعلى هذا النحو ساقوا قسراً أطفالاً فى سن الرابعة عشرة ، وشيوخاً جاوزوا الستين ... وأثناء الخدمة ، كان (الكرباج) السوْط هو الكفيل بتسخيرهم للخدمة الشاقة بلا مقابل ، فأصبح الجَلْد من سمات الأعمال اليومية، مع سوء الغذاء ، وقِلة الغطاء ، وانعدام الخيام ، فكان هؤلاء المساكين يبيتون فى العراء .وصاروا فريسة للأمراض والأوبئة .. واجتمع الجوع مع البرد مع العمل الشاق والقسوة البالغة ، وانعدام الرعاية الصحية ، فكانوا يموتون فى الصحراء كالذباب ... ونشأ عن مصادرة البريطانيين للمحاصيل الزراعية وللدواب والجمال ، أن تدهورت الزراعة فى مصر ، وارتفعت أثمان الحاجيات الضرورية للمعيشة ، فعم الغلاء ، وانتشر البلاء ، وشقَّت الحياة على غالبية السكان ، وساد الفقر .. فهل بعد هذا نستغرب إذا بلغ الحقد والبُغض علينا ما بلغا فى قلوب المصريين ؟! وهل يُرضى كل ذلك غُلاة الاستعمار ؟! ».

وفى الشهر نفسه ـ إبريل ١٩١٩ ـ نشرت صحيفة « الديلى نيوز » ـ أى أخبار اليوم ـ مقالاً بتوقيع « مس دورهام » ، تقول فيه :« أقمتُ فى مصر من نوفمبر ١٩١٥ إلى إبريل ١٩١٦ .. وإنى أؤيد ما نُشر ـ من قبل ـ بأن هذا الاضطراب الذى يحدث فى مصر ، إنما يرجع إلى سوء معاملتنا للمصريين . وقد ارتكب ولاة الأمور فى مصر أسوأ الأخطاء،إذ أتوْا بجنود من المستعمرات إلى البلاد المصرية ، من غير أن يذكروا لهم شيئاً عن السكان الذين سيعيشون بينهم . وقد بلغ من جهل هؤلاء الجنود أنهم كانوا يظنون أن مصر بلد إنجليزى ، وأن المصريين قوم دخلاء ، ويعجبون كيف سُمح لهؤلاء «العبيد » (٤) أن يأتوا إلى تلك الديار بهذه الكثرة !. ولقد سمعتُ واحدا من الأستراليين يقول :« لو كان الأمر بيدى ، لطردتُ كل المصريين ، ولم أُبْق على واحد منهم فى هذه البلاد ! ». وكانوا يعاملون المصريين بأشد قسوة واحتقار، وقد رأيت بعينى فى المقصف (الكافيتريا) جنديًا يضرب بقدمه عاملاً مصرياً أميناً ، لا لشىء ، سوى أنه لم يفهم أمراً أصدره إليه . وأبصرتُ مرة أخرى جنديًا يلكم بعنف شابًا مصريًا متعلماً فى صدره ، ليغتصب منه عصا ثمينة اشتهتها نفسه .لقد سمعت كثيراً من النزلاء الإنجليز الذين التقيتُ بهم فى مصر يقولون فى أسًى : إن ما أحدثه هؤلاء الجنود فى مصر لا يُمحى أثره فى قليل من السنين . وأنا أقسم .. لو كنتُ مصرية ، لما ترددتُ فى بذل كل غال وثمين ، وحتى نفسى ، لطرد الإنجليز من مصر . وإنى ـ والحق يقال ـ كنتُ أخجل لانتسابى لبلادى ، وكثيرا ما أنَّبت الجنود الإنجليز تأنيباً لاذعاً .. ومما زاد الأمر سوءًا أن الجنود عند مجيئهم ، وجدوا الحانات مفتوحة الأبواب ليلاً ونهاراً ؛ فأدى ذلك إلى مخازٍ اشمأزّت منها نفوس المصريين ، وملأت قلوبهم غيظاً واحتقاراً . وقد شاع فى ذلك الوقت أن الجنود السكارى كانوا ينزعون البراقع من وجوه المصريات » ..



صورة للحفاوة البالغة (والمهينة للشعب) التى كان يلقاها ممثلو الاحتلال البريطانى آنـذاك .

هذه بعض ملامح البيئة العامة التى تفجرت من خلالها ثورة شعب مصر ١٩١٩ : الاحتلال البريطانى الشرس البغيض بضغوطه واستغلاله وسلاحه وكرباجه ؛ والأسرة الحاكمة التى صنعها المستعمر ؛ فأطاعت له ، وخضعت وهى فى معزل كامل عن الشعب وآلامه وعذاباته اليومية ، وتنعم هى بالأبهة

(٤) تعود بنا الذاكرة إلى سقوط الدول الرومانية قديماً . وكان من أسباب انهيارها : كثرة العبيد الذين جلبتهم من المستعمرات ، وأصبح لهم صوت ، ونفوذ ، وثورات .


محمد فريـد

والترف ؛ والوزارة المستسلمة للمعتمد البريطانى ، والمنفذة لأوامر الحاكم العسكرى قائد الجيوش البريطانية فى مصر؛ وأصحاب الثراء والمناصب الكبيرة والألقاب الرنانة الذين باعوا أنفسهم وعقولهم وضمائرهم للشيطان، أو المستعمر، أو « لولى الأمر » ، أو « ولى النِّعم » ، وكل منهم يناديه، أو يخاطب سيده بقوله : « إننى ـ بكل احترام وإجلال لعظمتكم ـ العبد الخاضع المطيع المخلص » ؛ ورجال الإدارة ضعـاف النفـوس والأخـلاق الذيـن عاملوا أفـراد الشعب ـ العظيم ـ المغلوب على أمره بقسوة ، وصرامة ، وابتزاز، وتضليل ، تنفيذاً لتعليمات أو مطالب سادتهم ، أو تحقيقاً لأطماع شخصية لهم ؛ ثم الجنود الاستعمارية الذين عاثوا فى الأرض فساداً وبغياً وانحلالاً .

لكن روح الوطنية وبواعث الكرامة وعزة النفس ، كانت غلابة كامنة ، تستثيرها وتوهج نيرانها كلمات كتاب وشعراء ومفكرين ومثقفين وسياسيين ، ومنهم الزعيم الراحل مصطفى كامل (ومن بعده محمد فريد) التى مازالت تدوِّى فى الأسماع ، وتهز المشاعر والقلوب : « إن الوطنية هى أشرف الروابط للأفراد . وهى الأساس الذى تُبنَى عليه الدول القوية الراسخة »، « لا معنى للحياة مع اليأس ، ولا معنى لليأس مع الحياة » ، « هل بالاستسلام والتسليم ـ أيها المصريون ـ تقابلون نعمة الله عليكم بمصر، وهى جنة الله فى الأرض ، وأبدع البلدان ؟» ،« لقد بالغنا فى الاستسلام ... وقضت سياسة الاستسلام بأن تجاهد جنود مصر الأبطال أجمل وأشرف جهاد ، وتبذل حياتها رخيصة فى سبيل استرداد السودان ، ثم يُسَلَّم إلى الدولة المحتلة ، وهو بلاد زاهرة ، هو من مصر الروح والفؤاد » ، « أليست لرجالنا قيمة ؟ أليس المصرى فى شريعة الله ككل إنسان ؟ »، « لقد تعاظم الخطْب ، وأصبحت الحياة مُرة ، وبات الوطن فى أشد الأخطار ، وكل منا يُهمل واجباته ، وينتحل لنفسه عُذراً : فمنا من يطمع فى الثروة والترقى ، ومنا من يخاف الذل والفقر ، ومنا من لا يشعر بالمسئولية ، ومنا من استولى على نفسه اليأس والقنوط »، «إنى أشد الناس أملا فى مستقبل أمتى وبلادى. إن الشعب الذى أنا منه ، جدير بالرفعة والسمو ، وأراه حقيقاً بالمجد والحرية والاستقلال» ، « إن الوطنية شعور ينمو فى النفس ، ويزداد لهيبه فى القلب ، ويرسخ فى الفؤاد كلما كبرت هموم الوطن ، وعظمت مصائبه » ، «إن مصر جديرة بأن تُحَبَّ بكل قوة ، بكل عاطفة ، بكل جارحة ، بكل نفس، بكل حياة » ، « إننا لا نعمل لأنفسنا، بل نعمل لوطننا ، وهو باق ، ونحن زائلون ...نحن نرى من الآن هذا

الاستقلال المصرى ، ونَبْتهج به ، وندعو له ، كأنه حقيقة ثابتة » ، « كونوا أسعد حظًا منا ، وليبارك الله فيكم ، ويجعل الفوز على أيديكم ، ويُخرج من الجماهير المئات والألوف ، بدلاً من الآحاد ، للمطالبة بالحق الوطنى ، والحرية الأهلية ، والاستقلال المقدس »...


الأمير عمر طوسون

واستجاب الله تعالى لدعاء ونداء هذا الرجل ، الذى أفنى صحته وحياته من أجل مصر ، وفى حب مصر .. فما إن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها ، وأُعلنت مبادىء الرئيس الأمريكى ويلسون ، حتى بادر المصريون بانتهاز الفرصة ، واتخاذ خطوة عملية لتحقيق مطالب ورغبات ظلت حبيسة الصدور ، مختلطة بالعذاب والمعاناة لسنوات عجاف طوال . وتألف وفد مصرى للمطالبة رسميًا فى مؤتمر السلام بفرنسا باستقلال مصر ، وذلك فى نوفمبر ١٩١٨ . ومن هنا يبدأ مسار الثورة المجيدة ، ولسوف نتابعه وفق تسلسل الأحداث ، وبإيجاز(٥).

● أول من فكر فى تأليف وفد للمطالبة بحقوق مصر فى مؤتمر الصلح والسلام هو الأمير عمر طوسون - وهو رجل من الأسرة العلوية ، لكن تاريخه حافل بالمواقف الوطنية المشرفة - وكان ذلك فى لقاء له مع سعد زغلول أثناء حفل بفندق سان ستيفانو بالإسكندرية يوم ٩ أكتوبر ١٩١٨ ، أى قبل إعلان الهدنة بين الدول المتحاربة « فأقر سعد الفكرة ووعد الأمير بأن يفاتح أصدقاءه بالقاهرة فى تنفيذها » . وفى حفل آخر أقيم فى نفس الشهر بالإسكندرية أعاد الأمير الفكرة على سعد ، مؤكداً أهميتها .. فلما رجعا معاً إلى القاهرة بالقطار فى اليوم التالى ، تناقشا فى التفاصيل ، ثم افترقا على وعد من سعد بأن يخبر الأمير بما سوف ينتهى إليه مع أصدقائه « فلم يتلق منه جواباً » .

● فى يوم إعلان الهدنة - ١١ نوفمبر - سافر الأمير عمر طوسون (وكان بالإسكندرية) إلى القاهرة وقابل سعداً ، الذى أخبره أن رشدى باشا - رئيس الوزراء - أقر الفكرة وتحمس لتنفيذها فاتفق مع السير وينْجت المندوب السامى البريطانى أن يأذن بمقابلة سعد وزميليه على شعراوى (باشا) وعبدالعزيز فهمى (بك) لمناقشة هذا الأمر . فقابلوه - يوم ١٣ نوفمبر -

(٥) مرجعنا الأساسى فى هذا السياق هو كتاب « ثورة ١٩١٩ تاريخ مصر القومى من سنة ١٩١٤ - ١٩٢١ » - ثلاثة أجزاء للأستاذ المؤرخ عبد الرحمن الرافعى مع مصادر أخرى عربية وأجنبية . والأستاذ الرافعى أضبط وأدق كمؤرخ ولأنه عاصر الثورة بنفسه وقلمه ، رحمه الله .

وعقب ذلك تألف وفد من بعض الشخصيات بتشجيع من رشدى باشا ، فطلب الأمير الاجتماع بسعد وزملائه بقصره فى شبرا - يوم ١٩ نوفمبر - وأرسل بطاقات الدعوة إليهم ، لكن جرى الاتفاق بين السلطان ورئيس الوزراء وسعد على إلغاء هذا الاجتماع ، فأبلغ رشدى باشا الأمير بأن الحكومة قررت منع هذا الاجتماع . يقول الأستاذ الرافعى :« وظاهر من هذه الملابسات أن فكرة تأليف الوفد المصرى صدرت أول ما صدرت عن الأمير عمر طوسون وتلقاها عنه سعد باشا وانفرد بها لكى لا تكون الرئاسة للأمير ، إذا ظل مشتركاً فى تنفيذها ، وقد يكون ما عُرف عن الأمير من الجفاء بينه وبين الإنجليز من العوامل التى أقْصته عن الوفد » . والأرجح أن السبب الثانى هو الأصوب ، إذ لم يكن خافياً على سعد باشا شعور الأمير نحو الإنجليز ولا موقفهم منه .



سعد زغلول

● بعد تشاور وتشجيع من رشدى باشا رئيس الوزراء ، اجتمع سعد وأصحابه واتفقوا على تأليف هيئة تسمى « الوفد المصرى » للمطالبة باستقلال مصر وأن تحصل هذه الهيئة على توكيلات من الأمة تخوِّلها هذه الصفة .



أحمد لطفى السيد

● تألف الوفد - ١٣ نوفمبر - من سعد زغلول باشا رئيساً ، وعلى شعراوى باشا ، وعبدالعزيز فهمى بك ، ومحمد محمود باشا ، وأحمد لطفى السيد بك ، وعبداللطيف المكباتى بك ، ومحمد على علوبة بك .

● اتفقوا على وضع صيغة يوقع عليها أعضاء الهيئات النيابية القائمة آنذاك (كالجمعية التشريعية ، ومجالس المديريات ، والمجالس البلدية) وأكبر عدد من أصحاب الرأى والأعيان وكل أفراد الشعب ، كتوكيل من الأمة إلى أعضاء الوفد للتحدث باسمها وعرض مطالبها فى الاستقلال تطبيقا لمبادىء الحرية والعدل، سعياً إلى ذلك بالطرق السلمية المشروعة . ولما كان رشدى باشا مؤيداً للفكرة ، فقد أصدر تعليماته إلى مديرى الأقاليم ، بعدم التعرض لجامعى التوكيلات ، فتيسر جمع عدد كبير منها ، وعلى نطاق واسع .



محمدعلى علوبة

● أَوْجس ممثل الاحتلال البريطانى فى نفسه خيفة من جمع تلك التوكيلات وخشى مغبة ارتفاع صوت المطالبة بالاستقلال ؛ فأصدر المستشار البريطانى لوزارة الداخلية أوامره مباشرة - دون الرجوع إلى السلطات المصرية - بمنع التوكيلات ولو بالقوة . ولكن جمعها استمر وازداد، خاصة مع علم المديرين والجماهير أن رشدى باشا راض عن ذلك .

● ضم سعد زغلول إلى الوفد المصرى أعضاء آخرين ، لضمان تمثيل كل

فئات الأمة : مصطفى النحاس بك (كان قاضياً بالمحاكم الأهلية) ، وحافظ عفيفى بك (ممثلان عن الحزب الوطنى)، وحمد الباسل باشا ، وإسماعيل صدقى باشا ، ومحمود بك أبو النصر ، وسينوت بك حنا ، وواصف بك غالى، وحسين واصف باشا ، وعبدالخالق مدكور باشا (الأخيران عضوان بالجمعية التشريعية) .

● فى ٣٠ نوفمبر طلب أعضاء الوفد من السلطة العسكرية البريطانية ـ بناء على تدابير الأحكام العرفية القائمة ـ الترخيص بالسفر إلى لندن للتفاوض مع المسئولين هناك بشأن مستقبل مصر ، لكن رُفض .



على شعراوى

●أعاد سعد الطلب ، شارحاً مهمة الوفد الموكَّل عن الأمة « .. على أن سفرنا إلى إنجلترا لا نريد منه إلا أن نكون على اتصال برجال السياسة الممثلين للأمة الإنجليزية ، وللأشخاص الذين يتولون توجيه الرأى العام الإنجليزى ، الذى لا شك فى تأثيرهم على القرارت الحكومية .. ونحن واثقون بأن نجاح قضيتنا يتوقف جزء كبير منه على العدالة والحرية ، وحماية حقوق الضعفاء التى امتاز بها الرأى العام الإنجليزى ..» . وكان رشدى باشا معتزماً من جانبه السفر مع الوفد لمؤازرته ، ولكن رُفض مرة أخرى طلب التصريح بالسفر .

● أرسل الوفد ـ فى ٦ ديسمبر ـ نداء إلى معتمدى الدول الأجنبية فى مصر يحيطهم علما بموقف السلطة العسكرية البريطانية ، وبرقية نداء إلى الرئيس الأمريكى ويلسون، وفى كليهما يطلب تحقيق سعى الوفد فى السفر لحضور مؤتمر الصلح ، ويعرض « طلب مصر » فى الاستقلال التام ، لأن الاستقلال حق طبيعى للأمم ، ولأن مصر دفعت ثمناً غالياً من دم أبنائها للحصول على استقلالها بعد الاحتلال الفرنسى . والآن ، وقد زالت السيادة الاسمية لتركيا التى هُزمت فى الحرب ، فقد حان الوقت لإعلان استقلال مصر التام ، وإقامة حكومة دستورية بها ، تحترم الامتيازات الأجنبية ، وحياد قناة السويس، وأن يوضع استقلال مصر تحت ضمانة عُصْبة الأمم لتحقيق مبادىء العدل والحق..



مصطفى النحاس

● اجتمع أعضاء الوفد ـ ١٣ يناير ١٩١٩ ـ بمنزل حمد الباسل باشا ، وألقى سعد زغلول أول خطاب سياسى له بعد تأليف الوفد ، شرح فيه مهمة الوفد فى السعى لتحقيق مطلب الشعب المصرى العادل فى الاستقلال ، وأن مصر والسودان كلٌ لا يتجزأ .. فكان واضحاً من هذا الخطاب تأثير الروح

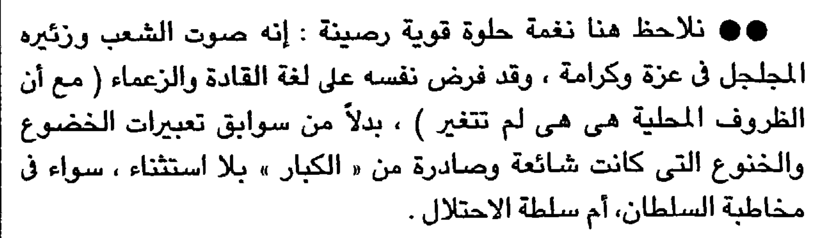
الشعبية ، وتعبير سعد عنها تعبيراً قويًّا أميناً وحكيماً ، فأنِس الشعب إليه ، وارتضاه زعيماً للأمة .

● رفضت السلطة العسكرية البريطانية أيضاً التصريح لرشدى باشا ـ رئيس الوزراء ـ بالسفر إلى إنجلترا للتحدث مع الحكومة البريطانية فى شأن مستقبل مصر السياسى ، وكذلك رُفض طلب عدلى يكن باشا وزير المعارف فى السفر مع رئيس الوزراء ؛ فقدم رشدى باشا فى ديسمبر ١٩١٨ استقالته من الوزارة ، موضحاً السبب : وهو تعنت السلطة البريطانية ، وتسويفها فى حصول مصر على حريتها. فطلب السلطان فؤاد ـ بعد مشورة المعتمد البريطانى ـ تأجيل الاستقالة إلى حين مراجعة الحكومة البريطانية ، لعلها تقبل الموافقة على سفره وزميله .. فاشترط رشدى باشا الموافقة أيضاً على سفر الوفد المصرى « وإباحة السفر إلى أوروبا لمن يطلب من المصريين » . وطال الانتظار ، ثم أصر رشدى باشا على الاستقالة ، بعد أن جاء رد الحكومة البريطانية بالموافقة على سفر رشدى وعدلى وحدهما إلى لندن ، دون بقية المصريين .. فقبل السلطان استقالته فى أول مارس ١٩١٩ .


عدلى يكن باشا

● كانت استقالة رشدى باشا بمثابة الشرارة التى أشعلت الثورة المكتومة بالغيظ فى نفوس المصريين ، لأنها أوضحت تماماً ـ وعلى الملأ ـ موقف الاحتلال ونواياه المجحفة فى وقت حرج عالمياً ، ومحاولته إضاعة الفرصة الثمينة على مصر للحصول على حقها . كما أن الاستقالة أثارت مشاعر المصريين ضد القصر السلطانى ، لأن قبول الاستقالة المسببة بهذا الوضوح الوطنى ، يعنى انحياز السلطان لجانب الإنجليز ، وخشيته من إغضابهم . كما أنها أيضا أطلقت إشارة البدء لتحرك الهيئة الجديدة الوكيلة عن الأمة ـ الوفد المصرى ـ واتخاذ ما تراه مناسبا .

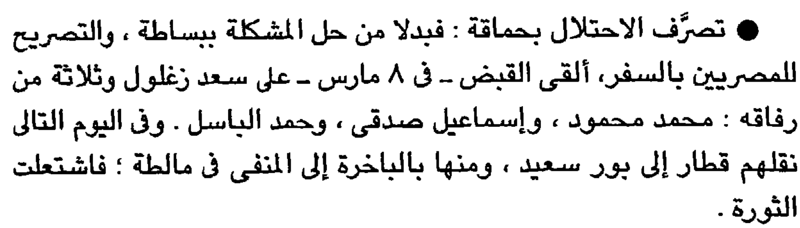
● أرسل الوفد ـ ٤ مارس ـ بيانا إلى معتمدى الدول الأجنبية فى مصر، احتج فيه بشدة على سياسة الإنجليز ، ومناوراتهم الماكرة ، لمنع وصول صوت مصر العادل إلى مؤتمر الصلح فى باريس ، ويفند فيه مطامع بريطانيا الاستعمارية «اللامتناهية » وتنكرها المستمر لوعودها وإهدارها لحقوق مصر وشعبها . «والذى نقصده الآن إنما هو أن نُشهدكم على المعاملة الجائرة التى تُرزأ بها مصر لكى تقولوا لحكوماتكم أنه على الرغم من العهود التى التزمت بها إنجلترا على رءوس الأشهاد ، وعلى الرغم من المبادىء التى أقرها الحلفاء بالإجماع ، لا تزال فى العالم أمة تتحكم فيها القوة الغاشمة لخدمة مصالح لا اتفاق لها مع دواعى المدنية ، وهى أقل اتفاقا مع دواعى العدل والإنصاف » .



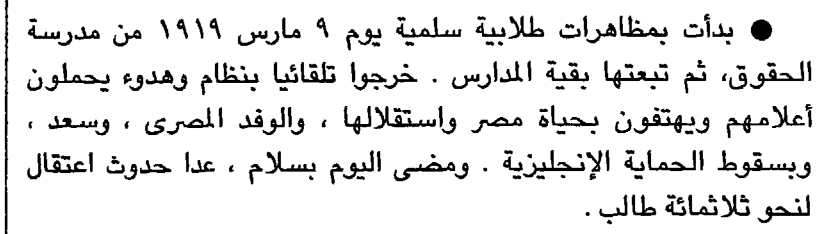
●● نلاحظ هنا نغمة حلوة قوية رصينة : إنه صوت الشعب وزئيره المجلجل فى عزة وكرامة ، وقد فرض نفسه على لغة القادة والزعماء (مع أن الظروف المحلية هى هى لم تتغير) ، بدلاً من سوابق تعبيرات الخضوع والخنوع التى كانت شائعة وصادرة من « الكبار » بلا استثناء ، سواء فى مخاطبة السلطان، أم سلطة الاحتلال .



شباب مصر من الطلاب أول من أطلق شرارة الثورة ضد الاحتلال البريطانى البغيض .



● تصرَّف الاحتلال بحماقة : فبدلا من حل المشكلة ببساطة ، والتصريح للمصريين بالسفر، ألقى القبض ـ فى ٨ مارس ـ على سعد زغلول وثلاثة من رفاقه : محمد محمود ، وإسماعيل صدقى ، وحمد الباسل . وفى اليوم التالى نقلهم قطار إلى بور سعيد ، ومنها بالباخرة إلى المنفى فى مالطة ؛ فاشتعلت الثورة .



● بدأت بمظاهرات طلابية سلمية يوم ٩ مارس ١٩١٩ من مدرسة الحقوق، ثم تبعتها بقية المدارس . خرجوا تلقائيا بنظام وهدوء يحملون أعلامهم ويهتفون بحياة مصر واستقلالها ، والوفد المصرى ، وسعد ، وبسقوط الحماية الإنجليزية . ومضى اليوم بسلام ، عدا حدوث اعتقال لنحو ثلاثمائة طالب .

● فى اليوم التالى ـ ١٠ مارس ـ كانت المظاهرات أضخم وأروع بانضمام طلاب الأزهر إلى حشود طلاب المدارس الأخرى (كانت الكليات، مثل: الحقوق والهندسة والزراعة تسمى مدارس أيضا) . وفيه تحرش جنود الاحتلال بالمتظاهرين المسالمين ، واعتدوا على بعضهم بالضرب ، وأطلقوا عيارات نارية، راح ضحيتها شهيد مجهول وطفل .

● فى اليوم التالى ـ الثلاثاء ـ كانت المظاهرات أكبر قوة وحماساً ، واجهتها قوات الاحتلال بالعنف والرصاص ، فسقط فيها ست شهداء ـ وفقاً للبيان الرسمى الصادر عن السلطة العسكرية البريطانية ـ وأصيب واحد وثلاثون . وفى هذا اليوم ـ ١١ مارس ـ أعلن المحامون إضرابهم عن العمل ، احتجاجا على موقف الإنجليز وتصرفاتهم المشينة ، وتضامنًا مع الأمة فى طلب الحرية والاستقلال . واستمر الشعب ـ والشباب خاصة ـ فى مظاهراتهم بشجاعة وثبات ، رغم المواجهات الشرسة من جنود الاحتلال .

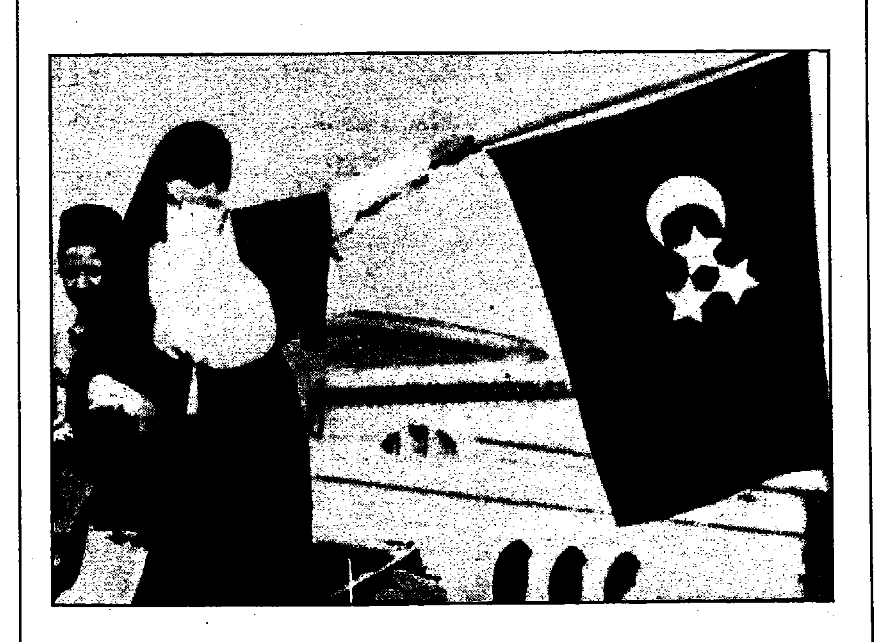
● استمرت المظاهرات يومى الأربعاء والخميس ، وسقط فيها شهداء وجرحى . وانضم إلى الطلاب عمال وموظفون ؛ فأصدرت السلطة العسكرية إنذاراً إلى الموظفين ، تهددهم بأشد العقاب إذا اشتركوا فى المظاهرات .

● فى اليوم التالى ـ الجمعة ـ كانت مظاهرات كل طوائف الشعب عقب

صلاة الجمعة . وسقط عدد أكبر من الشهداء والجرحى . وخشى المحتل من اشتراك جنود الشرطة المصريين فى الثورة ؛ فجردوهم من أسلحتهم ، عدا العصى ! .

● السبت ١٥ مارس : أضرب المحامون الشرعيون عن العمل ، واشتركوا فى المظاهرات الحاشدة لجميع الطوائف والهيئات . وتعطلت المواصلات ، وتوقفت القطارات مع إضراب عمال السكك الحديدية ، وأغلقت المتاجر .

● الأحد ١٦ مارس : انضم إلى المظاهرات المتزايدة عنصر مدهش جديد مثير : مظاهرات نسائية من كرام العائلات ، خرجْن فى حشمة ووقار ، سيدات وآنسات ، إعراباً عن مشاعرهن الوطنية ، وتضامناً مع أبناء مصر فى طلب الحرية والاستقلال ، واحتجاجاً على الأعمال الوحشية التى ارتكبها جنود الاحتلال ضد المصريين الوطنيين الأبرياء .وطُفْن على دور المعتَمدين الأجانب ، وهن يحملن الأعلام المصرية واللافتات الوطنية ، وقدَّمْن إلى كل منهم مذكرة توضح رأى المرأة المصرية فى الموقف الراهن ، ومشاركتها أبناء الوطن فى طلب الاستقلال العادل . وفى ختام المذكرة رجاء أن تعمل حكومة المعتمد على نصرة مصر فى قضيتها « لأن فى ذلك نصرة للحق ، وتأييدا لمبادىء الحرية والسلام » . ولم تَسْلم أولئك السيدات الوطنيات الفُضليات



خرجت المرأة المصرية بثقة وشجاعة لتنضم إلى مظاهرات الثوار الوطنيين مما لفت نظر العالم كله .

من قسوة ونذالة جنود الاحتلال، إذ اعترضوا طريقهن وأوقفوهن نحو ساعتين فى الشمس الحارة، موِّجهين بنادقهم نحوهُن ؛ حتى صرخن فيهم بالإنجليزية مسفِّهات لهم وقائلات : « نحن لا نهاب الموت . أطلقوا بنادقكم أيها الجبناء إن شئتم » !.

وقد وقَّع على المذكرة المقدمة إلى المعتمدين الأجانب عدد كبير من الآنسات والسيدات ، منهن على سبيل المثال (بترتيب التوقيع على المذكرة) : حرم حسين باشا رشدى ، وحرم سعد زغلول باشا ، وهدى شعراوى حرم شعراوى باشا ، وحرم محمود رياض باشا ، وحرم محمد سعيد باشا ، وحرم إسماعيل صدقى باشا ، وحرم عمر سلطان باشا ، وحرم عثمان عرفى باشا ، وحرم الدكتور محمد علوى باشا ، وحرم محمد شكرى باشا ، وحرم إسماعيل سرى باشا ، وحرم الدكتور حسن محرم بك ، وحرم الأستاذ محمد أمين يوسف ، وحرم محمد محرز باشا ، وحرم سرى بك ، وحرم أحمد راغب بدر بك ، وحرم أحمد عبداللطيف بك ، وحرم مصطفى بك عبدالخالق ، وحرم أحمد بك لطفى ، وحرم عثمان باشا مرتضى ، والآنسة كريمة عثمان باشا مرتضى ، وحرم أحمد بك أبو أصبع ، وحرم حسن بك خيرى ، وحرم إسماعيل باشا حسنين ، وحرم محمد بك رأفت، وحرم سعيد بك حلمى ، وحرم إبراهيم رفعت باشا ، وحرم محمود سامى البارودى باشا ، وحرم حنا بك مسيحة ، والآنسة كريمة محمود سامى باشا البارودى ، وحرم طاهر بك اللوزى ، وحرم عبدالحليم بك العلايلى ، وحرم على بك سعد الدين ، وحرم الأستاذ عزيز مشرقى ، والآنسة كريمة عبدالفتاح بك اللوزى ، وحرم الدكتور نجيب إسكندر ، وحرم الدكتور محمد العروسى ، وحرم الدكتور إبراهيم حسن ، والآنسة كريمة عبدالمجيد بك رضوان ، وحرم أحمد بك حمدى ، والآنسة كريمة مصطفى بك الباجورى، والآنسة كريمة أحمد بك ندا ، وحرم إسكندر بك مسيحة ، وحرم أحمد بك حجازى ، وحرم نجيب بك فتحى ، وحرم حافظ بك محمد ، والآنسة كريمة الشيخ الأنصارى ، وحرم محمد راتب باشا ، وحرم محمد بك يوسف ، وحرم حسين بك رياض ، والآنسة جولييت صليب .. والآنسة كريمة شوقى باشا ، والآنسة كريمة أمين باشا الشمسى ، ومدام روفائيل بغدادى ، وحرم الأستاذ ويصا واصف ، وحرم أحمد بك شكرى ، والآنسة كريمة إسماعيل أباظة باشا، .. والآنسة مارى ميرهم .. والآنسة كريمة السيد أباظة باشا ، وحرم عبد الله بك أباظة ، وحرم أحمد عفيفى باشا ، والآنسة كريمة محمد الشواربى باشا ،


السيدة هدى شعراوى


صفية زغلول

وحرم بهى الدين بركات بك .. وحرم مختار بك الأرناؤوطى ، وحرم صليب بك منقريوس ، وحرم أحمد بك عباس يكن .. وكريمة أمين باشا سيد أحمد ، وحرم فؤاد بك شيرين ...وعشرات غيرهن .

ربما أسرفنا فى ذكر أسماء هؤلاء السيدات والنساء الفضليات ، مع كل الاحترام والتقدير للأخريات الموقعات على المذكرة . ولكن عذرنا فى ذلك .. ثلاثة أمور : أولها توضيح أن الشعور الوطنى الأصيل الغلاب كان سائداً شاملاً لكل أبناء مصر العظيمة، رجالاً ونساء ،وعندما حان الوقت ، ودقت أجراس الكفاح السلمى والنضال الجاد ، لبَّى الجميع ، تلقائيًّا كما ذكرنا آنفاً ، وفقاً لمقتضيات الظروف والأحداث . وثانياً : أنهن يمثلن كل طوائف وفئات الشعب، مسلمين وأقباط ، بلا تفاضل ولا تفرقة ، زوجات وكريمات الباشوات والبكوات والمواطنين العاديين . وثالثا :كانت ثورة ١٩١٩ شعبية بكل معنى الكلمة ، أى أنها فرضت نفسها على كل الأسر والبيوتات ، وغيرت مفاهيم، واستحدثت قيماً جديدة ،اصطبغت بها كل العناصر والأفراد والقيادات . ويستحيل على ثورة بهذا المستوى ـ وإن كانت سلمية متأنية ـ أن تُهزم أو تُهدر حقوقها العادلة المشروعة ، وإن طال بها الزمن .



سعد باشا زغلول بين أعضاء الوفد المصرى مسلمين وأقباط كممثلين للشعب العظيم .

اهتزت مشاعر المصريين لتلك المظاهرة النسائية ، وحياهن شاعر النيل حافظ إبراهيم بقصيدة رائعة ، قال فيها :

خَرَج الغوانى يَحْتَجِجْنَ ورُحتُ أَرْقب جَمْعَهُنَّهْ(٦)

فإذا بهنَّ تَخِذْنَ من سودِ الثياب شِعارهُنَّهْ

(٦) الغانية (لغة) : المرأة التى غَنِيت بزوجها ، أو بجمالها وحسنها .

فطَلَعْنَ مثـــــل كواكـب	يَسْطَعْنَ فـى وسَـطِ الدُّجُنّـهْ
وأخــذْن يجتـزن الطريــق	ودار سعـــد قَصْدَهُنّــه
يمشـينَ فـى كنَـفِ الوقــار	وقـد أَبَـنَّ شُعُور هُنّـه
وإذا بجيــش مُقبـلِ	والخيـلُ مُطْلَقَـةُ الأَعِنـَّه
وإذا الجنــود سيـوفُهـا	قـد صُوِّبَتْ لنُحورهِنّــه
وإذا المـدافــع والبنـا	دق والصــوارم والأسنَّـه
والخيـل والفرســان قــد	ضَرَبت نِطاقـا حَوْلهنّـه
والــورد والريحْـان فــى	ذاك النهـار سلاحُهُنّـهْ
فتطاحــن الجيشــان سـا	عــاتٍ تَشِيب لهـا الأجِنّـهْ ..

● انتقلت الثورة إلى الأقاليم ، واتسع مداها، بلا تدبير مسبق ولا اتفاق .. فالروح الوطنية الجياشة الغلابة سائدة فى كل مكان ، شمالاً وجنوباً ، وحتى أقاصى الصعيد ، وحتى فى القرى . إن مصر كلها مشتعلة بالثورة ، والعدو المحتل حائر فى كيفية إطفائها، أو السيطرة عليها . وسقط شهداء وجرحى فى كل المدن والبنادر والقرى ؛ فكانت جنازات الشهداء ثورة أخرى فوق الثورة.

● أصدر القائد العام للقوات البريطانية بلاغاً ـ فى ١٣ مارس ـ يتهدد فيه ويتوعد بالإعدام رمياً بالرصاص ، وينذر بحرق القرى ، إذا لم تهدأ الأهالى وتتوقف القلاقل . ثم أمر بمنع خروج الناس من منازلهم من الساعة التاسعة مساء إلى الرابعة صباحاً ، وعدم انتقال سكان القرى من قرية إلى أخرى بعد غروب الشمس .

● توجهت حملات مسلحة إلى المديريات لقَمْع الثورة . وسُيِّرت قطارات



مع توالى أيام الثورة الشعبية فى كل أنحاء مصر ،تزايدت أعداد المشتركين فى المظاهرات يتقدمهم طلاب الكليات والمدارس وطلاب الأزهر رغم تهديد سلطات الاحتلال واعتداءاتهم الدامية.

مسلحة إلى مختلف الجهات ؛ فكانت تقابل من الأهالى بقطع الخطوط الحديدية وانتزاعها . وأُنشئت دوريات من سفن مسلحة تجوب النيل والترع وتطلق النار أحياناً من البواخر على الثوار .واسُتخدمت الطائرات الحربية لحراسة القطارات المسلحة ، وإطلاق النار على جموع الشعب الثائرة .

● فى العاصمة ، وفى المدن الكبرى توقفت وسائل المواصلات (الترام ، وسيارات الأجرة ، والأتوبيسات ، والحنطور ..) .ومما ذكره الرواة أن مستشارى محكمة الجنايات ببنى سويف أوقفوا الجلسات بمناسبة الثورة ، ولم يجدوا سوى مركب شراعى ركبوه للوصول إلى القاهرة بعد أيام ، وعند وصولهم إليها لم يجدوا سوى عربة « كارو » نقلتهم إلى منازلهم « وهم فرحون » . وحدث الشىء نفسه مع مستشارى محكمة جنايات أسيوط وأضرب عن العمل عديد من العاملين بالشركات والمؤسسات ، واضطرب العمل فى مصلحة التلغرافات والبريد . وتوقف العمل بالمحاكم الأهلية والشرعية والمختلطة (للأجانب)، كما توقف سريان الإجراءات القانونية نظراً لحالة الاضطراب فى البلاد .

● وبرز دور الأزهر الشريف : « لقد كان الأزهريون فى طليعة صفوف المتظاهرين ، ومن أكثرهم جرأة وحماسة وتضحية ، ومن أشد العاملين على بث الروح الثورية والإضراب بين طبقات الشعب . وكثيراً ما كانت المظاهرات تبدأ من الجامع الأزهر ، كما كانت الاجتماعات العامة تُعقد فيه غالباً .. فكان يموج كل مساء بالألوف المؤلفة لسماع الخطب النارية والقصائد الحماسية تُلقى فيه ضد الاحتلال والحماية .. فكان يتعاقب على مِنْبره الأزهريون ، وطلبة المدارس ، وبعض العلماء ، والقُسس ، والمحامون ، والصحافيون ، والعمال ، وغيرهم من مختلف الطبقات.. وفيه كانت تُدبر المظاهرات ، وتُرسم الخطط.



طوائف الأمة بأجمعها تشترك فى المظاهرات غير عابئة ببطش قوات الاحتلال .

كان دور الأزهر فى ثورة ١٩١٩ شبيهاً بالدور الذى قام به فى أول ثورة شبت فى عهد الحملة الفرنسية (أكتوبر ١٧٩٨) ، إذ كان معقل الثورة. وقد ذكر «نابوليون» فى تقريره إلى حكومته « أن الأزهر كانت تُعْقد فيه لجنة الثورة». لقد كان الأزهر خلال سنة ١٩١٩ ، وفى فترة من الزمن «المعسكر العام للثـــــورة القـــوميـــــة



التـى قامت فى مصر عقب انتهاء الحـرب العالمية ، والتاريخ يعيد نفسه» (٧).

● حاولت السلطة العسكرية البريطانية سد الطرق المؤدية إلى الأزهر ومنع خروج المظاهرات من داخله ، لكن الجماهير كانت دائما تفسد محاولاتها ، رغم الفرق المسلحة المحتشدة بالمنطقة ، باللجوء إلى مسالك يتعذر على جنود الاحتلال الوصول إليها .

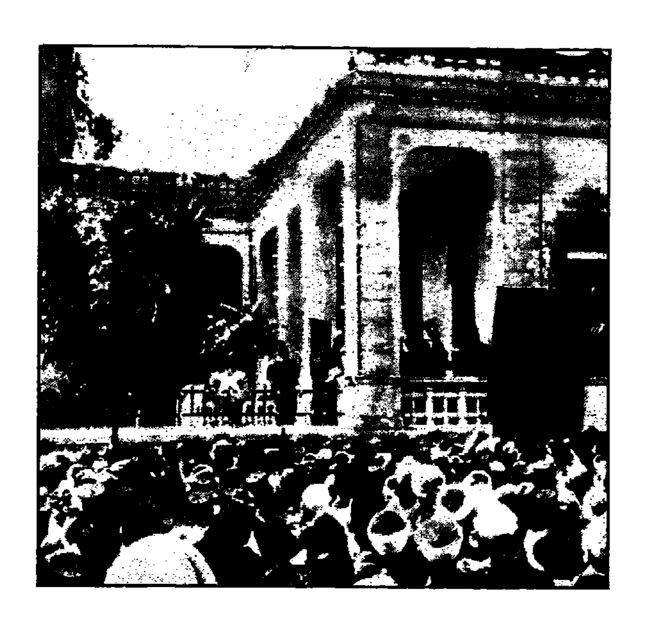
● تعددت محافل اجتماع الثوار ـ بخلاف الأزهر ـ فى المقاهى ودور الزعماء والمفكرين والأدباء فى مختلف أنحاء القاهرة والمدن ، وفى « بيت الأمة» مقر إقامة سعد زغلول (المنفى فى مالطة) (٨).

● فى ١٧ مارس خرجت أكبر مظاهرة للثورة . وكانت مُحكمة التنظيم ، وأَبلغ القائمون عليها حكمدارية العاصمة بشأنها مسبقاً . ورأت السلطة العسكرية ـ حقناً للدماء ـ عدم التعرض لها ؛ فركب حكمدار العاصمة رسل باشا (البريطانى) سيارة تقدمت المظاهرة ، حتى لا يصطدم بها الجنود

---

(٧) عبد الرحمن الرافعى ـ ثورة ١٩١٩ ـ جـ ١ .

(٨) كان السبب فى تسمية بيت سعد زغلول « بيت الأمة » موقفا طريفا : ذهب إليه بعض أعضاء الحزب الوطنى فى نوفمبر ١٩١٨ لمناقشته فى تعديل صيغة التوكيل المقترح طرحه على الشعب للتوقيع عليه بتفويض أعضاء الوفد المصرى فى التحدث باسم الأمة . ولما احتدت المناقشة قال سعد فى غضب : كيف تسمحون لنفسكم بهذه الحدّة ، وكيف تهينوننى فى منزلى ؟ فأجابه محمد على زكى (أحد الأعضاء الحاضرين) على الفور : إننا نعتبر أنفسنا فى بيت الأمة وليس فى بيت سعد باشا الخاص . فسُر سعد لهذه التسمية ، وقال مبتسما : لقد تنازلت عن ملاحظتى . ومن يومها صار الاسم .



البريطانيون . ضمت آلافاً بالعشرات من كافة فئات الأمة : العلماء والقضاة والمحامين والمعلمين والتجار وطلبة الأزهر والمدارس وأصحاب الأعمال وطوائف الصناع ، تحمل الأعلام والشارات ، وسارت فى نظام كامل تهتف بالحرية وتنادى بالاستقلال .ورغم إطلاق النار من نوافذ بعض البيوت فى أحد المواقع على المتظاهرين (قيل من جنود بريطانيين وقيل بعض الأرمن) فسقط بعض القتلى والجرحى ، إلا أن نظام المظاهرة لم يختل واستمرت حتى نهايتها .



الجامع الأزهر مهد الثورات الوطنية على مدى العصور .



● أصدر القائد العام البريطانى بلاغا فى اليوم التالى بمنع الاجتماعات والمواكب والمظاهرات ، لكن الجماهير لم تعبأ ، على الرغم من نصْب المدافع فى الميادين العامة ، وفى مواقع مختلفة من العاصمة ونشر الجنود المسلحين والفرسان. وفى ٢٠ مارس خرجت مظاهرة نسائية ثانية بالأعلام واللافتات باللغات العربية والإنجليزية والفرنسية ، مثل : « نحتج على قتل الأبرياء » ، «نطلب الاستقلال التام »، مع الهتافات المتلاحقة . وتعرض لها جنود الاحتلال وأوقف المتظاهرات نحو ساعتين فى الشمس . ولما مر بهن القنصل الأمريكى وشاهد الحصار بنفسه، ذهب غاضباً محتجاً إلى مقر القيادة البريطانية التى أصدرت أمراً برفع الحصار عنهن .

● ألَّف المتظاهرون « شرطة وطنية » برئاسة الشيخ مصطفى القاياتى ، مهمتها المحافظة على نظام المظاهرات وعدم تسلل أحد من الغوغاء أو المشاغبين إلى صفوفها ، وحَمْل الماء إلى المتظاهرين عند الحاجة للارتواء . ومع ذلك أصدرت السلطة العسكرية البريطانية أمراً بمنع هذه الشرطة الوطنية المسالمة المفيدة فى حفظ الأمن والنظام . كما منعت « حَمْل الرعايا المصريين للأسلحة النارية ، أو لأى نوع من الأسلحة داخل حدود محافظة القاهرة .. » .

● على هذا النحو ، استمرت المظاهرات الثورية فى الإسكندرية وفى كل مديريات مصر ، ومدنها ، ومراكزها ، وقراها .. أمة ثائرة ، وشعب مناضل بلا سلاح ، يرفع صوته عاليا مطالبا بالحرية والاستقلال ، ويقدم فى كل يوم شهداء وجرحى فداء لمصر العزيزة الغالية .

● فى لندن : أصيبت الحكومة البريطانية والصحافة والرأى العام بالدهشة البالغة من ثورة شعب مصر المفاجئة الشاملةالصامدة ، التى خرج بها متحدياً ، لا يهاب بريطانيا ، التى زادها انتصارها فى الحرب العظمى كبرياء وزهوًا. فى البداية كانت الحكومة البريطانية تدَّعى أنها مجرد قلاقل بسيطة عابرة .. فلما اشتدت الثورة المصرية عزماً وقوة ، واتسع مداها ، وحارت فى تفسير دوافعها ومرماها ، استَبدلت مندوبها السامى فى مصر والسودان وينْجت بالجنرال اللّنبى[٩]،وأعلنت ذلك فى بيان يحمل فى ثناياه الاتجاه إلى قمع الثورة بقوة السلاح. وبمجرد وصوله إلى القاهرة ، أصدر

---

(٩) كان هذا الرجل قائدًا عامًّا للجيوش البريطانية فى مصر أثناء الحرب العظمى وقاد الحملة إلى فلسطين وسوريا ، فهومُشعِل حرب ، لابطل سلام .

إنذاراً بتوقيع « أقسى العقوبات على المعتدين على طرق المواصلات والأملاك العمومية ، وعلى الأنفس ، أو الخروج على القوانين » ، ونصح المصريين «بالتعقل والروية والتزام طريق الحكمة ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، والله الهادى إلى سواء السبيل». هكذا جاء ختام الإنذار ، وهو يذكرنا بإنذارات وبيانات نابوليون بونابرت التى كان يوجهها إلى المصريين ، ويضمنها آيات قرآنية وتعبيرات دينية إسلامية ! ، دَجَل وخداع ، وما يخدعون إلا أنفُسَهم ! .

● فى أوائل إبريل ١٩١٩ عادت المظاهرات السلمية تجوب القاهرة بدعوة من الموظفين ، وكانت أول مرة يُضرب فيها موظفو الحكومة جملة لأسباب سياسية أو غير سياسية . اشترك فيها آلاف من الجماهير ، وأقفلت المحال التجارية . ووقع صدام مع الدوريات البريطانية التى أطلقت النار على المتظاهرين ، فسقط تسعة شهداء ، وأكثر من خمسين جريحاً .

● طلبت سلطة الاحتلال غلْق الجامع الأزهر ، ولكن شيخه (محمد أبو الفضل الجيزاوى) رفض . واتخذ منظمو المظاهرات مسجد ابن طولون - مع الأزهر - مكاناً لعقد الاجتماعات .


الشيخ أبو الفضل الجيزاوى

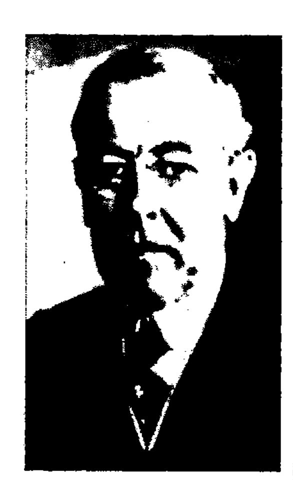
● صدرت الأوامر للجنود البريطانيين بإطلاق الرصاص على المتظاهرين؛ فزاد عدد الشهداء والمصابين ؛ ولم تتوقف المظاهرات .

● رأت الحكومة البريطانية أنه من الأفضل لها اتخاذ سياسة جديدة للتهدئة؛ فأعلنت الإفراج عن سعد زغلول وزملائه ، وإباحة السفر للمصريين جميعاً .

● خرجت مظاهرات ابتهاج بالإفراج عن سعد وأصحابه ، لكنها قوبلت بالاعتداء المسلح من جنود الاحتلال ، وسقط بسببها عدد من الشهداء والجرحى؛ فعادت المظاهرات الثورية أكبر عدداً ، وأشد سخطاً وحماساً ، وكلها تواجَه بالاعتداء الوحشى من جنود الاحتلال .

● إلى أن وقَعت مفاجأة مزعجة ، لم تكن فى التقدير والحسبان ، وكأنها رجْز من عمل الشيطان : فى ٧ مايو ١٩١٩ أُعلنت شروط معاهدة الصلح التى قررها الحلفاء فى مؤتمر فرساى ، وجاء فى نصوصها الخاصة بمصر : إقرار الحماية البريطانية التى فُرضت عليها فى ١٨ ديسمبر ١٩١٤ .

●● ولنا هنا وقفة ...


وودور ويلسون

عجيب مريب أن يقر الحماية البريطانية على مصر مؤتمر عالمى ، استغرق تنظيمه وتشغيله وعقد جلساته نحو أربعة أشهر ، وسبقه وأحاطت به دعايات ضخمة ، وشعارات فخمة ، وإرهاصات مجلجلة ، وتَوَّجَه رئيس أمريكا ويلسون بمبادئه الشهيرة المثيرة : (سلام دائم ، وإنصاف ملائم ، وحرية الشعوب ، وإزالة الكروب ، وحقوق الأُمم فى المعالى قمم ، لا ضغوط ولا إكراه، ونؤازر الحق إلى منتهاه ...) . وفجأة ، إذا بالوعود وكأنها - للأسف - سراب ، وإذا بالمبادىء وكأنها نعيق غراب ،وكأنما الخُبث عند «الكبار » سمة غالبة ، أو أن « الغرب » فى ظلم « الشرق » مِلَّة واحدة [١٠].

وليست هذه هى المرة الأولى ، ولن تكون الأخيرة : فلسوف تشهد سنوات القرن العشرين الظلم الكبير يحيق بدول الشرق والإسلام ، والإجحاف الصارخ المثير يلحق بشعوب العربية والقرآن ، وموازين العدل تطيش ، والقوانين الدولية تطبَّق بمعيارين - حتى داخل المؤسسات الدولية كالأمم المتحدة ومن قبلها عصبة الأمم - كلما عرض شأن أو طُرحت قضية تمس حقـوق هـذه الدول الشرقية أو الشعوب . ألم يقل هذا الرجل - الجنرال اللنْبى - عند دخوله القدس قائداً لجيوش الحلفاء فى الحرب العظمى ، بلا داع ولا مبرر ، إلا داع ماكر فى نفسه ، وفى نفوس حلفائه : « ها قد عُدنا يا صلاح الدين»؟!...يقصد صلاح الدين الأيوبى ، محرر القدس والشام من استعمار الصليبيين ؟!.

حاول بعض المؤرخين التماس العذر لويلسون ، بأنه كان واقعاً تحت تأثير لويد جورج رئيس وزراء بريطانيا آنذاك ، وقال آخرون : إن المصالح المشتركة بين بريطانيا وأمريكا كانت غلابة . وقال غيرهم : إن رئيس وزراء بريطانيا الماكر استطاع أن يُقنع ويلسون بأن مبادئه أثارت الهياج والاضطرابات فى مصر ودول أخرى ذات أهمية كبرى بالنسبة لبريطانيا ، وأن اعترافه بالوضع الراهن كفيل بتهدئة النفوس والقضاء على الشغب ...

كل ذلك واهٍ ، لا يدفع تهمة ، ولا يزيل شُبهة . وقديماً قالوا - إن صحت تلك المبرارت - : (رُب عـذر أقبـح مـن ذنْب !) ... فـرئيس الولايـات المتحدة الأمريكيـة - وكان يدَّعى يومها أنه يحمى القيم والفضائل ، ويصون الحقوق - ليس رجلاً ساذجاً ، ولا قاصر الإدراك عن تقدير المواقف حق

(١٠) كان فى نص مبادىء ويلسون : « إن الشعوب لا تُحكم أو تُساد إلا بمحض إرادتها ورغبتها » . وأيضا : «إن الشعوب لا يجوز أن تُنقل من سيادة دولة إلى أخرى » . .

قدرها ، معرفة العواقب ... ولا خافٍ عليه ما يجرى فى مصر من أيام محمد على ، وحتى اشتعال ثورة ١٩١٩ . وها قد رأينا قُنصله يمر بمظاهرة نسائية فى القاهرة ، فيغضب لسخْف جنود الاحتلال الإنجليزى وسوء معاملتهم ؛ فيطلب من القائد العسكرى البريطانى رفع الحصار عنهن . ثم إن مصر ليست بلداً تافهاً ، خاملاً ، نكرة ، مجهول الحضارة والتاريخ ، متوارى الموقع والمكانة ، أو أقل قدراً وقيمة إقليمية وعالمية من دول مستعمرات لا تكاد تَبين على الخرائط ، وقَلَّ أن سمع بها أحد ، نالت حقوقها كاملة وحريتها فى مؤتمر الصلح ، وبناء على مبادىء ويلسون . وشىء آخر :



الملك فـــاروق

إن سياسات الدول الكبرى واستراتيجياتها بعيدة المدى ، لا تُعرف ولا تظهر فجأة،ولا تُعلن على الملأ قبل التمهيد لها ـ عمليًّا ، ودعائيًّا ، ودبلوماسيًّا ، وبكل الطرق ـ بفترات قد تمتد إلى سنوات وسنوات . ومن المرجح ـ إن لم يكن هو الأرجح ـ أن الولايات المتحدة الأمريكية أدركت جيداً خلال سنوات الحرب وفى فترة الشهور الطويلة التى عاشها ويلسون فى مناقشات ومناوشات ومشاكسات فى مؤتمر الصلح فى فرنسا ، أدركت أن صراعات أوروبا الوخيمة المعقدة لن تنتهى بسلام ، وأن عصر سيادة أوروبا على العالم على وشك الزوال ، وأن شمس بريطانيا « العظمى » تنحدر نحو الغروب ، وأنه قد حان وقت طلوع فجر السيادة الأمريكية ، وهى الأوْلى بميراث قوة ونفوذ وسيطرة أوروبا وبريطانيا بالذات . ألم يتحقق ذلك بعد نحو ربع قرن فقط من مؤتمر الصلح فى فرساى؟. وإذا عدنا اليوم بالذاكرة قليلاً إلى عام ١٩٥٢ ، وساعة خروج الملك فاروق من مصر بعد تنازله عن العرش : من كان فى وداعه من الأجانب الرسميين على ظهر الباخرة التى كانت بميناء الإسكندرية ، تحمله وأسرته ؟.. السفير الأمريكى، فقط !.



جـورج كليمنـصو

● فوجىء الشعب المصرى وفُجع ، وغضب وسخط ، عندما بلغه اعتراف معاهدة الصلح والرئيس ويلسون بالحماية البريطانية . وهو الشعب البطل ، الذى لم يبخل بالنفس ، ولا بالجهد ، ولا بالمال ـ طواعية ـ من أجل استرداد حقوقه وحريته . لقد جمع أبناء مصر ـ فى اكتتاب شعبى من أجل تغطية نفقات الوفد المصرى إلى فرنسا وإنجلترا ـ ما يزيد على مائتى ألف جنيه (وهو مبلغ ضخم فى ذلك الوقت) (١١).

---

(١١) كان الوفد المصرى الذى سافر إلى باريس يوم ١١ إبريل ١٩١٩ مكونًا من : سعد زغلول / على شعراوى / حمد الباسل / محمد محمود / عبد الخالق مدكور / حسين واصف (وكلهم باشاوات) ، والبكوات : عبد العزيز فهمى / أحمد لطفى السيد / محمد على علوبة / عبد اللطيف المكباتى / سينوت حنا / جورج خياط / مصطفى النحاس / حافظ عفيفى/ محمود أبو النصر/ ويصا واصف .

● أصدر الوفد المصرى من باريس بياناً ، أبدى فيه احتجاجه على ما ورد فى معاهدة الصلح ، متعلقاً بإقرار الحماية البريطانية على مصر . وأرسل مذكرة تفصيلية تشرح وجهة نظره القانونية والتاريخية ومطالب شعب مصر العادلة الواضحة ، أرسلها إلى رئيس وزراء فرنسا جورج كليمنصو ، بعد أن خاب الرجاء فى استجابة من بريطانيا أو الولايات المتحدة التى جعلت مبادىء رئيسها أساساً للهدنة وللمؤتمر . وزاد الغضب والسخط فى مصر؛ وعادت المظاهرات .

● ثم يفاجأ الناس ـ والعالم ـ بأن مجلس الشيوخ الأمريكى يصدر فى أغسطس ١٩١٩ قراراً بعدم التصديق على معاهدة الصلح ويوافق على ما عرضته عليه لجنة الشئون الخارجية بالمجلس من أن « مصر من الوجهة السياسية ليست تابعة لتركيا ولا لبريطانيا ، ويجب أن تكون صاحبة الأمر فى تقرير مصيرها » .

● اغتبط الشعب ـ فى مصر ـ بهذا النبأ ، وهو يرى فيه بصيصاً من نور يكشف للعالم وجه الحق ، وصدق العدل فى قضيته ؛ فخرجت المظاهرات الحاشدة ، وقابلها جيش المحتل الشرس بالعنف والاضطهاد ، والقتل والاعتقال . وفرض غرامة على الشعب فى المناطق التى وقعت بها تلفيات ، بلغ مجموعها ٢٢٤٣٥٥ جنيها . وتستقيل الوزارة ، وتتبعها غيرها ، ثم تستقيل ... وهكذا . وفى سبتمبر ١٩١٩ يلقى طالب بالمعهد الدينى بالإسكندرية قنبلة على سيارة رئيس الوزراء محمد سعيد باشا ـ وكان من الخاضعين للقصر وللإنجليز ، معادياً للثورة ، مضطهداً للثائرين المسالمين ـ لكن القنبلة لم تصبه؛ وحكم على الشاب بالأشغال الشاقة عشر سنوات .

● حدث خلاف بين أعضاء الوفد المصرى ، أدى إلى انفصال إسماعيل صدقى ، ومحمود أبو النصر ، وحسين واصف عنه ، وانضم إليه على ماهر .

● فى أكتوبر ١٩١٩ ، قرر السلطان فؤاد « منح تعويضات ضحايا الفتن والقلاقل السياسية التى وقعت فى القطر المصرى منذ ١٠ مارس ١٩١٩ » . ونلاحظ أن « عظمة السلطان المبجل ! » يصف مطالب شعبه الوطنية العادلة بأنها « فتن وقلاقل سياسية»، علما بأن هذه التعويضات التى قررها مرسوم عظمته مقصود بها أن تُدفع ـ من أموال الشعب ، لا من أمواله هو الخاصة التى هى أيضا من ثروة الشعب ـ إلى الأجانب المقيمين فى مصر . وخصص لها المرسوم مبلغ « مليون جنيه » ـ وهو مبلغ ضخم بالنسبة



بعض زعماء
الثورة المصرية

للميزانية ـ وكلف لجنة مكونة من سبعة أشخاص للنظر فى هذه التعويضات أربعة منهم من الأجانب ! ، وكأن « ولىّ النِّعم » يعاقب الشعب العظيم المجاهد البطل ! .

● فى ١٥ نوفمبر ١٩١٩ ، كانت وفاة المجاهد الوطنى محمد فريد ـ خليفة مصطفى كامل ـ وهو فى منفاه فى أوروبا ، بعد مرض قاس طويل ، وعمل دائب مستمر مشرف من أجل مصر وقضيتها ومطالبها فى الحرية والاستقلال لكل وادى النيل (أى مصر والسودان معاً) .

● اشتد غيظ المحتل البريطانى من سخط وصمود شعب مصر العظيم ، وإصراره على موقفه ؛ فعقدت محاكمات عسكرية بريطانية استنادا إلى الأحكام العرفية فى كل مناطق مصر لمحاكمة الثوار الأبطال ـ وكل ذنبهم المطالبة بالحق المغتصب ، ورفع الظلم والعنت والاستعمار عن الناس ـ وصدرت الأحكام بالإعدام وبالأشغال الشاقة ، وبالسجن ، وبالجلْد .. بالعشرات ، والمئات .

● أرادت الحكومة البريطانية أن « تمتص » غضب وسخط المصريين ، فأعلنت ـ مع إصرارها على الحماية ـ إيفاد لجنة برئاسة وزير المستعمرات ألفريد ملنر ، مهمتها : «تحقيق أسباب الاضطرابات التى حدثت أخيراً فى مصر وتقديم تقرير عن الحالة فى تلك البلاد وعن الشكل القانونى النظامى الذى يُعد تحت الحماية البريطانية لترقية أسباب السلام واليُسر والرخاء فيها ، وتوسيع نطاق الحكم الذاتى لها .. وحماية المصالح الأجنبية » ، فكانت

هذه بداية سلسلة من إيفاد اللجان وإعداد التقارير ، وعقد جلسات فى القاهرة وفى لندن ، امتدت لشهور وسنوات ، انتقلت فيها مطالب الشعب العظيم ـ الذى لم تهدأ ثورته وغضبته لفترة طويلة ـ انتقلت أمانة فى أيدى الزعماء الذين اختارهم وصنعهم ، وإن غيَّرت الظروف والأيام بعض ما صاغ فيهم وأراد منهم ، ولقد اشتجروا فيما بينهم واختلفوا ، بدافع من تباين الرأى ، أو بباعث من رغائب الهوى ، أو باستمالة من العدو الماكر المحتل .

● وعلى الرغم من تأكيد بريطانيا باستمرار ، وفى كل المفاوضات والمناسبات، بأن الحماية لن تُرفع ، وأن جيشها من مصر لن يرحل(١٢) ، ورغم موقف القصر السلطانى (الذى أصبح القصر الملكى بعد الاستقلال) المتعاطف مع الإنجليز ، والخاضع لنفوذهم ، والكاره لثورة الشعب ، ورغم تعيين وزراء ورؤساء وزارات من أمثال وزارة محمد سعيد ، ويوسف وهبة ، ومحمد نسيم .. الذين كانوا عوناً للقصر وللإنجليز على الشعب الثائر الصامد الشجاع ، رغم ذلك كله وغيره ، ظل الكفاح الوطنى ثابتاً قوياً، وصوت الجماهير عالياً مدوياً، مختلطاً بطلقات المدافع والبنادق ، وضربات العِصىّ والسياط ، وأزيز المشانق ، وآهات الجرحى والمعذَّبين .

● ومن الواجب علينا أن نذكر هنا موقفين كريمين يؤكدان ظاهرة جلية فى تاريخ مصر الخالدة وثورتها سنة ١٩١٩ المجيدة : وحدة الأمة ـ باستثناء بعض الشراذم والمنتفعين من الاستعمار وهم قلة ـ وتأثير « روح » الشعب الثائر على كل الطوائف والفئات والمستويات :

عندما تألفت وزارة يوسف وهبة فى نوفمبر ١٩١٩ على أثر صدور بلاغ دار الحماية البريطانية بقدوم لجنة ملْنر التى ستقترح النظام السياسى لمصر تحت الحماية البريطانية ، زاد الغضب والسخط فى أرجاء مصر ، ونقم الشعب على يوسف وهبة باشا رضاءه بتأليف وزارة فى ظل هذا الإعلان الذى يؤكد تثبيت الحماية البريطانية ، أى الاحتلال . ومع أن رئيس الوزراء هذا كان قبطيا ، إلا أن الكنيسة المرقصية الكبرى بالقاهرة عقدت اجتماعاً كبيراً فى اليوم نفسه برئاسة القمص باسيليوس ، وكيل البطريركية ، خطب فيه عدد من الشخصيات المرموقة ، أعلنوا فيه سخطهم على وهبة باشا ،

---

(١٢) فى فبراير ١٩٢١ أعلن ونستون تشرشل وزير المستعمرات أن مصر هى جزء من الإمبراطورية البريطانية المرنة ، وتوقع أن الصعاب القائمة بين بريطانيا وأيرلندا ومصر سوف تتناقص خلال سنوات قليلة (وخاب ظنه ، إذ مازالت مشكلة أيرلندا ومطالبها فى الاستقلال عن بريطانيا قائمة حتى الآن ١٩٩٨) .

وأرسلوا إليه برقية سجلها التاريخ المشرف للوحدة الوطنية ، جاء فيها :

« الطائفة القبطية المجتمع منها ما يربو على الألفين فى الكنيسة الكبرى تحتج بشدة على إشاعة قبولكم الوزارة ، إذ هو قبول للحماية ولمناقشة لجنة ملنر ، وهذا يخالف ما أجمعت عليه الأمة المصرية من طلب الاستقلال التام ومقاطعة اللجنة .. فنستحلفكم بالوطن المقدس وبذكرى أجدادنا العظام أن تمتنعوا عن قبول هذا المنصب الشائن » .

ـ الموقف الثانى المبجل ، جاء من جانب بعض أمراء أسرة محمد على ، وفى مقدمتهم ـ كعادته ـ الأمير عمر طوسون . فى ٣ يناير ١٩٢٠ أذاع الأمراء عمر طوسون ، وكمال الدين حسين ، ومحمد على إبراهيم ، ويوسف كمال ، واسماعيل داود ، ومنصور داود ، بيانا على شكل رسالة موجهة إلى شعب مصر، أعلنوا فيها تضامنهم مع أبناء الأمة فى المطالبة بالاستقلال التام بلا قيد ولا شرط (ولو أنها جاءت متأخرة بعض الشىء) :

« أبناء مصر مواطنينا الأعزاء :

.. إن الأمة الشريفة التى هى سبب عظمتنا وشوكتنا (شدة قوَّتنا) وفخارنا قد قامت بالواجب عليها قياما يجعل لها ولنا أعظم منزلة نتفاخر بها فى العالم بأسره . وبما أنه لم تَبْق من جميع طبقات أمتنا العزيزة طبقة إلا نادت بأعظم صراحة ، وأجْلى بيان ، مطالبة بحقوقها الشرعية المقدسة والحقة ، فقد جئنا نحن أولاد محمد على ،لا لنشارك أمتنا فى أمانيها ومقاصدها فقط ، بل لنضم صدورنا إلى صدور أفرادها ، ونجعل أيدينا فى أيديهم ، حيث إننا لسنا إلا روحاً واحدة ، حتى نكون جسماً لا يُبْتر ، وقوة لا تُقهر ، فنطالب بحقوق وطننا ، نطالب بحقوق أمتنا ، نطالب بحقوقها الشرعية ، نطالب باستقلال مصر استقلالاً تامًّا مطلقاً ، بلا قيد ولا شرط » .

وفى اليوم ذاته ، أرسلوا برقية بهذا المعنى إلى اللورد ملنر .

● فى فبراير ١٩٢١ ، اضطرت الحكومة البريطانية ـ راغمة ـ إلى الاعتراف بأن «الحماية البريطانية علاقة غير مُرْضية » .

● فى ٢٨ فبراير ١٩٢٨ ، أعلنت بريطانيا إلغاء الحماية على مصر ، كما اعترفت صراحة وعلانية بمصر دولة مستقلة ذات سيادة (وإن ظل جلاء الجنود الإنجليز عن مصر مطلباً مؤرقاً ملحًّا ، حتى تم عام ١٩٥٤) .

نجحت الثورة . وفاز الشعب البطل . وانكسرت الإمبراطورية البريطانية ،

وذل كبرياؤها بالحرب العالمية الثانية . وانتزعت منها أمريكا سيادة العالم الغربى، وفى مواجهة الاتحاد السوفييتى . ولم تعد الحياة فى مصر بعد ثورة شعبها عام ١٩١٩ مثلما كانت قبل الثورة : سياسيًّا وفكريًّا واقتصاديًّا واجتماعيًّا وثقافيًّا وعسكريًّا . وهكذا كان حصاد تلك الثورة ، وفيه دليل على نفاذ قانون إلٰهى حكيم ضابط للحياة : « فأما الزَّبَد فيذهب جُفاء وأما ما ينفع الناس فيمكثُ فى الأرض » ـ الرعد ١٧ .

